د. عثمان سعدي

البربر الأمازيغ عرب عاربة

وعروبة الشمال الافريقي عبر التاريخ



قاف.عين

عثمان سعدي

الأمازيغ "البربر" عرب عاربة

وعروبة الشمال الإفريقي عبر التاريخ



دار الأمـــة ©

للطباعـــة والنشـــر والتوزيـــع

ص. ب. 109 برج الكيفان 16120 الجزائر

الهاتف / فاكس : +213.23.31.36.57 / +213.23.31.33.06

email : oummabooks@gmail.com

طبعــة : 2018

ردمك: 978-9961-67-402-4

إيداع قانوني: السداسي الأول / 2018

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

عندما قررت إعادة طبع كتابي (عروبة الجزائر عبر التاريخ) الذي طُبع طبعتان: الأولى سنة 1983 من طرف الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، والثانية من طرف المؤسسة الوطنية للكتاب سنة 1985، والذي نفذت طبعتاه من السوق، منذ 1986، مع تمنع المؤسسة عن إعادة طبعه، قمت بإضافات كبيرة، نظرا لبعد المسافة الزمنية بين 1981 سنة تحرير الكتاب الأول، وسنة 1996. ووجدت أن الكتاب لم يعد الكتاب الأول، وإنما صار كتابا جديدا. فقد عرفت المسألة الأمازيغية خلال هذه السنوات الخمس عشرة، تطورا كبيرا وبخاصة سنة 1995، سواء على مستوى الجزائر، أو على مستوى المغرب الأقصى. وقررت أن يكون الكتاب جديدا، بعنوان جديد هو "الأمازيغ (البربر) عرب عاربة، أو عروبة المغرب عبر التاريخ". وذلك لأنني عدت إلى مراجع جديدة تجاوزت ضعف مراجع الكتاب الأول. كما أن صفحاته قد تضاعفت.

لقد ميّز سنة 1980 ملتقى إيعكوران، وميّز سنة 1995 تأسيس المحافظة السامية للأمازيغية، وجرت أحداث خطيرة بين هاتين السنتين جديرة بأن ترصد وتحلّل، ليطلع المواطن الجزائري والمغربي بصورة عامة، والعربي بصورة أعم، على ما يحاك ضده من طرف دوائر مشبوهة بالعالم. فإحياء لهجات، ومحاولة تحويلها إلى لغات، لم يعد قاصرا على القطر الجزائري، أو قطر المغرب الأقصى، وإنما امتدّ إلى أقطار عربية أخرى. ففي مصر مثلا وبتخطيط من دوائر صهيونية أثيرت في السنوات الأخيرة مسألة اللهجة النوبية، والقبطية، وتأسست جمعيات مشبوهة، أقامت لها المهرجانات والملتقيات، والمؤتمرات، على غرار ما جرى ويجري عندنا. وفي سنة 1996 تنبهت الحكومة المصرية إلى

خطورة ما يجري، فوضعت له حدا؛ فقد علمت أن هذه الجمعيات المشبوهة حلت وأوقفت محاولات النوبية والقبطية.

إن خطة الصهيونية، منذ بداية القرن، تتمثل في تفتيت الوطن العربي إلى دويلات على أساس عرقي أو طائفي: دولة الأكراد، ودولة الموارنة، ودولة الدروز، ودولة العلويين، ودولة الشيعة، ودولة الأقباط، والدولة النوبية، والدولة البربرية. وبمجرد أن سنحت لهذه الدوائر الفرصة، فصل شمال العراق الكردي عن القطر الأم، وتوضع الآن الأسس لخلق الدولة الكردية بالأرض العربية، لا في تركيا ولا في إيران حيث الأكراد أكثر كثافة منهم في العراق. والتآمر هذا يدور الآن حول اللغة العربية، العامل الوحيد القوي الذي لا زال يربط العرب كشعوب ودول، بعد أن تمت لأعداء الأمة العربية تكييف السياسة والاقتصاد العربيين، وفقا لما يريدون، بواسطة انفتاح متوحش حوّل الوطن العربي إلى سوق لبضائع الغرب وحليفته إسرائيل، وإلى بئر بترول رخيص، وحوالي ألف مليار دولار عربية مودعة في المصارف الغربية - اليهودية تدر الخير العميم على إسرائيل.

فالعربية في هذه المرحلة هي المستهدفة، فمنذ نهاية العقد الثامن من هذا القرن تزرع العواصم العربية بالنوادي والجمعيات المشبوهة، من أجل توجيه الشباب إلى الأغنية الغربية، والرطن بالكلمات الأجنبية في تعاملهم؛ ومن أجل توسيع سيطرة الفرنسية بالمغرب، والإنجليزية بالمشرق، على تدريس العلوم والتكنولوجية، وعلى ما يسمى بالبحث العلمي، خدمة لاقتصاد (التربندو - الشنطة)، الذي يتسبب في هجرة المئات من الكفاءات العربية سنويا.

واكتشفت دوائر الصهيونية، والاستعمار الجديد، التي تتحكم الآن في الأوضاع، أن أنجع طريقة لضرب العربية، خلق ضرات لها، كالكردية، والنوبية،

والقبطية، والبربرية وتطويرها بالحرف اللاتيني من لهجات إلى لغات، يتم على أساسها بلقنة الوطن الكبير.

لقد بدأت المسألة الكردية في العراق باللغة الجهوية، وانتهت بالانفصال. وهذا ما سينتظرنا بالجزائر. بل إن المسألة أخطر من المسألة الكردية، فالأكراد لم يطلبوا في يوم من الأيام إصدار مرسوم عراقي يعترف فيه باللغة الكردية كلغة رسمية ووطنية، وإنما طالبوا بالاعتراف لهم بلغتهم كلغة جهوية تدرس بمناطق الأكراد فقط وبالحرف العربي، مع التسليم بأن اللغة العربية هي اللغة الرسمية الوطنية العامة بالعراق بما في ذلك المناطق الكردية. لم يطالب الأكراد بإلزام تعليم الكردية للطفل البغدادي أو الموصلي أو البصري العربي.

وفي فرنسا يوجد ملايين البروتون، وملايين الألزاسيين اللورانيين، لكنه لم يحدث أبدا أن طالب ألزاسي أو بروتاني بفض لغته على الطفل الباريزي أو الليوني أو المارسيي. وتدرس البروتانية كلغة جهوية محلية في بروتانيا، مع تسليم البروتانيين بأن الفرنسية هي اللغة الوطنية والرسمية الوحيدة لكل الأمة الفرنسية. ولا نشاهد نشرة أخبار بالبروتانية، أو بالألزاسية، أو بالباسكية، في قنوات التلفزة الفرنسية (TF1 أو TF2) أو غيرها. ولم نسمع في يوم من الأيام أن الزعيم الفرنسي اليميني (لوبان) البروتاني، ألقى خطابا أو صرح تصريحا بالبروتانية، بل نراه لا يستعمل إلا الفرنسية.

أما بربريست الجزائر فهم يطالبون بتعميم تدريس الأمازيغية (أي اللهجة القبائلية الملتّنة المعدة في مختبرات الأكاديمية البربرية بباريز) على كل الجزائريين بمن فيهم العرب الذين يؤلفون أكثر من ثمانين في المائة من الشعب. علما بأنه لا وجود للغة أمازيغية مركزية أمّ، وإنما توجد لهجات أمازيغية: كالقبائلية، والشاوية، والميزابية، والتارقية، والزناتية بتيميمون، والشلحية بالغرب، والشرشالية، وغيرها من لهجات خاصة بكل جيب أمازيغي منتشر

في بلادنا، حتى أن عالما فرنسيا متخصصا في البربرية وهو (رونيه باسيه) يقدر عددها بشمال إفريقيا بخمسة آلاف لهجة، وينكر حتى وجود لهجات بربرية، وإنما الذي يوجد -في نظره- هو مجرد واقع لهجوي خاص بكل قرية يصعب التفاهم بين متحدثيها. فحتى (البربريون) يعترفون بعدم وجود لغة أمازيغية. ففي حديث رئيس المحافظة السامية للأمازيغية لجريدة (El Watan) في شهر سبتمبر 1996، اعترف فيه بهذه الحقيقة وطالب «بضرورة توحيد اللهجات الأمازيغية»، وخلق لغة منها؛ أي خلق ضرّة للعربية من العدم، خدمةً للفرنسية.

إن النزعة البربرية هي مسألة قبائلية، يقول الجنرال "أندريه ب. ج. P.J. Andre) عضو أكاديمية العلوم الاستعمارية الفرنسية، سنة 1956: «إن المسألة البربرية في الجزائر هي في الحقيقة مسألة قبائلية...» وأروع تحليل لظاهرة النزعة البربرية بالجزائر، ما كتبه الزعيم المغربي الكبير الأمازيغي الأصل، العروبي الفكر الأستاذ محمد البصري، تعقيبا على حوادث تيزي وزو سنة 1980 حيث قال: «**فالذين يثيرون (المسألة البربرية بالجزائر)، يفعلون ذلك حفاظا على مصالحهم الاقتصادية والوظيفية في جهاز الدولة والإدارة الجزائرية. وهؤلاء هم بربر منطقة القبائل، الذين تفرنسوا لغةً منذ وقت طويل، ومن ثمَّ مكنهم الاستعمار من شغل كثير من المواقع الثانوية في الإدارة والتجارة وبخاصة في العاصمة، التي تقع قرب منطقة القبائل. وحين حصلت الجزائر على الاستقلال كان هؤلاء هم الكوادر الوحيدة المدربة، فانتقلوا من المواقع الثانوية إلى المواقع الرئيسية الأولى، التي أخلاها الفرنسيون في أجهزة الإدارة والخدمات والإنتاج. ومع اشتداد موجة التعريب في الجزائر بات هؤلاء يشعرون بالخطر على مصالحهم، فرفعوا شعار (الثقافة البربرية) حينا، وشعار (الثقافة الجزائرية) حينا آخر، في مواجهة التعريب والثقافة العربية**».

وقد تجاوز البربريست كل الخطوط الحمراء، فهم يطالبون بتغيير مضمون الهوية الوطنية من ثنائية تتمثل في العروبة والإسلام، مثلما نصّ عليه بيان أول نوفمبر، ودرج عليه المغرب العربي منذ أربعة عشر قرنا، إلى ثلاثية بإضافة الأمازيغية. إذا تحقق ذلك -لا قدّر الله- فإن غسلفة الجزائر ستتحقق، وستدمر الوحدة الوطنية. وقد بدأوا بالفعل في التمهيد لذلك، فهم يقولون إن الجزائر لم تعد عربية، وإنما (هي أمازيغية - عربية)، فتحتج صحافتهم على تصريح وزير خارجية الجزائر السابق السيد محمد الصالح دنبري بأن الجزائر عربية. إنهم يطالبون بأن ينصب تمثال للكاهنة في ساحة الشهداء بالعاصمة، نعم للكاهنة الوثنية التي كانت تعبد صنما، والتي حاربت الإسلام. ولم يطالبوا بنصب تمثال (لالاّ فاطمة نسومر) لأنها مسلمة مجاهدة حاربت الاستعمار الفرنسي!! ولنتصور أن ينصب تمثال لأبي لهب في الساحة الرئيسية لمدينة الرياض، ويطالب بإلغاء سورة (تبّت يدا أبي لهب).

وهم يطالبون كذلك باعتماد ما يسمى برأس السنة البربرية الذي خلقه لهم الآباء البيض من العدم، حتى يوازوا به رأس السنة الهجرية. وهم يطالبون باعتماد مهرجان إيعكوران -الذي أدارته من باريس في 20 أفريل 1980 عناصر الأكاديمية البربرية، من ضباط الـ (OAS) والآباء البيض- كيوم عيد وطني.

ويفسّر البربريون ثلاثية الهوية تفسيرا عنصريا عرقيا، فقد كتب عزالدين الزعلاني عضو المحافظة السامية للأمازيغية، مقالا طويلا في صحيفة (Le MATIN) عددي 2-3 / 10 / 1996 قال فيه: «إن الأمازيغية بالنسبة لشعبنا وجود (ETRE)، والعربية، والإسلام، والفرنسية مكاسب، أي عناصر مقبولة منا، فهويتنا أحادية ولابد أن تكون أحادية، أي أمازيغية فقط، والعربية والإسلام مكملان لها». ومعنى هذا الكلام أن العربية والإسلام عنصران مقبولان من الجزائر، ويمكن للعنصر المقبول أن يستبدل، أو أن يتخلّى عنه في أي وقت.

وكان أكبر استفزاز قاموا به هو قرارهم بعقد مؤتمرهم في باتنة، عاصمة الأوراس الأشمّ، علما بأن الشاوية يرفضون -بإصرار- الانسياق في تيار النزعة البربرية الهدامة، وبرهنوا على ذلك عمليا عندما واجهوا بالحجارة زعيم النزعة البربرية (سعيد سعدي) لدى قيادته سنة 1991 لعشرات من شباب تيزي وزو المغرر بهم، في عشرات الحافلات، والتوجه بهم إلى باتنة وهو يقول: «لقد قررت فتح الأوراس للبربرية». فما كان من شباب الأوراس إلا أن منعوه بحجارة الأوراس من دخول باتنة. وهو الذي يقول أيضا في كتابه الأخير الذي طبعته دار (Flamarion) الفرنسية سنة 1996:

«من هو غير بربري ليس بجزائري (Ce qui n'est pas berbere n'est pas un Algérien).

إن خطة الصهيونية هي خلق دويلات عرقية بالوطن العربي كما سبق أن بينت، ومن هذه الدويلات الدولة البربرية. ويؤكد ذلك الأستاذ بن يوسف بن خدة، رئيس الحكومة المؤقتة خلال الثورة الجزائرية، الذي صرّح لأسبوعية (الحرية) الجزائرية، في عددها (83 - 5/ 8/ 1996) بما يلي:

«يوجد أكثر من تقارب بين البربريين وبين اليهود، وهذا ما يجعل شخصا مثل (سعيد سعدي) لا يتردد في التباهي بعلاقاته مع سفير إسرائيل في باريس بمقتضى هذه المفاهيم والأطروحات المشتركة).

لقد برهن الشاوية وغيرهم من الفئات البربرية الأخرى، رفضهم عمليا للنزعة البربرية الهدامة، عندما رفضوا الانسياق في عملية إضراب المدارس بالسنة الدراسية (1994 - 1995). هذه العملية التي حصرت في بلاد القبائل، وأكّدت بالتالي أن هذه النزعة مسألة قبائلية.

قلت لقد قرر البربريست عقد مؤتمرهم في باتنة، وتحرك نتيجة لذلك مجاهدو الأوراس، فأصدروا لائحتهم الأولى في 31 مارس 1996، رفضوا

فيها عقد هذا المؤتمر بباتنة. وحددوا فيها -وهذا هو المهم- مفهوم الأمازيغية وطنيا (الذي يتعامل معها كلهجات روافد للعربية الأم، لا فرق بينها وبين لهجات العربية الحديثة؛ وكعنصر من تاريخنا، مثل الفرعونية بمصر، والفينيقية بسوريا، والبونيقية بالمغرب العربي، والأشورية بالعراق، التي تعد كلها روافد للحضارة العربية القديمة).

وكان عرب الجزائر ساخطون بصمت من ظاهرة النزعة البربرية (البربريزم) المنطلقة من بلاد القبائل، منذ 1980، لكنهم كانوا يتجنبون الجهر بذلك خوفا من اتهامهم بالعنصرية العربية ضد البربرية.

ووجد عرب الجزائر ضالتهم في اللائحة فراحوا يساندونها، ويساندون من خلالها مفهوم الأمازيغية الوطني عند أمازيغ الشاوية، الذين يمثلون أكبر تجمع بربري بالجزائر. وأصدرت الولايات التاريخية للثورة السادسة، والخامسة، والقاعدة الشرقية، بيانات تؤيد موقف الشاوية.

وأصدر أحمد بن بلا رئيس الجمهورية الأسبق، ورئيس المنظمة الخاصة للثورة، التي أعدت للثورة، بيانا أيد فيه لائحة الولاية الأولى، وثمن فيه موقف الشاوية «الذين لم تشوههم دسائس الاستعمار في المسألة الأمازيغية، -علما بأن بن بلّا أمازيغي-. وهكذا يعيد التاريخ نفسه فيقوم الأوراس بإنقاذ دولة أول نوفمبر من مؤامرة البربريزم، صنيعة الاستعمار الفرنسي الجديد، مثلما أنقذ الجزائر بتفجيره للثورة سنة 1954 من الاستعمار الفرنسي القديم»، كما ورد في بيان أحمد بن بلّا. وهكذا كانت استفزازاتهم للشاوية سببا في تحديد معالم طريق الخلاص من نزعتهم الهدامة، حددها في هذه المرة أبطال أوراس النمامشة.

وأمام إصرار البربريست على عقد مؤتمرهم بباتنة في شهر أغسطس، أصدرت الولاية الأولى التاريخية أوراس النمامشة لائحة رفض ثانية، بتاريخ 17 يوليو 1996. وهبت الشخصيات والأحزاب الوطنية تدعم هذه اللائحة،

فصدرت التعليمات العليا إلى (المحافظة السامية للأمازيغية) بإلغاء المؤتمر المذكور، الذي أرادت منه هذه الأخيرة «إخراج المسألة الأمازيغية من الغيتو (Guetto) القبائلي» كما جاء في جريدة النزعة البربرية الأولى (LIBERTE)، عدد 3/ 8/ 1996. ونحن نقول للبربريست الفرنكوفيل: «حاشا لبلاد القبائل الأبطال أن توصف بالغيتو اليهودي للبربريزم، فهي عرين الأسود، وبلاد الشيخ الفضيل الورتلاني، ولالا فاطمة نسومر، والشيخ السعيد الصالحي، والشيخ أحمد حسين، ومولود قاسم نايت بلقاسم، والعقيد عميروش، وغيرهم من مجاهدي الجزائر العربية المسلمة. وأن النزعة البربرية (البربريزم) التي تعاني منها الآن ماهي إلا سحابة صيف سوف تنقشع عنها، عندما تكتشف جماهير القبائل ضلال هذه النزعة، وقريبا سيتم ذلك...».

فالبربريست الفرنكوفيل يعتقدون بأنهم أرادوا بهذا المؤتمر جر الشاوية إلى تيارهم، ويعترفون بأنه إذا لم ينضم إليهم الشاوية، فإن مآل تيارهم الفشل. ويستعمل البربريست أسلوب الإرهاب، فقد وجهوا لي تهديدات بالقتل على كتاباتي ضدهم، وأنا لا أخافهم، فأنا من الأمازيغ (البربر) من النمامشة، أكبر قبيلة بربرية. وبلغ بهم الغيّ أن رفعوا دعوى قضائية ضدي، عن طريق محافظتهم السامية، في شهر يونيو (حزيران) سنة 1996.

وخير ما أختم به هذه المقدمة ما قاله أبو النهضة الجزائرية عبد الحميد بن باديس الصنهاجي:

شعـــب الجزائــر مسلـــم　　　وإلى العروبــــة ينتســب

الجزائر في 23 نوفمبر (تشرين الثاني) 1996

من هم الأمازيغ (البربر) ؟

مدخل:

يكثر الحديث في هذه الأيام عن البربر: عن أصلهم، عن لغتهم، عن تاريخهم مع العرب ومع العربية ومع الإسلام. وأنا هنا أستعرض تاريخ المسألة البربرية، عبر مراجع فرنسية لتعزيز رأيي الوارد في الكتاب، والمتمثل في أن البربر من العرب العاربة، استقروا بالمغرب ضمن هجرات سابقة للفتح الإسلامي، على أساس أنهم ساميون، أي من العرب القدامى؛ بسبب بطلان التسمية السامية لتاريخنا، بإجماع المؤرخين. هذه التسمية التي أطلقها المستشرق اليهودي النمساوي «شلوتزر (Shlotzer)» في الربع الأخير من القرن الثامن عشر. ويستبدل المؤرخون مصطلح الساميين بالأقوام العربية القديمة، ومصطلح اللغة السامية بالعربية القديمة أو العروبية.

إن البربر يعيشون في حوض حضاري، ولا أقول (عرقيّ)، يقع في هذا الامتداد الجغرافي، من سلطنة عمان شرقا على المحيط الهندي، إلى موريتانيا على المحيط الأطلسي غربا. وكان هذا الامتداد مسرحا لمد بشري، منذ عشرات آلاف السنين، في الاتجاهين: من المغرب إلى المشرق، ومن المشرق إلى المغرب. فالمؤرخ الفرنسي «غوتييه (E. F.Gautier)» في كتابه «ماضي شمال إفريقيا»، يرى أن «الاحتمال الكبير هو أن الإنسان الذي عمر وادي النيل هاجر من الصحراء الكبرى»[1] .

كما ششنق الأول البربري اتجه سنة 950 قبل الميلاد، من المغرب العربي الذي كان يسمى ليبيا في ذلك الوقت، وحكم مصر الفرعونية، وأسّس البربر

(1) GAUTIER - E.F. Le Passe de l'Afrique du nord, p23.

الأسرتين المصريتين الفرعونيتين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين. كما انطلق البربر من بلاد القبائل بالجزائر وأسّسوا الدولة الفاطمية، وبنوا القاهرة. إذن فإن البربر يعيشون وسط هذا الحوض الحضاري الكبير الذي عرف تبادل الهجرات منذ التاريخ القديم.

ومن الغريب أن (البربريست) افتعلوا ما يسمى بالتقويم البربري بمناسبة توجه ششنق إلى مصر، وسموه القويم الششنقي، فزيفوا التاريخ، وحوّلوا هذه المناسبة من عنصر تاريخي موحد بين مشرق هذا الامتداد الجغرافي ومغربه، إلى عنصر مكرس لانفصالهما. ويطالب "البربريست" باعتماد هذا التاريخ كرأس للسنة البربرية، والاحتفال به كعيد وطني؛ مقابلا لعيد المولد النبوي الشريف. بينما لا يعرف تاريخ البربر هذا النوع من التقويم.

البربر والعرب القدامى:

إن بعض المؤرخين: مثل أحمد سوسة العراقي، و"بيير روسيه (P. Rossi)" الفرنسي، يرون أن الموجات البشرية الخارجة من الجزيرة العربية هي التي عمرت الشمال الإفريقي وحوض البحر الأبيض المتوسط بشماله وجنوبه، وذلك منذ بدء المرحلة الدافئة الثالثة (وورم Warm 3) في التاريخ الجيولوجي للأرض، أي قبل عشرين ألف سنة. والتي نجم عنها ذوبان الجليد في أوروبا وحوض البحر الأبيض المتوسط، وزحف الجفاف على شبه الجزيرة العربية، التي كانت تنعم قبل بدء هذه المرحلة، بمناخ شبيه بمناخ أوروبا حاليا.

وتعتبر هجرة الفينيقيين إلى المغرب واحدة من هذه الهجرات المتأخرة للأقوام العربية من الجزيرة العربية التي سبقت بهجرات سابقة لها، لم يسجلها التاريخ كما سجل هجرة الفينيقيين. وتنقُّ الفينيقيين من الجزيرة العربية إلى بلاد الشام، ومن بلاد الشام إلى المغرب العربي، جاء عفويا، يؤكد تبادل هذا المد البشري في هذا الحوض الحضاري الكبير.

ويؤكد المؤرخون العلماء الأوروبيون، من خلال استقراءاتهم لعلم الآثار والنقوش والكتابات القديمة المكتشفة، أن استيطان الفينيقيين -منذ منتصف الألف الثانية قبل الميلاد (أي منذ 3500 سنة)- هو الذي مهّد لسهولة قبول البربر للغة العربية والدين الإسلامي في القرن السابع الميلادي. ويرون أن اللغة البونيقية استمرت قائمة بالمغرب العربي، كلغة ثقافة وحضارة ودواوين، حتى بعد تدمير قرطاج، وخلال الاستعمار، وإلى أن دخل العرب المسلمون؛ فحدث الوصل بين البونيقية التي هي عربية قديمة، وبين العربية التي هي لغة حديثة طورها القرآن الكريم والإسلام.

كما أن هؤلاء المؤرخين يرون أن الديانة الفينيقية، أي القرطاجنية، التي اعتنقها البربر، المؤسَّسة على شبه توحيد، هي التي جعلت نفوس البربر جاهزة لاستقبال الدين الإسلامي بهذه السهولة، بل وبهذه العفوية. إن إمبراطورية قرطاج، وحضارة قرطاج الراقية، التي استمرت سائدة في حوض البحر المتوسط وفي العالم، عدة قرون، تأسست نتيجة للتزاوج بين شعبين عربيين: الشعب الفينيقي القادم من لبنان، والشعب البربري الذي كان موجودا بالشمال الإفريقي. والذي يؤكد ذلك أن الثقافة القرطاجنية، من دين ولغة، بقيت قائمة بالشمال الإفريقي، إلى أن جاء العرب المسلمون فأقاموا عملية الوصل بين حلقتي الحضارة العربية.

وسأعرض نصوصا لمؤرخين فرنسيين، متخصصين في الدراسات البربرية والسامية، تؤكد هذه الحقيقة. فمحرروا (مادة الجزائر) في الموسوعة الفرنسية (يونيفيرساليس Universalis) يقولون:

«بدأ تاريخ المغرب الأوسط بوصول الفينيقيين الذين سجلوا حضارتهم كأول حضارة بالمدن، حيث تركت بها آثارا مكتوبة، فأسسوا مبكرا، في القرون

الأخيرة للألف الثانية قبل الميلاد، مراكز تجارية. وتطور الفينيقيون إلى قرطاجنيين، ولم يستعمروا داخل البلاد، ولكنهم طوروا هذه المدن الساحلية التجارية، والتي استمرت قائمة حتى بعد تدمير قرطاج، تحمل تسميات سامية كمدن (راسكو رو (دلس). وروس كاد (سكيكدة). وروس قونية (ماتيفو)... وكان الرؤساء البربر المسيطرون على داخل البلاد حلفاء وزبائن تجاريين للقرطاجنيين، يمدونهم بفرق عسكرية، وبخاصة بالفرسان النوميديين المشهورين، وبالفيلة الحربية والجنود. وانتشرت اللغة البونيقية والحضارة الفينيقية بعمق في البلاد وظهرت مدن للأهالي، وأضرحة ومزارات دينية، بنيت أحيانا من طرف فنيين قرطاجنيين... وهكذا فقد كان البربر تلاميذ للفينيقيين الذين علموهم أساليب زراعية وصناعية، كصناعة الزيت، والنبيذ، وصناعة الأدوات من النحاس، وعلموهم على الخصوص ديانتهم. واستمر البربر يعبدون آلهة قرطاج، حتى في أثناء الاحتلال الروماني، لدرجة أن بعض المؤرخين يرون أن المسيحية، ثم الإسلام، لم يقبلا من البربر، بهذه السهولة، إلا بسبب دخول هذه الديانة القرطاجنية المغرب، التي هي ديانة سامية. واستمرت اللغة البونيقية متداولة حتى بعد القرن الثالث الميلادي، حيث لعبت دور الوصلة إلى اللغة العربية[1].

دخول البربر العصر الحضاري:

لقد خرج البربر من العصر الحجري الحديث، ودخلوا التاريخ والعصر الحضاري عن طريق إخوانهم الفينيقيين. فالمؤرخ الفرنسي المتخصص في الدراسات البربرية "هنري باسيه (H. Basset)" يورد حقائق تؤكد ذلك، فيقول:

«إن اللغة البونيقية لم تختف من المغرب إلا بعد دخول العرب. ومعنى هذا أن هذه اللغة بقيت قائمة، هذه المدة بالمغرب، لسبعة عشر قرنا، وهو أمر عظيم...

(1) Encyclopeadia Universalis, T1, p633.

لقد استمر تأثير مدينة قرطاج قائما حتى بعد تدميرها، فقد تحولت (سيرتا) تحت حكم الملوك النوميديين (البربر) إلى مركز بونيقي، بل إن اسم سيرتا هو (قرطا)، أي المدينة بالبونيقية... لقد علم القرطاجنيون البربر الزراعة. فالبربر يكسرون الرمانة على مقبض المحراث، أو يدفنونها في أول خط للحرث، تفاؤلا بأن سنابل الحبة المبذورة ستأتي كثيرة بعدد حبات الرمانة. وهي عادة مستمدة من ثقافة قرطاج، فالرمانة لديها رمز للخصوبة، وتعتبر قرطاج مربية للبربر، فقد علمتهم كيفية الاعتناء بالزيتونة التي كانت موجودة بالمغرب كشجرة وحشية وكيفية استخراج الزيت منها. ويفصل "غزيل Gsell" هذه المسألة لغويا فيقول: (إن كلمة أزمُّور بالبربرية تعني الزيتونة الوحشية، وهو الاسم البربري لهذه الشجرة. أما إذا تكلموا عن الزيتونة الملقمة أطلقوا عليها الاسم السامي (الزيتونة)، وعلى سائلها اسم الزيت...) كما علم الفينيقيون البربر زراعة التينة التي كانت قبلهم موجودة بالمغرب كشجرة وحشية أيضا، وعلموهم زراعة الكرمة، والرمانة؛ وعلموهم عموما فن زراعة الشجر المثمر. وقد تبيّن لنا الآن أن البربر كانوا على اتصال بالفينيقيين منذ ما قبل التاريخ... وعلم الفينيقيون البربر الصناعات القابلة للتصدير كالسيراميك، وصناعة المعادن، والنسيج، والمجوهرات: كالخلاخيل، والتيجان، والخلالات (المشابك)، التي تصنع في صورة كف مبسوطة الأصابع. والتشابه واضح بين مجوهرات القبائل (بالجزائر)، والسوس (بالمغرب)، وبين المجوهرات القرطاجية. أما ديانة قرطاج فهي التي كانت منتشرة بالمغرب كالإله (بعل عمون)، والإلهة (تانيت)، وكان هذا الإله منتشرا بالعالم العربي كله، الأمر الذي أورد اسمه القرآن بالآية: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾، لدرجة أن انتشار الإسلام بشمال إفريقيا عائد إلى ما فعلته قرطاج في هذه البلاد... أما عن اللغة فقد جعل الملوك النوميديون البربر، في

العهود الأخيرة، من البونيقية لغتهم الرسمية، لدرجة أنه كان الناس في بلاد البربر، وفي المدن على الخصوص، يتحدثون البونيقية أكثر من البربرية، وحتى في العهد الروماني... إن المناطق التي انتشرت فيها البونيقية أكثر هي التي تعربت بالكامل. والبونيقية لغة قريبة من العربية التي ما أن دخلت المغرب حتى خلفت البونيقية وبسهولة، كما أن آلهة قرطاج هي التي مهّدت لانتصار الإسلام في هذه البلاد، واللغة القرطاجنية عبّدت الطريق للعربية... وخلاصة القول أن قرطاج لم تجلب سوى الخير للبربر، فقد علّمتهم غرس الأشجار المثمرة، وربّتهم روحيا ودينيا. ومن الغريب أن هذا التأثير تعمق أكثر بعد تدمير قرطاج. لقد دمرت روما أسوار قرطاج لكنها فشلت في تدمير تأثيرها في نفوس البربر، بل إنه كلما تأسس احتلال روما للمغرب كلما انتشرت وتعمقت في نفوس البربر لغة قرطاج وعقائدها؛ وهل يختلف الوضع الآن عنه آنذاك؟!!!»[1].

لنلاحظ مغزى هذا السؤال الذي طرحه المؤرخ الفرنسي إنه يريد أن يقول: أنه كلما تغلغل الاستعمار الروماني في الأرض المغربية ازداد المغاربة تشبثا بالبونيقية، وبالديانة القرطاجنية، في الماضي؛ وكلما ازداد الاستعمار الفرنسي تغلغلا الآن في الأرض المغربية ازداد البربر اتشبثا بالعربية والإسلام. إنه يريد أن يقول باحتشام: إن التاريخ يعيد نفسه. هذا ما كتبه هذا المؤرخ الفرنسي، إنه يؤكد الأصل العربي للبربر، من الحفريات والكتابات الأثرية، التي اكتشفها علماء الآثار الفرنسيون والأوروبيون بالمغرب العربي.

ويؤكد مؤرخ آخر بريطاني هو "فريند Frend" فيقول: «لقد بينت الكتابات البونيقية المكتشفة بالمغرب، والتي تحمل تاريخ 162 و147 قبل الميلاد (أي تحت حكم ماسينيسا) مدى ارتباط الأهالي بقرطاج دينيا من خلال عبادتهم

(1) Henri Basset: Les Influences Puniques chez les Berberes, Revue Africaine, V.62 (1921) p340.

لبعل عمون، الإله القرطاجي، وهذا يؤكد السيطرة المستديمة للديانة القرطاجية على السكان المحليين. أريد التحدث عن استمرار البونيقية، فقد بقيت منتشرة بالمغرب بعد تدمير قرطاج وفي العهد الروماني، وحتى عهد القديس أوغستين الذي ذكر مرارا أن السكان الذين كانوا يحيطون به، يتكلمون البونيقية. إن اللغة البونيقية استمرت بين بعض البربر كلغة ثقافة... بل إن الدوناتية مقدمة لإلغاء الإسلام للمسيحية، وللثقافة الرومانية بالمغرب. ويقول غوتييه، إن أوغستين عندما كان يسأل هؤلاء الأهالي في دروسه الواعظة، ما هو أصلكم؟ كانوا يجيبونه: نحن كنعانيون»[1].

والكنعانيون هم الفينيقيون. ويذكر المؤرخ الفرنسي "رينان E.Renan": «إن البربر اعتنقوا الإسلام بسهولة، لأنهم كانوا يعرفون البونيقية»[2].

ويذكر "غوتييه E. Gautier": «إن استعمال البونيقية كان سائدا في كثير من نواحي المغرب الشرقي؛ حتى القرن الخامس الميلادي»[3].

ويؤكد المؤرخ "وليام مارسي W.Marçais": «**إن البونيقية كانت لغة الدوناتيين، ويأسف القديس أوغستين لأن فلاحي المنطقة التي كان يعيش فيها (عنابة)، كانوا لا يجهلون تقاليد الكنعانيين والمورو، ويقول: عندما نسأل فلاحينا من أنتم؟ يجيبوننا بالبونيقية، نحن كنعانيون. كما أن القديس أوغستين لم يشر أبدا إلى اللغة البربرية**».

إن معنى هذا أن لغة الكاتوليك، المذهب الرسمي للاستعمار الروماني، وبالتالي لغة القديس أوغستين، كانت اللاتينية؛ وأن لغة المذهب الدوناتي مذهب الشعب بالمغرب العربي، كانت البونيقية. وقد ظهر هذا المذهب المسيحي في المغرب في القرن الرابع الميلادي، على يد الأب دونا الذي

(1) Jean Lassus: l'Antiquité, Revue Africaine, V100, 1956, p87.

(2) E. Renan: Histoire Generale des Langues Semitiques 7ème edition, p199.

(3) Revue Africaine, V94.

كان يسميه الرومان (دوناتوس) الذي توفي سنة 355م. وارتكز هذا المذهب على عنصرين أساسيتن، الأول: اعتماد التوحيد ورفض الثالوث الذي يرى فيه بدعة دخيلة على المسيحية. والعنصر الثاني: اعتماد الدين المسيحي كدين جاء لرفع الظلم عن المظلومين، ولهذا فلابد أن يساعد المغاربة على تحريرهم من الاستعمار الروماني، وهذا هو الذي جعل المؤرخ البريطاني "فريند Frend" يقول: «**كانت الدوناتية مقدمة لإلغاء الإسلام للمسيحية، وللثقافة الرومانية بالمغرب**». والمعروف أن الأب دونا سجنه الرومان بل ومات في سجنهم. دون أن تعتبره الكنيسة ومؤرخوها، في ذلك الوقت، شهيدا للمسيحية، فتضيف لاسمه كلمة القديس. والمعروف أن الأب دونا استشهد في نفس السنة التي ولد فيها القديس أوغستين، الذي كتبت رأيي فيه وهو أنه كان عميلا كبيرا للاستعمار الروماني، سخر المسيحية ضد نضال شعبه البربري من أجل التحرر من الاستعمار، وحرض السلطة الاستعمارية على إلغاء الدوناتية، واضطهاد أتباعها، والإلقاء بأساقفتها في السجون سنة 411م، حيث ماتوا فيها. واستمر أتباع هذا المذهب الشعبي يمارسونه في الخفاء إلى أن جاء الإسلام فوجدوا فيه ضالتهم فاعتنقوه. وسترد في الكتاب تفاصيل أخرى عن هذا المذهب. وقد كانت القبائل البربرية، قبل الإسلام، تمارس طقوس الديانة البونيقية باعتراف الكاتب البربري المشهور "أبوليوس Apule"، الذي كتب باللاتينية، والذي اعترف بأن أباه كان مسيحيا، وأمه وثنية.

ومعنى ذلك أيضا أن البونيقية كانت قبل الفتح الإسلامي، تقوم بنفس الوظيفة التي صارت تقوم بها اللغة العربية، بعد الفتح الإسلامي، وأن دخول العربية جاء ليخلف البونيقية، بأسلوب تطوري طبيعي، من لغة عربية قديمة، إلى لغة عربية حديثة، طورت على يد الإسلام.

ويستمر المؤرخ مارسيه، فيقول: «إن فاليروس Valerus قال: سمعت الفلاحين يثرثرون بلغة أجهلها، ويرددون كلمة (ثالوث Salus)، وعندما سألتهم عن معناها أجابوني: معناها (ثلاثة). والملاحظ أن القديس أوغستين لم يشر أبدا إلى اللغة الليبية (البربرية). وعندما هربت العذراء (ديميترياس) من روما بعد احتلال من طرف الغوت، علق القديس جيروم Saint Jerome (347 - 420م)، على دخولها الرهبنة المسيحية بقوله: من يتبع عرسك غير أصوات مصرصرة باللغة البونيقية، تودعك بفاحشة مقيتة...[1] (ويقصد بكلمة "ستريدور Stridor") اللاتينية الزغرودة البونيقية التي ترافق الزفاف.

وهذا يشير إلى أن الزغرودة المعروفة في الوطن العربي مشرقا ومغربا، هي عادة عربية قديمة كانت مستعملة لدى الساميين (العرب القدامى).

ويروي الكاتب النوميدي البربري المشار إليه قبل قليل، أبوليوس (125 - 180م) في كتابه "دفاع Apologie": «أن ربيبه سيسينيوس كان لا يعرف اليونانية، ويجهل اللاتينية، أو يرفض بعناد استعمالها، وكان لا يتكلم إلا البونيقية». وسيرد في الكتاب رأي المؤرخ المصري رشيد الناضوري، حول علاقة البربر بالفينيقيين ومصر الفرعونية. ولا ينبغي أن يتملكنا العجب من التأثير الفينيقي في المغرب، فقد بدأ يظهر بالغرب المؤرخون الذين يؤكدون الأصل العربي القديم للحضارة اليونانية، مثل بيير روسيه الفرنسي الذي سيرد تحليل لكتابه في هذا الكتاب. وأود أن أشير إلى آخر ما صدر في المكتبة الأوروبية، وهو كتاب: (أثينا السوداء: الجذور الإفريقية الآسيوية للحضارة الكلاسيكية) للكاتب الإنجليزي المولد، الأمريكي الإقامة (مارتن برنال M. Bernal) الذي طبع بلندن سنة 1991، فقد قال: «لابد لنا من أن نعيد التفكير في أسس الحضارة الغربية، وفي التسليم بدور النزعة العرقية الأوروبية في كتابة وفلسفة التاريخ،

(1) William Marçais: Revue Africaine, T94 (1950), p280.

وبأن أوروبا هي العالم، وبأن العقل هو العقل الأوروبي، فقد سادت أروبا موجة عاتية من الإتنية والعنصرية».

ثم يتكلم عن التأثير السامي (العربي القديم) في اليونان، فيقول: «إن الوثائق المسجلة التي وصلت إلينا من منطقة إيجة، هي ألواح مكتوبة بالإغريقية، ويرجع تاريخها إلى القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد، وتشتمل على كلمات مستعارة من السامية، وعلى الكثير من الكلمات المصرية، وثمة أوجه شبه مذهلة بين مضمون هذه الوثائق وبين عديد من المسائل الاقتصادية مثل المكاييل، والموازين، التي كانت سائدة في المشرق وفي بلاد ما بين النهرين... إن المصريين والفينيقيين أقاموا المدن والمستوطنات في اليونان القديمة، وأدخلوا فيها نظام الري. الفينيقيون هم الذين علموا اليونانيين القدماء الأبجدية، بينما علمهم المصريون الدين وأسماء الآلهة وكيف يعبدونها. أي أن الإغريق كانوا يمارسون طقوسا وشعائر مصرية في معابدهم، أو لنقل بعبارة أخرى أن منظورهم إلى العالم لم يكن أروبيا... وتدعم هذه الاكتشافات رواية الإغريق القدماء من أن كيكرويس مؤسس مدينة أثينا قد أتى من مصر، بل اسم أثينا اسم مصري. فقد كان المصريون يسمون بلدهم (أثيناي)، وهو الاسم الديني لبلدة سايس، العاصمة المصرية. وجدير بالذكر أننا نجد تماثيل للإلهة أثينا سوداء، أي مصرية إفريقية. إذن فقد كان لمصر وللساميين الغربيين دور يقيني في تشكيل بلاد الإغريق. فقد استوطن المصريون بلاد الإغريق من موقع السيادة السياسية والثقافية. ويذكر أن أفلاطون يقرر في محاورة طيماوس، أن هناك علاقة نشوئية بين مصر واليونان... **إن اللغة اليونانية هي أساسا لغة هندوأروبية، لكن أكثر من خمسين بالمائة من معجمها كلمات مصرية فينيقية، وبخاصة فيما يتعلق منها بعلم الدلالات (السيمنطيقا) وتطورها، ومفردات الترقية، والعلاقات السياسية، لا الأسرية، والقانون والدين والمجردات فإنها ليست هندوأروبية.**

فهي، أي اللغة اليونانية، بوصفها هذا نتاج لاستعمار مصري فينيقي. لقد تكونت اللغة اليونانية خلال القرنين السابع عشر، والسادس عشر قبل الميلاد، وهي ذات بنية هندوأروبية، ومفردات أصولها مصرية وسامية غربية... قليلة جدا هي أسماء الأماكن والبلدان اليونانية التي يمكن تفسيرها على أساس هندوأروبي. وأن عددا كبيرا جدا من أسماء البلدان والمعالم اليونانية هي من أصل سامي أو مصري. مثل نهر ياردانوس في كل من كريت وبليبونيز، وهو مشتق من ياردا أو (الأردن). واسم (أنيجروس) مصدره جذر سامي: نجر، بمعنى فاض. ونراه كثيرا متضمنا معنى واحة أو نهر وسط الصحراء في كثير من بلدان شرق آسيا، وشمال إفريقيا (نهر النيجر)... ومثل أسماء الجبال والمجردات والجوامد، مثل ذلك الجذر (سام) الذي يتكرر في غالبية الأسماء الإغريقية مثل ساموس وسامكون...إلخ. وهي أسماء مشتقة من الجذر السامي (سام بمعنى مرتفع). أما مدينة اسبرطة اليونانية فقد تمصّر مجتمعها فيما بين 800 و500 قبل الميلاد، واسمها مستمد من موقع جغرافي مصري (سبيت، أو سبرت، بمعنى حي، أو مقاطعة، أو عاصمة). بل إن أسماء الأساطير اليونانية هي أسماء مصرية مثل (أغا ممنون)، وهو مشتق من كلمتين مصريتين أغا بمعنى عظيم، وممنون وهوأمنحوت أو أمنمحعت... ويختم المؤلف كتابه بقوله: إن هذا الكتاب هدفه فتح مجالات بحث جديدة، لذوي الأهليات الأفضل والأكثر تميزا، ثم الحد من غطرسة الثقافة الأوربية[1]

ولنلاحظ أن هذا المؤإخ يدمج بين المصريين والفينقيين في الأصول اليونانية القديمة، وهذا يؤكد أن المصريين ساميون أي عرب قدامى. وأن الحضارة المصرية سامية أي عربية قديمة وهو ما أكده المؤرخ الليبي علي فهمي خشيم[2].

---

(1) Martin Bernal: Black Athena, The Afroasiatic Roots of Classic Civilization, London 1991.

(2) علي فهمي خشيم: آلهة مصر العربية، ج2، ليبيا 1990.

ويعبّر الشيخ البشير الإبراهيمي عن هذا كله بحدسه وإحساسه، لأنه لم يكن مطلعا على هذه الكتابات، منطلقا من ثقافته العربية القديمة الواسعة، ومن اطلاعه، بل وحفظه عن ظهر قلب لمعجم اللغة العربية، فيقول: «**إن عروبة هذا الشمال الإفريقي، جرت في مجاريها طبيعية مناسبة لم يشبها إكراه، وإنما هي الروح عرفت الروح، والفطرة سايرت الفطرة، والعقل أعدى العقل، وكأن هذه الأمم التي تغطي هذه الأرض قبل الاتصال بالعرب، كانت مهيئة للاتصال بالعرب، أو كأن وشائج من القربى، كانت مخبوءة في الزمن فظهرت لوقتها، وكانت نائمة في التاريخ فتنبهت لحينها**»[1].

إذن فإن كل الدلائل تشير إلى أن البربر عرب في أصولهم، وأن اللغة البربرية لهجة من لهجات العربية القديمة (أي لما يسمى خطأ باللغة السامية): كل المتخصصين في الدراسات البربرية أثبتوا أن البربرية واحدة من اللغات السامية (أي العربية القديمة)، فقد تكون مشتقة من اللغة البونيقية، مثلما يرى صراحة المؤرخ الفرنسي للحضارة العربية، "غوستاف لوبون G. Le Bon"[2]. وكل المكتشفات الأثرية المتعلقة بالنقوش والكتابات القديمة، تبين أن البربر أقرب إلى الحميريين. إن هجرات عديدة تمت من الجزيرة العربية إلى شمال إفريقيا. فالهكسوس مثلا شعب هاجر من الجزيرة العربية واستقر في مصر، في الفترة ما بين 1730 و1570 قبل الميلاد. وهي من هذه الهجرات السامية التي سجلها التاريخ. فالمؤرخ التونسي عثمان الكعاك يرى: «**أن البربر قدموا من الجزيرة العربية، في زمن لا يقل عن ثلاثين قرنا ق.م، وأن الفينيقيين اختلطوا بالبربر على طول السواحل الإفريقية المغربية، في القرن الثاني عشر قبل الميلاد، ولما كان البونيقيون عربا من بني كنعان، فقد اختلطوا بالبربر، الذين هم عرب من العاربة القحطانية**».

---

(1) عيون البصائر، الجزء الثاني، ص ص 477 - 478.

(2) غوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، ط2، ص 301.

ويؤكد المؤرخون أن مدينة سوسة بتونس بناها العرب القادمون من جنوب الجزيرة العربية، قبل أربعة آلاف سنة، وأعطوها اسم (حضر موت). ويسجل المستشرق الألماني رولسلر التشابه بين الأكدية والبربرية[1].

بل إن محمد كاتي الذي هو من مدينة (تنبكتو) بمالي، يقول في كتابه (طارق الفتاش)، الذي ترجم إلى الفرنسية في باريس سنة 1913، يقول في صفحته 25: «إن القبائل الساكنة على ضفاف نهر النيجر، حتى المحيط الأطلسي، جاءوا من اليمن». والذي يؤكد ارتباط البربرية بالحميرية، أن وزن (أفعول) الذي تشتهر به البربرية، هو وزن حميري اشتهرت به هذه اللغة. فقد نشر الباحث اليمني القاضي إسماعيل بن علي الأكوع مقالا بمجلة المجتمع العلمي السوري (عدد نيسان - أفريل 1986) تحت عنوان (الأفعول وما جاء على وزنه في اليمن). كما كتب الأستاذ مظهر الإيرياني في مقال حول (نقش جبل أم ليلى) وردت فيه ثلاث صيغ على هذا الوزن، وهي أسماء لفروع لقبيلة خولان باليمن القديم، وسجلت بالخط المسند وهي:

أحنُّوب

أعبُّوس

أحبُّوس[2]

ويلخص الكاتب الفرنسي "فلوريان" التطابق الكامل بين العرب والبربر، فيما يلي: «أصل مشترك، لغة واحدة، عواطف واحدة، كل شيء يساهم في ربطهما ربطا متينا». أما عن تسمية البربر، فالنقوش الأثرية المكتشفة تشير إلى أن كلمة بربر وجدت في اليمن. فجزيرة بربرة جزيرة تابعة لليمن توجد في مضيق اليمن، كما وجد اسم قبيلة البر مكتوبا بالخط الصّفائي. ويقول محمد شفيق، من المغرب الأقصى، وهو متعصب للبربرية: «كتب المؤرخون العرب وجزموا بأن البربر من

(1) O. Rosler: Za, 50 (1952). Orientalia 20 (151).

(2) دورية الإكليل، عدد4، سنة 1989 (عن كتاب عروبة البربر، ص 49).

أصل يماني، من العرب العاربة، وتكمن فكرة التأكيد اليوم على القرابة القديمة المحتملة بين الأمازيغيين واليمانيين، في ثلاث قرائن: **أولا**: أن عددا لابأس به من أسماء الأماكن، على الطريق الذي يمتد بين المغرب الكبير واليمن لها صيغ أمازيغية واضحة. منها في صعيد مصر (أبنو، أسيوط)؛ وإيخيم في جبل حوران في سورية؛ وتيما في شمال السعودية، وتاركما، وأتبار وتيمرايين في السودان، وأكسوم، بأسمرا، وأكولا وأكوؤدات (أكوؤضاد)، في أرتريا، وجزيرة أنتوفاش في اليمن. **ثانيا**: لقد عثرت على عدد من الألفاظ العربية التي قال بشأنها صاحب لسان العرب، أنها حميرية، أو يمانية، وهي ألفاظ لها وجود في الأمازيغية، إما بمدلولها الحميري، أو بمدلول معاكس (الأضداد). **ثالثا**: بين حروف التيفيناغ القديمة، ومنها التوارقية، وبين حروف الحميريين (الأبجدية الحميرية - المسند) شبه ملحوظ»[1].

وتوجد أسماء باليمن متطابقة مع أسماء لقبائل بربرية كالأشلوح: اسم قرية وقبيلة باليمن، والشلوح تجمع كبير للقبائل البربرية بالمغرب الأقصى. والأكنوس، عشيرة من بني مهاجر باليمن، ومكناسة بالمغرب.

ومما يؤكد عروبة البربر، أن المغرب العربي لم يحكم بالخلافتين الأموية والعباسية، فقد انفصل منذ وفاة عمر بين عبد العزيز، وحكم البربر المسلمون أنفسهم بأنفسهم منذ ذلك التاريخ، من خلال أكثر من عشر أسر بربرية حكمت المغرب العربي حتى مجيء الأتراك، ولم يحدث أن قال حاكم واحد من هؤلاء أن المغرب بربري، وأن العربية لغة دخيلة، ولابد من ترسيم البربرية. بل عملوا كلهم على نشر العربية وتطويرها. بينما نجد الأتراك والفرس حكموا من الخلافتين الأموية والعباسية أكثر من خمسة قرون، وبمجرد سقوط الخلافة العباسية، عاد الفرس فرسا بلغتهم، والأتراك أتراكا بلغتهم.

---

(1) محمد شفيق: لمحة عن ثلاثة وثلاثين قرنا من تاريخ الأمازيغيين. (عن كتاب عروبة البربر).

هل بقاء المغرب عربيا حتى الآن صدفة تاريخية؟ لا توجد صدفة في التاريخ. كما بيّنا فإن البربرية لم تكن لغة في تاريخها، وإنما كانت دائما لهجة أو لهجات إلى جانب لغة الحضارة والثقافة في شمال إفريقيا، التي كانت اللغة البونيقية. فالمؤرخ الفرنسي "أندري باسي A. Basset"، ينشر كتابا سنة 1929 تحت عنوان "اللغة البربرية" يقول فيه: «**لم تقدّم البربرية أبدا لغة حضارة، لا في الماضي ولا في الحاضر، كما أنها لم تقدم لغة موحدة موزعة على مجمل البلاد، كما لم يكن لها آداب مكتوبة، أو مدارس تعلم فيها. لقد كانت ولازالت لغة محلية. لقد فتتت البربرية إلى لهجات متعددة، مجزأة حسب كل قرية، لدرجة أنه لا توجد لهجات للبربرية، ولكن يوجد لها واقع لهجوي. بل إن التفاهم بين جماعة بربرية وأخرى قليل أو معدوم**»[1].

كما يقول المؤرخ الفرنسي (غوتييه E.F.Gautier): «ويلاحظ أنه لا يوجد كتاب واحد كتب بالبربرية، كما أنه لا توجد كتابة حقيقية لها، بل لا توجد لغة بربرية منظمة[2].

أما عن الحروف التي تمتاز بها البربرية ولا توجد بالعربية فإن الكثير منها موجودة بالعربية كالزاي المفخمة التي توجد بالكتابة العربية الجنوبية، فحرف X بخط المسند اليمني هو هذه الزاي المفخمة، التي يقول عنها ابن منظور صاحب قاموس لسان العرب: «أنه حرف عربي قديم، حذف من العربية الحديثة»، ولا زالت البربرية تحتفظ به، وهذا يدل على الأصل العربي للبربرية»[3].

كما أن الكاف المعطشة بالبربرية ليست غريبة عن العربية، فاختلاف نطق الكاف ليس غريبا عن العربية التي تعتبر اللغة الوحيدة بالعالم التي ينطق فيها الكاف بعدة مخارج حروف، وفقا للهجات العربية، كالشكشة والشنشنة، وغيرها.

---

(1) A. Basset: La Langue Berbere, Paris 1929.

(2) E.F. Gautier: Consideration sur l'Histoire du Maghreb. Revue Africaine. Vol. 68 (1927).

(3) كتاب عروبة البربر، ص 29.

يقول الأستاذ محمد شفيق: «إن البربرية صورة مثبتة مجمدة من لغة قديمة، تفرعت عنها اللغة العربية في وقت ما، وهذا يدعم وحدة اللغتين القديمة»[1].

وهذه اللغة القديمة التي يشير لها الأستاذ شفيق، ليست سوى اللغة العربية القديمة، التي أطلق عليها خطأ اسم السامية. ولا أعتبر الأستاذ شفيق من غلاة البربرية، ولعل السبب راجع إلى تكوينه بالعربية، بينما نجد غلاة النزعة البربرية بالجزائر متكونين بالفرنسية.

وحدة الأمة من وحدة اللغة:

لا يمكن لبلد أن يستقر أمره إلا إذا كان يتمتع بوحدة لغوية؛ ففرنسا نفسها تكمن قوة تماسك مجتمعها في وحدتها اللغوية، وتعترف بذلك موسوعة (يونيفيرساليس Universalis) الفرنسية فتقول: «إن الوحدة اللغوية لفرنسا مرتبطة بوحدتها السياسية، وبتطور المركزية فيها»[2].

إن الحرب التي تدور في **أفغانستان**، منذ أكثر من ثلاث سنوات، تعود في الأساس إلى تعدد اللغات فيها. فالشعب الأفغاني تمزقه ثماني لغات، هي: (الباشتو، والفارسية التي يتكلمها التاجيك، والأوزبكية، والهزارية، والنورستانية، والبلوشية، والقرغيزية، والتركمانية)[3].

وفي غياب الوحدة اللغوية تنعدم الوحدة الوطنية للشعب الأفغاني، لأن الوحدة الوطنية ترتكز على وجود نسيج اجتماعي منسجم، والخيط الرئيسي الذي يشد هذا النسيج هو اللغة القومية المشتركة. حقا إن الفارسية شبه رسمية بالبلاد، لكن بضيق تعميم التعليم واتساع انتشار الأمية، تبقى فعالية هذه اللغة كلغة مشتركة محدودة.

---

(1) المرجع السابق، ص 30.

(2) Encyclopeadia Universalis, T7, p222.

(3) أبو العينين فهمي: أفغانستان بين الأمس واليوم، القاهرة 1969.

و**الباكستان** تنعدم فيها الوحدة اللغوية، والقلائل التي تهزها مصدرها الرئيس صراع لغوي، فالبنغال انفصل عن الباكستان الأم في السبعينيات، بدافع لغوي أساسا. ولا زال الباكستان تمزقه أربع لغات هي: البنجابية، والباشتو، والبلوشية، والسندية. بالإضافة إلى لغات أخرى صغيرة كالراجبانسية، والماندية، والسانتاليارية. ونتيجة لهذا التعدد اللغوي لازالت لغة المستعمر السابق، اللغة الإنجليزية هي اللغة الرسمية السائدة والمهيمنة على الحياة الباكستانية، واللغة المشتركة بين الباكستانيين، فالباكستاني الباشتو إذا التقى مع مواطنه البلوشي، مثلا، اضطرا لاستعمال الإنجليزية للتفاهم فيما بينهما إذا كانا متعلمين، أما إذا كانا أميين فلا مجال للتفاهم بينهما إلا بواسطة الإشارة. ويشعر الباكستانيون بهذا النقص في بلادهم، فقد حاولوا تفاديه باعتماد اللغة البنجابية، لغة الأغلبية، كلغة قومية ورسمية، لتحل محل اللغة الإنجليزية، وأحيانا اللغة الهجين الأوردو، لتحل محل اللغة الإنجليزية، لكن كانت كل قومية تثور، قائلة، ولماذا لا تكون لغتي هي الرسمية؟ لدرجة أن أحد علماء الباكستان قال لي سنة 1979: «صرنا نرى أن الحل الوحيد الذي يخرجنا من هذا المأزق اللغوي، هو اعتماد اللغة العربية، كلغة رسمية مشتركة، التي ستقبلها سائر القوميات، لأنها لغة القرآن الكريم والإسلام».

أما **الهند** فلازالت تمزق وحدتها أربع عشرة لغة، ونتيجة لذلك فلازالت اللغة الإنجليزية لغة المستعمر السابق للهند، هي اللغة الرسمية والمشتركة بين سائر الهنود، وتفتقد الهند نتيجة لهذا الوضع إلى لغة قومية مشتركة، تلعب دور الخيط الرئيسي الذي يشد الخيوط الأخرى للنسيج الاجتماعي للهند ويساهم في تحقيق الأمة الهندية الواحدة.

أما **أندونيسيا** فقد استطاعت حل المشكلة اللغوية، عندما اجتمع مؤتمر الشعب الأندونيسي، سنة 1939، وقرر اعتماد اللغة البهاسية كلغة قومية

ورسمية للبلاد، مشتركة بين سائر الأندونيسيين، لتحل محل اللغة الهولندية التي سيطرت على البلاد ثلاثة قرون، كما قرر المؤتمر اعتماد الإنجليزية كلغة أجنبية، وإلغاء الهولندية، قطعا لدابر كل الآثار والرواسب التي خلفتها هذه اللغة في الذات الأندونيسية. وهذا ما لم تفعله الجزائر، أي لم يستبدل الفرنسية بالإنجليزية كلغة أجنبية.

وهكذا استطاع توحيد اللغة **بأندونيسيا** أن يوحد بلدا يتكون من ثلاثة آلاف جزيرة، على امتداد خمسة آلاف كيلومتر، وعلى مساحة تتجاوز مليوني كيلومتر مربع، تنتشر بها مائتا لغة، فيخلق من شتاتها تجمعا، ومن تنافرها انسجاما، ومن تجزئتها وحدة. وتسود اللغة الأندونيسية الآن سائر مراحل التعليم، ومختلف تخصصاته. وهذا هو الذي جعل المؤرخ الأمريكي (ديتس سميث Datus Smith) يقول: «إن أقوى العوامل التي ربطت بين الأمة الأندونيسية ثلاثة: اللغة، والدين، وحب الاستقلال»[1].

وكانت **الصين** ممزقة بين عشرات اللغات، وكانت الإنجليزية هي التي تربط بين مثقفيها، إلى أن قرر (ماوتسي تونغ) سنة 1949، اعتماد اللغة الخانية كلغة قومية ورسمية مشتركة بين سائر الصينيين. وصار مليار صيني، منذ ذلك الوقت، يتفاهمون بلغة قومية واحدة. واستطاع ماو بهذا القرار الثوري، أن يوجد الخيط الذي يكوّن النسيج المنسجم للمجتمع الصيني، الذي كان قبله يمزقه انعدام الوحدة القومية بسبب انعدام وجود اللغوية، وتسيطر على مثقفيهم الإنجليزية التي خلقت في نفوسهم عقدة الاستعلاء على بني جلدتهم. وتحقق للأمة الصينية هذا الهدف العظيم بفضل الوحدة اللغوية، وبخاصة بعد تعميم التعليم، والقضاء على الأمية. وتعتبر اللغة الصينية أصعب لغة بالعالم، فعدد

(1) ديتوس سميث: أندونيسيا: شعبها وأرضها (بالإنجليزية)، ترجمة حسن محمود، ص 210، القاهرة - نيويورك 1962.

حروفها أربعون ألفا، ويرفض الصينيون استعمال الحروف اللاتينية. وبفضل المركزية اللغوية القومية، وصلت الصين قمة النمو، تتهافت عليها الاستثمارات العالمية، ويتنبأ لها أن تحتل بعد سنوات المركز الثاني بالعالم، بعد الولايات المتحدة الأمركية، في القوة الاقتصادية، ومن يزور أمريكا الآن، يشاهد الأسواق الأمريكية مغرقة بالبضائع الصينية المنتجة باستثمارات أمريكية. ولا تعرف الصين الحروب اللغوية التي تعرفها جارتها الهند.

أما **الفيتنام** فإن قاعدة عظمة ثورتها اللغة الفييتنامية. يقول نغويين فام هوين وزير التربية الأسبق الفيتنامي: «ينبغي علينا نحن الفييتناميين أن نعتز شامخي الأنوف، لأن اللغة الفييتنامية ساهمت في انتصار الثورة، وفي تحقيق أمجادها، وكبرت معها»[1].

كانت الفرنسية التي سيطرت على الفييتنام طيلة ثمانين سنة، تسيطر على كل شيء في الفييتنام غداة استقلالها، وبجرة قلم ألغى هو شي مينه الفرنسية من الحياة الفييتنامية، وذلك عندما قرر الفتنمة الشاملة في السنة الأولى لاستقلال الفييتنام[2].

إن الولايات المتحدة تتمتع بوحدة قومية بفضل وحدتها اللغوية، إلا أنها الآن مهددة بتيار يدعو إلى تعدد الثقافات. وقد بين الأستاذ إدوار بيهر، في كتابه القيم الذي أصدره سنة 1995 تحت عنوان: (أمريكا التي تخيف)، خطر هذا التيار على وحدة أمريكا، واعتبره القنبلة الموقوتة التي تهدد الأمة الأمريكية بالانفجار، ولخص هذا الخطر في عبارة «فوضى الشخصية المتعددة»[3]، وهذا هو الذي جعل السيد بوب دول، مرشح الحزب الجمهوري الأمريكي، يلقي خطابا في حملته الانتخابية سنة 1996، ينبّه فيه الرأي العام إلى خطورة تعدد اللغات والثقافات، فيقول: «إن أمريكا في حاجة إلى إسمنت اللغة لدعم وحدتها».

---

(1) Le Vietnamien et l'enseignement superieur au Vietnam (Hanoi 1968).

(2) عثمان سعدي: التعريب في الجزائر، الجزائر 1993.

(3) Edward Behir: une Amerique qui fait peur, p314, Paris 1995.

لقد استلمنا نحن الجزائريين الجزائر سنة 1962، من آبائنا وأجدادنا، بلدا موحدا لغويا ودينيا، بناها هؤلاء الأجداد العظام من خلال ثلاثين جيلا، ولم يبرز جزائري واحد طوال الأربعة عشر قرنا الماضية، سواء كان قبايليا، أو شاويا، أو تارقيا، يقول بأن للجزائر لغة أخرى غير العربية. إننا لا ننكر وجود لهجات بالجزائر، عربية، وأمازيغية، لكن اللغة الأم لهذه اللهجات كلها هي العربية: فاللهجات العربية لهجات للعربية الحديثة، واللهجات البربرية الأمازيغية لهجات للعربية القديمة. إن رفع شعار (الأمازيغية لغة وطنية ورسمية) في مستوى واحد مع اللغة العربية، هو تفجير للوحدة الوطنية من خلال تفجير الوحدة اللغوية. ونظرا لعدم وجود لغة أمازيغية مركزية أمّ يتفاهم بها سائر الناطقين بالأمازيغية. فإن كل فئة ستطالب باعتماد لهجتها، وستبلقن عند ذلك الجزائر، ويفتح الباب على مصراعيه للحروب اللغوية، كما هو جار بيوغوسلافيا الآن.

عندما طالب الأكراد العراقيون بحقوقهم، لم يقولوا: «لابد على الطفل البغدادي أو الموصلي، أو البصراوي، أن يتعلم اللغة الكردية». وإنما قالوا: «اسمحوا لنا نحن الأكراد بتعلم لغتنا في المحافظات (الولايات) التي يوجد بها الأكراد، مع التسليم بأن اللغة العربية هي اللغة الرسمية العامة بالعراق، وبأن الكردية لغة محلية جهوية». كما أن البروتون الفرنسيين لم يطلبوا من رئيس الجمهورية الفرنسية بضرورة إصدار مرسوم يعتمد فيه اللغة البروتانية لغة وطنية ورسمية، في مستوى واحد مع الفرنسية، وإنما طالبوا بالسماح للبروتانيين بدراسة لغتهم كلغة محلية جهوية في بروتانيا، مع التسليم برسمية ووطنية الفرنسية على سائر التراب الفرنسي بما فيه بروتانيا.

لكن الذي يطالب به البربريست بالجزائر، أن يتعلم الطفل الوهراني والتلمساني، والجيجلي، والورقلي، العربي، اللغة الأمازيغية التي ليس لها وجود

كلغة مركزية، وهذا ما لا يقبله منطق ولا عقل ولا عدل. من حق الشاوي أن يتعلم الشاوية في مناطق الشاوية؛ كما أن القبايلي من حقه أن يدرس القبايلية؛ كما أن المزابي من حقه أن يدرس المزابية. إلا أن كل ذلك لابد أن يتم وفقا لاستفتاء يجرى بين الشاوية والقبايل والتوارق والشرشاليين، وغيرهم من الفئات البربرية، للتأكد من رغبتهم في دراسة لهجاتهم في مناطقهم، لأن هذه الرغبة مشكوك في وجودها بينهم، لكونهم لا يريدون بديلا لعربيتهم، لغة قرآنهم الكريم.

النزعة البربرية: BERBERISME

النزعة البربرية هي التيار الذي أوجده الفرنسيون بالجزائر من أجل تفكيك الوحدة الوطنية فيها. لقد عمل الفرنسيون قبل استقلال بلدان المغرب العربي، على عزل أقلية الجماعات الناطقة بالبربرية عن غالبية السكان العرب؛ ونشر التعليم الفرنسي والمبشرين بمناطقهم، وبث فيهم فكرة «أنهم هم أصحاب البلاد الأصليون، وأن العرب مستعمرون، وأ اللغة العربية دخيلة، وأنه لابد من التكتل للتخلص من الوجود العربي، وأنهم أي البربر لا علاقة لهم بالعرب ولا بالساميين، وأن أصلهم أروبي، وأن مجيء فرنسا لشمال إفريقيا هو لمساعدتهم على العودة إلى أمهم أوروبا».

ولأجل تطبيق خطتهم هذه، عمد الفرنسيون إلى نشر التعليم في المناطق البربرية، خاصة في منطقة القبائل التي قاومت جيوشهم بشراسة، من 1830 وحتى 1857. «**فإحصائيات 1892 تبيّن أن المدارس الفرنسية المخصصة للجزائريين، انتشرت بالمناطق الناطقة بالبربرية، بنسبة خمسين في المائة من كل انتشارها بسائر القطر الجزائري، وأن نسبة 34 في المائة منه تركزت في ولايتي تيزي وزو وبجاية**»[1]. علما بأن عدد ولايات الجزائر 48 ولاية، وأن ونسبة البربر لسائر السكان عشرون بالمائة، وفقا لإحصائية الإدارة الاستعمارية.

(1) Fanny Colonia: les Instituteurs Algériens, (1883 - 1893), OPU Alger 1975, p 46 et 107.

أما الإرساليات التبشيرية المسيحية الفرنسية فقد لعبت دورا كبيرا في التبشير للاستعمار الفرنسي، وسخّرت المسيحية لخدمته كما فعلت الكاتوليكية في العهد الروماني. فالكابتن لوغلاي، المشرف على التعليم بالجزائر يخطب في المعلمين الفرنسيين في بلاد القبايل، فيقول لهم: «**علموا كل شيء للبربر ما عدا العربية والإسلام**»[1].

ويقول أحد المبشرين: «**إن السماح للمسيحية بأن تؤثر على الروح البربرية يعني ولاشك تفتيت الكتلة العربية، والقضاء عليها بقوة، ويعني تبعا لذلك القضاء على الإسلام في أرضنا بشمال إفريقيا، لفائدة حضارتنا. ولا يجوز أبدا السماح بتعريب البربر**». ويقول (الكاردينال لافيجري Ch. M. Lavigerie) في مؤتمر التبشير المسيحي في بلاد القبائل، سنة 1867: «**إن رسالتنا تتمثل في أن ندمج البربر في حضارتنا التي كانت هي حضارة آبائهم، ينبغي وضع حد لإقامة هؤلاء البربر في قرآنهم، لابد أن تعطيهم فرنسا الإنجيل، أو ترسلهم إلى الصحراء القاحلة بعيدا عن العالم المتمدن**».

أجبر الفرنسيون سنة 1930 ملك المغرب على إصدار **الظهير البربري**، وهو مرسوم ملكي يعترف فيه للبربر بأن لا تطبق عليهم الشريعة الإسلامية في الأحوال الشخصية، وإنما يطبق عليهم العرف البربري. فتصدى له زعماء البربر أنفسهم، عندما توجه شيوخ قبائل آيت موسى وزمور إلى فاس، وأعلنوا أمام علماء جامع القرويين رفضهم للظهير البربري، وفشلت خطة فرنسا هذه. وفي نفس السياق عاملت الإدارة الفرنسية بالجزائر البربر معاملة تفضيلية في (القضاء) ببلاد القبائل سنة 1841 - 1854. كما قام المقيم الفرنسي العام بالمغرب لوسيان بتأسيس (الأكاديمية البربرية) لإحياء اللغة البربرية، وكتابتها بحروف لاتينية. ووضع المستشرق الفرنسي (جود فري دي مونبيه) مستشار التعليم بالمغرب، مشروعا مفصلا لهذا الغرض، سنة 1914. وفي سنة 1929

---

(1) C.R. Ageron: Politique Coloniale au Maghreb, p. 109 - 148, Paris 1972.

أقامت الإدارة الفرنسية بالمغرب كلية بربرية في (أزرو)، لإعداد حكام لتولّي الإدارة بالمناطق البربرية، على أساس التنكر للعروبة، وفشلت هذه الكلية لأن معظم خرّيجيها صاروا من المناضلين الأشدّاء ضد الاستعمار الفرنسي.

مؤامرة النزعة البربرية في الأربعينيات:

إن أخطر مؤامرة حيكت على الشعب الجزائري، ما عُرف بالنزعة البربرية (Berberisme) التي كان مهندسها الحاكم الفرنسي العام شاتينيون، الذي أدرك أن سر قوة الحركة الوطنية في وحدتها، وأوعز إلى عملاء المخابرات الفرنسية أن يحرّكوا هذه النزعة داخل حزب الشعب الجزائري، العمود الفقري للحركة الوطنية. وقد خصص الأستاذ بن يوسف بن خدة أحد زعماء هذا الحزب، والرئيس الثاني للحكومة المؤقتة، في كتابه (مصادر أول نوفمبر 1954) فصلا كاملا لهذه الأزمة، تحت عنوان (أزمة النزعة البربرية)، في ثماني عشرة صفحة، أقدم خلاصة لها فيما يلي:

- في سنة 1949 تعرّض حزب الشعب الجزائري - حركة انتصار الحريات الديمقراطية، لمؤامرة داخلية هددت وحدة الحزب والأمة الجزائرية، وعرفت هذه المؤامرة بالنزعة البربرية، وقد دعم هذه المؤامرة الحزب الشيوعي الجزائري. وكان المؤسسون للتيار البربري داخل حزب الشعب: علي لعمش، وحسين آيت أحمد الطالب بالثانوية؛ عمار ولد حمودة، وعمر أوصديق، الطالبان بمعهد المعلمين بحي بوزريعة بالعاصمة، وعلي بناي.
- في سنة 1946 أسّس حسين آيت أحمد، وولد حمودة، وعمر أوصديق، وبناي، نواة للمجموعة البربرية، وكانوا كلهم أعضاء في اللجنة المركزية، لحزب الشعب الجزائري - حركة انتصار الحريات الديمقراطية. وكان هؤلاء متأثرين بالماركسية، ويرفضون العروبة والإسلام، اللذين يعتبرهما حزب الشعب ثابتين من الثوابت الوطنية.

• ركّز الاستعمار الفرنسي على بلاد القبائل، فوجه إليها إرساليات تبشيرية وعمل على نشر التعليم بها أكثر من أية منطقة أخرى، وتأسيس نخبة مفرنسة تؤمن بالزعم بالأصول الرومانية والآرية للقبائل، وتعتبرهم أقرب إلى الفرنسيين، وأكثر استعدادا للاندماج بالأمة الفرنسية.

• كان المناضلون، في غالبيتهم العظمى، يرفضون أفكار هؤلاء التي يعتبرونها من تأسيس الاستعمار الفرنسي. وكان أول من نبّه إلى هذا الخطر، الأستاذ أحمد بودة، الذي أثار المسألة في اجتماع للجنة المركزية في ديسمبر 1948، وهاجم البربريست، فناقشه حسين آيت أحمد، وبناي، وولد حمودة.

• وجد دعاة هذه النزعة ميدانا خصبا بفرنسا في أوساط المغتربين، فقد استطاع الطالب محند علي يحيى المعروف برشيد، أن يحصل على بعثة من الحزب إلى فرنسا في ربيع 1948 وراح يعمل لكسب المناضلين بالحزب لهذا التيار.

وعند انفجار الأزمة البربرية في ربيع 1949، تمكن من أن يجعل اللجنة المديرة لنشاط الحزب بفرنسا تصدر قرار (باستنكار خرافة الجزائر العربية المسلمة)، وثارت قاعدة المناضلين بفرنسا على القرار، وأرسلت برسائل إلى قيادة الحزب بالجزائر تحتج فيها على أعمال هذه العناصر الملحدة التي تحارب الإسلام والعروبة.

• قامت قيادة الحزب بإرسال وفد إلى باريس، يتكون من شوقي مصطفاي، عضو المكتب السياسي، والصادق سعيدي الشخصية المعروفة ببلاد القبائل. وانضم إليهما في باريس محمد خيضر، وبلقاسم راجف. ومنع الأربعة من دخول قاعدة الحزب من طرف البربريست الذين صاروا يسيطرون على مركز قوة، معتمدين على المغتربين من القبائل الصغرى في الدائرة التاسعة عشرة، والدائرة العشرين لمدينة باريس، وفي بروفانس، ناحية الجنوب الشرقي. وبفضل البشير بومعزة قاومت القاعدة هذه العناصر. وحدث الاشتباك العنيف،

وبعد معركة عنيفة، تمكن مندوبو القيادة من السيطرة على الوضع، واسترداد مكاتب الحزب من البربريست بواسطة مجموعة من الفدائيين الحزبيين بقيادة بلقاسم راجف. وقام المناضلون بتطهير مقرات الحزب في سائر نواحي باريس وفرنسا من هذه العناصر البربريست، واستغرق هذا التطهير ثمانية عشر شهرا من العمل الدؤوب. وقرر الحزب طرد محند علي يحيى، وكل الذين عملوا معه، أو أيدوه. كما تقرر غلق صحيفة نجم شمال إفريقيا التي كانت تصدر بفرنسا. وخلاصة ما توصل إليه الحزب من هذه المحنة، أن هذه النزعة البربرية (البربريزم) تعتبر عملا تدميريا للحركة الوطنية تعمل لصالح الاستعمار. وانضم معظم هؤلاء المطرودين إلى الحزب الشيوعي، ومنهم الصادق هجريس الذي صار زعيم هذا الحزب فيما بعد.

- أما بلاد القبائل فقد قاومت هذا التيار وطهّرت منه إحدى عشرة قسمة للحزب، ولم تشذ سوى قسمة واحدة وهي عين الحمام، وبلغت مقاومة التيار البربريست حدا تبودل فيه الرصاص، حيث جرح أحد دعاته بتيزي وزو وهو علي فرحات.
- كان يطبع هؤلاء حقدهم على كل ما هو عربي، وعلى الإسلام، وعلى اللغة العربية[1].

والذي يؤكد ما قاله الأستاذ بن يوسف بن خدّة، من تركيز الفرنسيين على منطقة القبائل في خلق (النزعة البربرية)، الكتاب الفرنسي الذي صدر بالجزائر في النصف الأول من سنة 1956، تحت عنوان (مساهمة في دراسة الزوايا الطرقية)، بقلم الجنرال ب. ج أندريه (P.J. Andre) عضو أكاديمية العلوم الاستعمارية، والذي كتب مقدمته جاك سوستل (J. Soustelle) الوالي العام الفرنسي بالجزائر.

إن سياسة الفرنسيين واضحة، فقد أوجدوا من العدم النزعة البربرية واستعملوا ورقتها لضرب حزب الشعب الجزائري، أمل الثورة المسلحة،

(1) Ben Youcef Ben Khedda: Les Origines du 1er Nouvembre 1954, Alger 1989, p 169 - 186.

بالأربعينيات، لكنهم بدأوا يطورون استعمالهم لورقة النزعة البربرية، منذ منتصف الخمسينيات. فالجنرال أندريه يقول عن المغرب الأقصى الذي أعلن استقلاله: «**من المحتمل أن يأتي يوم تهب فيه الأمة المغربية البربرية لإحياء وعيها القديم بذاتها، وترفع فكرة الجمهورية البربرية، إذا سادت فكرة الجمهورية (التيوقراطية) العربية بالمغرب الأقصى**»[1].

أما الجزائر فقد كانت سنة 1956 جزءًا من فرنسا، واللغة الفرنسية هي اللغة الرسمية لها، والفرنسيون لازالوا لم يثيروا بعمق النزعة البربرية، لكن وبالرغم من ذلك فإننا نرى الجنرال يطلق تلميحات تشير إلى بدء الفرنسيين في التفكير لإعداد خطة لمستقبل الجزائر تتمثل في استعمال ورقة النزعة البربرية، انطلاقا من القبائل بأسلوب يتناسب مع احتمال انفصال الجزائر عن فرنسا واستقلالها، فيقول: «**إن المسألة البربرية بالجزائر هي في الحقيقة مسألة قبائلية(...)، فمنطقة القبائل هي أكثر انفتاحا على الحركات الخارجية من منطقة الأوراس(...) هل من الضروري أن يكون هناك عمل أجنبي خارجي لدفع البربريزم؟(...) في نهاية 1955 تبين أن الحركة البربرية - القبائلية صارت تمردا مدعوما من القومية العربية المصرية، بهدف خلق وطنية جزائرية تؤدي إلى تأسيس دولة عربية بالجزائر(...) لابد من أن يرافق التهدئة العسكرية عمل نفساني (سايكولوجي)، فالحكومة الفرنسية اتخذت موقفا صارما مناهضا لتأسيس دولة عربية بالجزائر(...) لابد من التفكير في حلول للمشكل الجزائري على أساس اتفاق مع الجماعات الجزائرية، وبخاصة مع البربر - القبائل: العنصر الأصيل والصلب والمتفهم لنا، لأن القبائل ورغم إسلامهم العميق فهم أقرب نفسانيا إلى الشعب الفرنسي الميتروبوليتان(...) وفي النهاية ينبغي علينا أن نفهم عقلية البربر - القبائل التي ستتيح تاريخيا وعقلانيا التوصل إلى**

---

(1) General P. J. Andre (C. R) de l'Academie des Sciences Coloniales: Contribution a l'étude des Confreries Religieuses Musulmanes. p 351 (Alger 1956)

شراكة فرنسية - قبائلية(...). إن القبائل محتاجون لفرنسا(...) إننا نتمنى أن تصير الشراكة الفرنسية - القبائلية حقيقة وبسرعة». ويختم الجنرال أندريه كتابه فيشير إلى ضرورة الإعداد للمستقبل «لأن المسألة البربرية تطرح الآن (1956) بالجزائر وبالمغرب الأقصى»[1].

تأسيس الأكاديمية البربرية في باريس:

أسس الفرنسيون الأكاديمية البربرية سنة 1967 في جامعة باريس 8 فانسين[2] وذلك من أجل تعميق خطتهم في الإبقاء على الجزائر المستقلة، في فلك التأثير الفرنسي[3]. فقد بدأت هذه الخطة تنفذ منذ مجيء الجنرال ديغول للحكم سنة 1958، الذي كان مقتنعا أن الجزائر مستقلة لا محالة، وأن الذي يبقيها مرتبطة بفرنسا هو الإبقاء على وضع اللغة الفرنسية المهيمن على الحياة الجزائرية. وأعطى تعليمات بتوسيع ما يسمى (بروموسيون لاكوست)، والتي تتمثل في إعداد مئات من الإداريين الجزائريين الشبان في المراكز الإدارية الفرنسية، لكي يخلفوا الفرنسيين الذين كانوا يسيطرون على الإدارة بالجزائر. وكان ديغول مقتنعا أن هؤلاء سيغادرون الجزائر بعد الاستقلال.

وتأسست الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية بالقاهرة في نفس السنة لمجيء ديغول للحكم، وبدل أن تعد خطة مضادة لخطة ديغول، وذلك بأن تؤسس نواة لإدارة الدولة الجزائرية باللغة العربية، (كما فعل هو شي مينه ورفاقه في تاريخ الثورة الفيتنامية)، معتمدة على مئات الطلبة الجزائريين الذين كانوا يدرسون في جامعات ومعاهد المشرق العربي، وفي الزيتونة والقرويين بالمغرب العربي. بدل أن تفعل ذلك أحضرت طلاب الجامعات الفرنسية إلى

---

(1) المصدر السابق صفحات: 352 - 353 - 354 - 355 - 356.

(2) Benjamin Stora: Ils venaient d'Algérie, Paris 1991. p 426.

(3) أورد الدكتور أحمد بن نعمان معلومات قيمة حولها في كتابه: (فرنسا والأطروحة البربرية في الجزائر)، ص162.

القاهرة، وكونت منهم نواة إدارة الدولة الجزائرية باللغة الفرنسية، ومعنى هذا أنها نفذت خطة مكملة لخطة ديغول.

وجاء هذا الانحراف مجسما في توقيع اتفاقيات إيفيان في مارس 1962 بنص واحد وهو النص الفرنسي، الذي مثل الوفدين الجزائري والفرنسي، بينما نجد الفييتناميين سبقونا بسبع سنوات، فأبرموا مع الفرنسيين اتفاقية جنيف سنة 1954 التي وضعت نهاية للاستعمار الفرنسي ببلادهم بنصين: النص الفرنسي ومثل الوفد الفرنسي، والنص الفييتنامي ومثل الوفد الفييتنامي برئاسة فام فان دونغ.

واستقلت الجزائر، وعاد إداريو وساسة الحكومة المؤقتة من تونس والمغرب والقاهرة وطرابلس، والعواصم الغربية بقيادة إنتليجينسيا (الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين "UGEMA". ليجدوا أنفسهم يعزفون مع عناصر بروموسيون لاكوست على نغم واحد وهو نغم الفرنسة. وجسد هذا الانحراف في عهد الاستقلال عبد الرحمن كيوان أحد أقطاب حزب الشعب الجزائري، الذي عين مباشرة بعد الاستقلال مديرا عاما للوظيف العمومي؛ وميسوم الصبيح قطب من أقطاب بروموسيون لاكوست، الذي عين على رأس مدرسة الإدارة التي أسسها. ووضع كل من هذين الرجلين اليد في اليد مدة أربع عشرة سنة، شنا خلالها حربا على اللغة العربية. وأنا أكن احتراما كبيرا للأستاذ عبد الرحمن كيوان، فقد كنت أعتبره أحد فرسان حزب الشعب الذي ناضلت في صفوفه. ولازلت أذكر ذلك اليوم الذي حضر فيه إلى مدينة قسنطينة، حيث كنت هناك طالبا، وألقى خطابا دام ساعات في ساحة (لابريش) نهاية الأربعينيات، هزني بعنف. وليس عبد الرحمن كيوان وحده الذي وقف موقفا لا وطنيا من العربية بعد الاستقلال، وإنما فعل ذلك جيل كامل لا تنكر وطنيته، وقع تحت تأثير الثقافة الفرنسية التي لعبت دور المخدر لوطنية هذا الجيل، وبخاصة في عهد الاستقلال؛ فساهم من حيث لا يشعر في تحقيق (الجزائر الفرنسية) في عقود الاستقلال الأربعة.

وهكذا فتح الباب على مصراعيه منذ 1962 لتحقيق ما عجزت فرنسا عن تحقيقه في قرن وثلث قرن من الاستعمار المباشر، ألا وهو (الجزائر الفرنسية). وتحققت بذلك نبوءة ديغول التي أطلقها سنة 1962، عندما علق على استقلال الجزائر فقال: «الجزائر حرة لكنها جزائر - فرنسية». وقد ذكّرت جريدة لوموند الفرنسية بنبوءة ديغول هذه في عددها الصادر يوم 20 أغسطس 1994، للتأكيد على بقاء الجزائر فرنسية.

واستمرت الأكاديمية البربرية في باريس تعمل، تحت رعاية الأجهزة الفرنسية الخاصة، وسخرت لها أموالا ضخمة، وهدفها البعيد ليس خدمة البربرية ولا البربر، وإنما خدمة بقاء عيمنة اللغة الفرنسية بالجزائر وبالمغرب العربي. ويرى استراتيجيو الاستعمار الفرنسي الجديد أن الشعب الجزائري لابد وأن يقسّم إلى شعبين: شعب يتكلم البربرية وشعب يتكلم العربية، حتى يضمن أن تبقى وإلى الأبد، اللغة الفرنسية لغة مشتركة بين الشعبين. ومادام المغرب الذي توجد فيه أكبر نسبة من الناطقين بالبربرية: 60 بالمائة من السكان. (النسبة بالجزائر 20 بالمائة)؛ منضبطا داخل النادي الفرانكفوني، ملتزما بإبقاء الفرنسية في ميدان تدريس العلوم بالتعليم العام والجامعة، مسيطرة على الكليات العلمية بالجامعة وعلى الميدان الاقتصادي، فينبغي ألا تثار المسألة البربرية فيه.

أما الجزائر التي تملك خلفية ثورة أول نوفمبر، فيبقى فيها خطر التعريب قائما على استمرار هيمنة اللغة الفرنسية. ولهذا فقد كونت الأكاديمية البربرية في باريز، منذ تأسيسها سنة 1967، مجموعة من الجزائريين وأعطتهم الجنسية الفرنسية، وعلى رأسهم سالم شاكر، وتاسعديت ياسين، ومنحتهم شهادات الدكتوراه في الدراسات البربرية، ووجهتهم لإدارة عملائها بالجزائر. ويقوم شاكر بجولات بالعالم على نفقة الأجهزة الفرنسية الخاصة، يحاضر فيها الجزائريين المقيمين بالمدن الأروبية والأمريكية حول المسألة البربرية، من وجهة نظر فرنسا.

وانعقد المؤتمر الرابع لحزب جبهة التحرير الوطني بالجزائر، واتخذ لأول مرة قرارات ثورية بتعريب البلاد. وبدأت قراراته تطبق مع بداية الثمانينيات، فصدر قرار اللجنة المركزية المشهور في ديسمبر 1979، الذي عرب بموجبه تعريبا شاملا التعليم العام من أساسي وثانوي، كما عربت كليات العلوم الإنسانية بالجامعات؛ وبدئ في تعريب الكليات العلمية والتقنوية. كما كونت اللجنة المركزية للحزب لجنة عليا لإعداد مشروع قرار خاص بتعريب الإدارة. وثارت الحكومة الفرنسية التي تعتبر الجزائر أكبر آخر معقل للفرنسية بإفريقيا وبالعالم، إن سقط انهار مركزها العالمي. إن فرنسا لا تمانع في أن تعلم العربية بالجزائر لتنسى، لكنها تعارض وبعنف، أن يعرب الميدان العلمي والتكنولوجي، وميدان التسيير الإداري.

وحركت فرنسا عملاءها بالجزائر، فأوعزت إلى الكاتب مولود معمري (الجهوي) بالتحرك، فقام سنة 1980 بمحاولة إلقاء محاضرة بالمركز الجامعي لتيزي وزو، لم يكن الهدف منها خدمة الثقافة بقدر ما كان إحداث قلاقل ببلاد القبائل، وأحس والي تيزي وزو في ذلك الوقت الأستاذ محمد الشريف خروبي بخطر الموقف، فاتخذ قرارا بمنع المحاضر من إلقاء محاضرته. ومولود معمري مشهور بعمالته للاستعمار الفرنسي من عشرات السنين، وها هو المؤرخ الجزائري مسعود مداد الذي يكتب بالفرنسية، يقول عنه في كتابه الذي أصدره بالجزائر سنة 1992: «**كان مولود معمري من أعمدة الاستعمار الفرنسي، كان عضوا في هيئة تحرير مجلة (أمل الجزائر Espoir - Algérie) مع بوله غرينجو، وموريس بوران، ومحفوظ قداش، وهنري ديشندال. وكانت هذه المجلة منبرا للاندماجيين، الداعين للذوبان في الثقافة الفرنسية والشخصية الفرنسية**»(1).

ومن الغريب أن مولود معمري لم يثر النزعة البربرية في أثناء الاستعمار المباشر، واستمر منذ الأربعينيات وهو يكتب باللغة الفرنسية، دون إثارة مسألة اللغة البربرية، لأن اللغة الفرنسية كانت في ذلك الوقت هي السيدة بلا منازع،

---

(1) Messaoud Meddad: Guerre d'Algérie, Alger 1992.

حيث كانت الجزائر جزء من فرنسا. لكن ما أن استقلت الجزائر حتى تحول إلى المحرك الرئيسي للنزعة البربرية، يعمل ضمن حركة انفصالية تدار من فرنسا، وأنا أتكلم في هذه المسألة بلا عقدة لأنني من الذين يقال عنهم بربر.

وما أن منع معمري من إلقاء محاضرته حتى تحرّكت آلة الاستعمار الفرنسي الحديث بالجزائر، التي راحت تشن -بواسطة عملائها- حملة، فتحركت المظاهرات بولاية تيزي وزو التي قامت بإشعال الحرائق، وتدنيس أضرحة الشهداء، وتمزيق العلم. وانطلقت الصحف الفرنسية بفرنسا تدافع عن حقوق البربر، وتهاجم الاضطهاد المزعوم للقبائل. ومن الغريب أن يزور رئيس الحكومة مدينة تيزي وزو - أياما قبل انتخابات 16 نوفمبر 1995 الرئاسية- ليعطي اسم مولود معمري لجامعة تيزي وزو. بدل أن يعطيها اسم العقيد عميروش (القبائلي) بطل ثورة أول نوفمبر، الذي كان يمنع جنوده في الولاية الثالثة من التحدث بالفرنسية. أواسم الشيخ الفضيل الورتلاني (القبائلي)، رجل الإصلاح الكبير، أواسم المرحوم مولود قاسم نايت بلقاسم (القبائلي)، الوزير، رئيس المجلس الأعلى للغة العربية.

وتأسست في هذا الجو (**حركة الثقافة البربرية M.C.B**) التي بنت تأسيسها على الحقد على الإسلام وعلى كل ما هو عربي. تأسست على محاربة انتماء الجزائر العربي الإسلامي والعمل من أجل بربرة الجزائر وربطها بفرنسا، وقطع كل علاقة لها بالوطن العربي، وبالعالم الإسلامي. وزعماء الحركة البربرية لا ينكرون أن الذي خلق التيار البربري هم المبشرون المسيحيون الفرنسيون، الذين تجاوز نشاطهم خدمة الدين المسيحي إلى خدمة أهداف الاستعمار الفرنسي الجديد. فقد صرح معطوب الوناس، وهو من أقطاب حركة الثقافة البربرية، إلى القناة التلفزيونية الفرنسية الأولى (TF1) في برنامجها (سبعة على سبعة) الذي أذيع يوم 8 يناير 1995، والذي قال فيه: «إن الذي علمني

هويتي البربرية هو الأب شارل ديكيرس (Ch. Deckers) الذي اغتيل من طرف الإسلاميين، مع رفاقه الثلاثة في تيزي وزو قبل أسبوع 31/ 12/ 1994». مع العلم أن الراهب المذكور بلجيكي الجنسية، متمرس في العمل ببلاد القبائل، فهو يحسن التحدث بالقبائلية، وسبق أن ضبطه مفتش شرطة قبائلي بمدينة تيزي وزو في 1976، وهو يجمع في بيته مراهقين ومراهقات ويمرنهم على ممارسة الجنس تحت عنوان التربية الجنسية. وقامت السلطات بطرده مع عدد من رفاقه، وذلك في عهد الهواري بومدين. من الغريب أنه كان مستشارا في التكوين المهني بوزارة العمل الجزائرية التي كان يسيطر عليها الشيوعيون. وكان مزدوج الجنسية، يتمتع بالجنسيتين: الجزائرية، والبلجيكية. ثم جاء الشاذلي بن جديد، وفي إحدى زياراته إلى بلجيكا توسط ملكها لديه للراهب المذكور، فسمح له بالعودة إلى الجزائر، حيث بقي فيها إلى اغتيل. وأنا ضد الاغتيالات مهما كانت أسبابها ودوافعها. فالأجانب ضيوف، يطلب منهم بأن يغادروا البلاد إذا أخطأوا، مثلما فعل الرئيس بومدين، أما أن يغتالوا فلا.

وفي 20 أفريل 1995 وقف معطوب الوناس خطيبا أمام الجماهير في مسيرة نظمت بمناسبة ذكرى ما يسمى (بالربيع البربري) وإلى جانبه زوجة السيد سعيد سعدي رئيس حزب (RCD)، حيث قال بالحرف الواحد: «لو بقيت اللغة الفرنسية رسمية بالجزائر بعد الاستقلال مثلما كانت قبله، لما وصلنا إلى ما وصلنا إليه». أي لما أثيرت قضية اللغة البربرية أو الهوية البربرية. ومعنى هذا الكلام: أن قضية اللغة البربرية تثار من أجل هدف واحد وهو خدمة اللغة الفرنسية حتى تبقى هذه اللغة هي المشتركة بين العرب والبربر، كما بيّنّا.

أقامت حركة الثقافة البربرية مهرجانا يوم 27 أكتوبر 1994 بقاعدة حرشة بالعاصمة، وتداول خطباء البربريزم على المنصة ملقين خطبهم بالفرنسية مع ترديد جمل بالقبايلية، ووقف نائب رئيس جامعة بجاية العضو بالحركة يلقي

خطابه بالعربية، فتصدى له زملاؤه بالمنصة والحاضرون ومنعوه من التحدث بالعربية، فأجابهم قائلا: «دعوني أتحدث بالعربية، لأرد على التهمة التي تقول بأننا نحن ضد العربية». فردوا عليه قائلين: إنها ليست تهمة، تكلم بالفرنسية أو بالقبايلية أو أنزل من المنصة». ونزل الخطيب من المنصة دون أن يلقي خطبته[1]. وهذا يؤكّد عداء حركة الثقافة البربرية للغة العربية؛ وترأس المهرجان فرحات مهني..

وفي بداية السنة الدراسية (1994 - 1995) استغل زعماء الحركة البربرية الوضع المتدهور بالبلاد، الناتج عن إلغاء الانتخابات التشريعية في ديسمبر 1991، وشنوا إضرابا مفتوحا في مدارس وجامعتي تيزي وزو، وبجاية. من أجل اعتراف الدولة بتدريس البربرية، والاعتراف بها كلغة وطنية ورسمية. وكان مخطط الحركة أن يعم الإضراب سائر الولايات التي يتواجد فيها الناطقون بالبربرية، لكن الفئات التسع البربرية الأخرى لم تستجب للإضراب الذي جاء محجَّما من بدايته، كشف أن التيار البربري مقصور على فئة واحدة وهي فئة القبائل. بل إن الكثير من القبائل لا يوافقون على أهداف الحركة ومطالبها الانفصالية، وإنما اكتفوا بالصمت نظرا لجو الإرهاب الذي تفرضه الحركة على بلاد القبائل. فعبد السلام بلعيد، مثلا، القبائلي، عندما كان رئيس حكومة، أجرت معه صحيفة الحركة البربرية حديثا، طلبت منه أن يصدر قرارا يعتمد فيه البربرية لغة وطنية ورسمية، فأجاب قائلا: أرفض أن يكون للجزائر لغتان وطنيتان رسميتان، لأن ذلك معناه أن أمتين اثنتين تعيشان على أرض الجزائر، وأنا لا أؤمن إلا بأمة واحدة؛ ثم إنه لا توجد لغة بربرية مركزية، بل لا توجد قبائلية مركزية، بل توجد عدة لهجات قبائلية، ولهجات بربرية». وعندما قيل له: «لكن أنت لست عربيا، إنك قبائلي». أجابهم بقوله: «أنا عربي لأنني قبائلي».

(1) جريدة المساء، عدد 30/ 10/ 1994.

وانتهى الإضراب بإصدار الدولة لقرار بتأسيس (المحافظة السامية للغة الأمازيغية) تختار الحركة أعضاءها، وتقوم بإعداد اللغة التي ستدرس، وبأن تدرس الأمازيغية في المدارس لسائر الجزائريين كلغة كل الجزائريين. ولم توافق الدولة على مطلبين للحركة وهما: اعتبار الأمازيغية لغة الجزائر، واعتمادها لغة رسمية تكون لغة التعليم والإدارة، واعتبرت السنة الدراسية سنة بيضاء، خسر فيها التلاميذ والطلبة سنة من أعمارهم في الولايتين المذكورتين.

ويعتبر البربريست أن اللغة الأمازيغية هي القبايلية التي تحضّرها أكاديمية باريز البربرية، منذ 1967، وهي لغة جديدة لا علاقة لها بأية لهجة بربرية، قام فيها الآباء البيض وتلاميذهم من أمثال سالم شاكر بحملة تطهير واسعة من الكلمات، التي تشم فيها رائحة الإسلام. فاستبدلوا تحية الإسلام التي ترددها سائر اللهجات بما فيها القبائلية وهي (السلام فلّاون). وفلاون كلمة مدموج فيها حرفا الجر (في وعلى)، أي أن التحية معناها (السلام فيكم وعليكم). فاستبدلوها بتحية جديدة وهي (آزّول فلّاون)، وكلمة آزُّول ليس لها وجود في اللهجات البربرية، والأقرب إليها هي كلمة آزُّو ومعناها الشوك. والناس العاديون حتى في بلاد القبائل لا يفهمون التحية الجديدة ولا زالوا يرددون تحية الإسلام. كما استبدلوا اسم الله بكلمة (يلُّو). والبربر بسائر لهجاتهم يتداولون كلمتي (الله، وربي).

ويستعمل البربريست من قنوات الإذاعة والتلفزة لنشر الكلمات الجديدة، ويعتبر الشريف معمري مذيع الموجز بالقبائلية متخصصا في هذا؛ ويبدو أنه يتلقى يوميا بالفاكس من باريز كلمات، ويقوم بتسريبها بالنشرة، فيقدم الكلمة الجديدة ويقوم بشرحها بالفرنسية. ومن يقارن بينه وبين سليمان خاطر مقدم الموجز بالشاوية، يتأكد مما أقول، فهذا الأخير يقدم لهجة الشاوية صافية كما يتحدثها الشاوية، دون حذف الكلمات العربية المسلمة منها. وقد أشار مقدمو

(قاموس اللغة القبائلية) للأب داليه (J.M.Dallet) تلاميذه الأساتذة الثلاثة: مادلين آلان (M.Allain) وجاك لانفري (J. Lanfry) وبييتر ريسينك (P. Reesink) الذي نشر سنة 1982، إلى هذا العمل لتغيير القبائلية، واعتبروه مناقضا للأسس العلمية للّغات[1].

وها هو المستشرق الفرنسي (جاك بيرك Jacques Berque) يقول: «من الخطأ الكبير الاعتراف باللغة البربرية كلغة رسمية ثانية إلى جانب العربية من طرف بلدان المغرب العربي. ولا أعتقد أن مطلب اللغة مشروع، لأنه سيؤدي في النهاية إلى انقسام الولاء. وكنت قد وجهت اللوم إلى صديقي عبد الكريم غلاب، صاحب جريدة "العلم" بالمغرب، الذي كان قد تقدّم بمشروع يقضي بتدريس اللغة البربرية في المدارس المغربية، بطريقة إلزامية، وقلت له: «لست على حق في ذلك، إذ كيف تجبر أطفال مدينة فاس العربية على تعلم اللغة الأمازيغية. إن هذه النعرة الذاتية والجهوية التي ترتفع في أوساط البربر وعلى الخصوص في بلاد القبائل هي إحدى النتائج الملموسة لنجاح المخطط الاستعماري، ولحالة التأزم الصعبة التي تعيشها الجزائر وعلى رأسها حالة التردّي الحضاري والثقافي التي تعاني منه البلاد. فالدوائر الاستعمارية كانت تبذل جهودا مضنية لفرض الفتنة بين العرب والبربر بهدف ضرب الوحدة الوطنية، كما أنها كانت أول من وضع (فكرة العروبة) في مواجهة (فكرة البربرية)، وترجيح إحداها على الأخرى حسبما تقضي بذلك مصلحتها[2].

إنني أوجّه ندائي إلى أبناء **جرجرة الأشم**، الذين عرفهم تاريخ الجزائر على أنهم أبناء الجزائر البررة، الذين عملوا طوال أربعة عشر قرنا على إعلاء كلمة الله، ونشر لغة القرآن الكريم. ألم يكن زين الدين ابن معطي أول من نظم قواعد النحو العربي في ألف بيت من القبائل في القرن الثاني عشر الميلادي؟ هذه

---

(1) Dallet: Dictionnaire de la langue Kabyle, Paris 1982.

(2) جريدة الأهرام، عدد 18/ 06/ 1995.

الألفية التي دُرِّست قرونا في المشرق والمغرب، وكان يحفظها طلاب العربية في العالم الإسلامي كله، واعتبرت لقرون أنها أمجع طريقة لضبط قواعد اللغة، وقلده الكثيرون حتى من الأوروبيين في عملية تصنيف قواعد اللغة ومنهم ابن مالك في ألفيته المشهورة. ألم يكن **ابن آجرُّوم (أبو عبد الله)**، الذي عاش في القرن الرابع عشر الميلادي، صاحب كتاب (الآجرومية في مبادئ علم العربية)، الذي لازال يدرس حتى الآن في النحو بالأزهر وغيره، من أمازيغ المغرب؟ وكلمة آجرُّوم أمازيغية (بربرية) معناها الفقير والصوفي.

إننا نهيب بأبناء جرجرة، ألا ينساقوا وراء العقلية الاغترابية، فالمغتربون في فرنسا قضوا زهرة شبابهم هناك، وعادوا بعد تقاعدهم بأمراض اجتماعية وثقافية، ينشرونها بالجزائر. لم يحضروا معهم حب الفرنسي للغته والدفاع عنها، حتى ولو كان بروتانيا، لم يحضروا معهم حب الفرنسي لوحدته الوطنية فيعملون على الدفاع عن الوحدة الوطنية الجزائرية. وإنما عادوا بأفكار الاستعمار الفرنسي الجديد، حولوا بفرنكاتهم المرتفعة، بالمقاصة، بساتين التين والزيتون إلى فيلات، بعد أن قطعوا آلاف الأشجار المثمرة؛ وزرعوا قرى ومداشر أرض المقراني، ولالة فاطمة نسومر، وعميروش، والفضيل الورتلاني، ومولود قاسم نايت بلقاسم بالحانات والبارات[1]. ثم نشروا نزعة البربريزم، لا من أجل خدمة الأمازيغية، وإنما من أجل الإبقاء على هيمنة اللغة الفرنسية على حساب الوضع الطبيعي للغة العربية.

(1) نشرت جريدة (Liberté) في عدد 18/ 09/ 1996 مقالا طويلا عنوانه (إيفرحوتن...) تبين هذه الظاهرة ببلاد القبائل. وتقول إن شيخا حاجا هاجم في هذه القرية مخزنا للخمر بشاحنته، وأدخل السجن.

الأصول العربية للأمازيغ

كانت التوجيهات تصدر للمؤسسات الثقافية الفرنسية بإبراز أصل البربر الأروبي في دورياتها ومنشوراتها. ولهذا فإننا نجد الموسوعات الفرنسية التي نشرت قبل استقلال الجزائر، تضرب على النغمة الاستعمارية كموسوعة (كييي Quillet) مثلا، التي ورد فيها عشرة أسطر عن البربر في المادة المخصصة لهم، مبتورة، يحس القارئ من بين أسطرها أن محررها غير مقتنع بما يقول. وأرى أن أعرض للقارئ الكريم ما ورد في هذه الموسوعة.

«إن البربر ليسوا ساميين مثل العرب.. وبأنهم سبقوا العرب على هذه الأرض (أي شمال إفريقيا)، وبأنهم ينسبون عرقيا إلى السكان الذين يعيشون في أروبا.

وواضح من هذا النص أن الكاتب صدرت إليه تعليمات بأن يقول هذا فقاله. والتعليمات تتمثل في إبراز أربعة عناصر:

1 – أن البربر ليسوا ساميين.

2 – أن البرير لا يرتبطون بأية صلة بالعرب.

3 – أن البربر سبقوا العرب إلى شمال إفريقيا.

4 – أن البربر من أصل أروبي.

وواضح من تحليل النص أنه مهلهل، تجنب محرره غير المؤمن به تعزيزه بأي نص تاريخي، أو أية اكتشافات أثرية علمية.

نبدأ بعلم الحفريات عن الجماجم البشرية، فقد اكتشفت أربع جماجم: الأولى في الجزائر والثانية في ليبيا والثالثة في اليمن والرابعة في فلسطين. ووجد بين هذه الجماجم الأربع تطابق كامل. وعمرها ما يقرب من خمسين ألف سنة.

يقول الأستاذ الدكتور رشيد الناضوري في كتابه "المغرب الكبير" مايلي:

«وفيما يتعلق بإنسان العصر الحجري القديم الأوسط في المغرب، فقد عثر على فك إنسان ينتمي إلى هذه المرحلة في كهف (هوافتيح) غرب (درنة). وقد

استخدم الكربون المشع 14 في اختبار عمر الفحم الخشبي الذي وجد في مواقد هذا الموقع والمنتمية لهذه المرحلة، وقد أعطى سنة 43000 ق. م كتاريخ له، وقد ثبت من الدراسات المقارنة تشابه هذا الإنسان مع إنسان (نياندرتال) في فلسطين. كما أن هذا التشابه أيضا يمكن ملاحظته في الصناعة الحجرية المنتمية لهذه المرحلة، مما يؤيد وجود نوع من الصلات الحضارية والبشرية بين جنوب غربي آسيا، وجنوب شرقي ليبيا.. ويتجه العلماء إلى اعتبار إنسان "مشتة العربي" الذي اكتشفت جمجمته بالجزائر متشابها مع إنسان "نياندرتال"»[1].

يتبين من النص السابق آن علم الجماجم أثبت بالدليل العلمي التشابه بين إنسان شرقي ليبيا وإنسان الجزائر وإنسان نيادرتال في فلسطين، مما يدل على أصلهم الواحد. وحيث أن الهجرات كانت تتم من الشرق إلى الغرب، وبما أن علماء السلالات يثبتون علميا أن مصدر هجرات حوض البحر المتوسط هي شبه الجزيرة العربية، فإن الاحتمال الأرجح بل المؤكد أن البربر قبائل قدمت من شبه الجزيرة العربية ومنطقة الهلال الخصيب، عبر صحراء سيناء ومصر، واستوطنت شمال إفريقيا، في هجرات متتالية سابقة للهجرة الإسلامية، ويعود تاريخ أقدمها إلى ما قبل خمسين ألف عام.

البربر والساميون: أي العرب القدامى

يغلّب كثير من المؤرخين أن الساميين والحاميين سلالة واحدة، وأنه لا وجود لسلالتين منفصلتين، وأن المهد الأصلي للسلالة (الحامية - السامية) كان الجزيرة العربية وقرن إفريقيا، حيث يعتبران امتدادا جغرافيا واحدا.

يقول الأستاذ عبد الرحمان باغي في كتابه حياة القيروان:

«فريق من المؤرخين يرون أن أصل الحاميين والساميين واحد، وأن مهدهم الأصلي كان شرق إفريقيا.. وعلماء الجيولوجيا يعتبرون الجزيرة

---

(1) المغرب الكبير، ج1 ص 62، تأليف الدكتور رشيد الناضوري، أستاذ التاريخ بجامعة الاسكندرية.

العربية امتدادا طبيعيا لإفريقيا، ليس يفصلها عنها سوى منبطح وادي النيل ومنخفض البحر الأحمر»[1].

ويذهب معظم المؤرخين إلى القول بأن مصادر الهجرة البشرية ثلاثة:

1 – أواسط آسيا بالنسبة لشرق آسيا وأستراليا وشمال أروبا.

2 – شبه الجزيرة العربية بالنسبة لحوض البحر المتوسط وجنوب إفريقيا ووادي النيل.

3 – أمريكا (مصدر هجرتها غير محدد ومعروف).

إذن فشبه الجزيرة العربية والهلال الخصيب هما مصدر هجرة البربر الرئيسي إلى بلدان شمال إفريقيا. يقول الأستاذ عبد الرحمن باغي: «فليس لنا بد من أن نتمثل ما يذكره العلماء من أن الجزيرة العربية كانت في حقبة من الحقب مصدرا يوزع على العالم ثروة بشرية»[2].

ويورد محررو مادة (بربر) في موسوعة "أونيفير ساليس Universalis"، وهي أول موسوعة فرنسية، تحرر بعد استقلال الجزائر – فقد نشرت سنة 1968 – وتقر نسبة البربر إلى العرب، أصلا ولغة.. ورد في الموسوعة ما يلي:

«أكثر طريق إلى الحقيقة إعادة البربرية إلى أصول حامية سامية التي تجمع في بوتقة واحدة البربرية، والمصرية القديمة، والكوشية، والسامية»[3].

ومحررو الموسوعة نفسها يقرون بأنه «لا يوجد رأس أو جنس بربري مستقل بذاته. إن الناطقين بالبربرية يمثلون عدة أنواع عرقية (إتنية).. ولم تتحقق أية دراسة تعتمد على أنواع الدم، فهوية البربر إذن لم تحدد على مقاييس عرقية»[4]. وتعترف نفس الموسوعة بأن البربر لا تعود أصولهم إلى أصل غربي، وإنما ينحدرون من "أصل شرقي"[5].

---

(1) حياة القيروان للأستاذ عبد الرحمن باغي، ص 13.

(2) نفس المصدر السابق.

(3) Encyclopaedia Universalis م 3، ص 172.

(4) نفس المصدر السابق، ص 170.

(5) نفس المصدر السابق.

وينكر المؤرخ العراقي أحمد سوسة تسمية "السامية" ويرى استبدالها باصطلاح "عربية"، يقول:

«إنها تسمية أطلقت على بعض الشعوب التي زعم أنها انحدرت من صلب سام بن نوح، وكان أول من أطلقها بهذا المعنى العالم النمساوي (شلوتزر Chlotzer) عام 1781م للميلاد، فشاعت منذ ذلك الحين، وأصبحت عند علماء الغرب علما لهذه المجموعة من الشعوب، وسرت إلى المؤرخين العرب، على الرغم من أن هذه التسمية لا تستند إلى واقع تاريخي، أو إلى أسس علمية عنصرية صحيحية، أو وجهة نظر لغوية، لذلك يرى بعض الاختصاصيين وجوب تسمية هذه الأقوام بالأقوام العربية لتشمل كل من سكن الجزيرة العربية وخرج منها، لأن العرب والساميين شيء واحد»[1].

ويقول أحمد سوسة أيضا: «يتضح مما تقدّم أن الحضارة التي سميت بالسامية خطأ إنما هي حضارة عربية، ومصدر طاقتها البشرية جزيرة العرب لا غيرها»[2].

ويتفق مع الدكتور سوسة الدكتور جواد علي -المؤرخ العراقي- فيقول: «ولعلي لا أكون مخطئا أو مبالغا، إذا قلت إن الوقت قد حان لاستبدال مصطلح (سامي) و(سامية) بـ (عربي) و(عربية)»[3].

ويتفق مع الدكتور أحمد سوسة أيضا المؤرخ الفرنسي (بيير روسيه P. Rossi) حيث يقول: «إن التسمية السامية خالية من كل معنى، لدرجة أن (الموسوعة الإسلامية) نفسها -التي نسبت العرب للساميين- لا تفرد لكلمة (سامية) مادة في فهرست موادها.. إن كلمة سامية لا أثر لها في المعجم اليوناني ولا في المعجم اللاتيني.. وهي لم تظهر للوجود إلا في نهاية القرن الثامن عشر على يد العلامة

---

(1) حضارة العرب ومراحل تطورها عبر العصور، للدكتور أحمد سوسة، ص 19، بغداد 1979.

(2) نفس المرجع السابق، ص 30.

(3) تاريخ العرب قبل الإسلام، للدكتور جواد علي، ج1.

النمساوي (شلوتزر Shlotzer)، الذي ابتكر اصطلاح (سامي) في كتابه المعنون (جدول الأدب التوراتي والشرقي»[1].

كما يؤكد المؤرخ الفرنسي أيضا بأن التسمية الحقيقية (للساميين) هي العرب.

«كل شيء يمكن أن يكون بسيطا لو أننا بدل أن نتحدث عن الساميين -الأبطال الوهميين- نتحدث عن العرب، عن الشعب الذي وجد في الواقع، له كيان اجتماعي وثقافي ولغوي دائم، الشعب الذي منح الحياة والتوازن للبحر المتوسط منذ آلاف السنين».

«والآثار هنا شاهدة على ذلك، تؤكد أن حضارتنا (نحن الأوروبيين) ولدت وترعرعت في المنطقة الممتدة بين نهري النيل والهندوس، وبين القوقاز ومضيق باب المندب، فأربع أمم أقامت إمبراطورية على امتداد زمني طويل وهي: المصريون، والسوريون - الكنعانيون، واليونانيون - الحيثيون، والبابليون»[2].

وحيث أن التسمية السامية لا أساس لها تاريخيا، وفق ما يرى الكثير من المؤرخين، وحيث أن هؤلاء المؤرخين ينكرون أيضا وجود عرق اسمه العرق (الحامي)، وأن الساميين والحاميين أمر واحد، فالتسمية الصحيحة للبربر إذن هي العرب، وخاصة وأن المؤرخين يتفقون على أن تسمية (البربر) لا تعتمد على أي أساس علمي، كما سنرى في هذا البحث.

---

(1) La cite d'Isis. Histoire vraie des Arabes. (Nouvelles Editions latines. Paris 1976). Pierre Rossi.
- مدينة إيزيس، تاريخ حقيقي للعرب، ص 12.
(2) المرجع السابق، ص 18.

الهجرات العربية السابقة للإسلام:

يرى الأستاذ غوتييه (Gautier) المؤرخ الفرنسي المشهور، أن موجات الهجرات السامية العربية القديمة إلى المغرب تمّت عن طريق مصر. يقول: «لم يعد بعيدا عن الاحتمال أن موجات الهجرة نحو المغرب سلكت طرقا أخرى غير طريق مصر»[1].

فعلم دراسة الجماجم القديمة، ودراسة جذور السلالات ، أثبت بأن البربر لا يؤلفون جنسا مستقلا بذاته، وإنما قدموا من الشرق، وبالذات من الجزيرة العربية والهلال الخصيب. فقسم من العمالقة الذين سكنوا بلاد الشام هاجر إلى المغرب، وساهم في تكوين التجمع السكاني الذي عرف بالبربر. يقول المؤرخ العربي أبو جعفر الطبري.

«وعمليق وهم العمالقة ومنهم البربر وهم بنو ثميلا بن مأرب بن فاران بن عمرو بن عمليق بن لوذ بن سام بن نوح. ما خلا صنهاجة وكتامة، فإنما هم بنو فريقيش بن قيس بن صيفي بن سبأ»[2].

ويستمر الطبري في إثبات أن البربر هاجروا من بلاد جنوب الجزيرة العربية عبر الشام، فيقول:

«وزعم هشام بن محمد الكلبي أن إفريقيش بن قيس بن صيفي بن سبأ بن كعب بن زيد بن حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، همّ متوجها إلى إفريقيا فاحتملهم حتى سواحل الشام حتى أتى بهم إفريقيا، فافتتحها وقتل ملكها جرجرا، وأسكنها البقية التي كانت بقيت من الكنعانيين الذين كان احتملهم معه من سواحل الشام»[3].

---

(1) Le Passe de l'Afrique du Nord. E.F. Gautier. p23.

(2) تاريخ الطبري، ج 1، ص 207.
(3) نفس المرجع، ص 442.

إذن فالمؤرخ العربي الطبري يثبت في كتابه المعروف أن البربر هاجروا على عدة موجات ضاربة في القدم، ويحدد الهجرات التي تمت من بلاد الشام إلى المغرب فيذكر أنها جاءت من قبائل الكنعانيين ثم من قبائل العمالقة.

وينقل الطبري «أن البربر أخلاط من كنعان والعماليق وغيرهم»[1].

ويؤكد رأي الطبري المؤرخ المغربي شهاب الدين السلاوي فيقول:

«ومن هذه الأقوال يتضح الاتصال بين (الساميين والحاميين)، وكيف يميل النسابة العرب إلى أنهم كانوا معاشر تنازعوا وانفصلوا، وذهب منهم جمع إلى شمال إفريقيا. وبقي كثير منهم في فلسطين في أرض الشام إلى زمن داود. وقد كان يحكمهم ملكهم جالوت. ولما قتل داود جالوت أجلوا من بلاد كنعان وفلسطين إلى أرض المغرب ولحقوا بمن سبقهم»[2].

إذن فالسلاوي يتفق مع الطبري ومع كثير من المؤرخين بأن هجرات سحيقة في القدم من عهد الملك داود، تمت من الشرق العربي الآسيوي نحو شمال إفريقيا.

ويورد السلاوي أيضا بأن هجرات أخرى متعددة تمت من اليمن إلى شمال إفريقيا بالإضافة إلى هجرات بلاد الشام، يقول:

«فقد غزتهم (أي سكان المغرب) ملوك اليمن من قراهم مرارا، وذكر الكلبي أن حمير أبا القبائل اليمنية ملك المغرب مائة سنة»[3].

وعندما يتكلم ابن خلدون عن إفريقيش يقول:

«هو إفريقيش بن قيس بن صيفي من ملوك التبابعة غزا المغرب وإفريقية، وقتل الملك جرجس وبنى المدن والأمصار»[4].

---

(1) حياة القيروان للأستاذ عبد الرحمن باغي، ص 16.

(2) الاستقصاء للسلاوي، ج1.

(3) الاستقصاء للسلاوي، ج1.

(4) تاريخ ابن خلدون، ج6، ص 176.

بل إن ابن خلدون يذهب إلى أن البربر هم بقايا القبائل القديمة التي كانت تسكن فلسطين والتي انقرضت باستثناء البربر يقول:

«وكان بين بني فلسطين هؤلاء وبين بني إسرائيل حروب كثيرة، وكان بالشام كثير من البربر إخوانهم، ومن سائر أولاد كنعان يضاهونهم فيها، ودثرت أمة فلسطين وكنعان وشعوبها لهذا العهد، ولم يبق إلا البربر»[1].

بل ويذهب المؤرخ الأمريكي (وليم لانغر W. Langer) في تاريخه: «موسوعة تاريخ العالم» إلى تفنيد فكرة هجرة البربر من أروبا، أي الهجرة من الشمال إلى الجنوب، ويقر مع جميع مؤرخي الهجرات البشرية إلى أن الهجرة في حوض البحر المتوسط تمت من جنوبه إلى شماله وليس العكس، لأنه في الوقت الذي كانت فيه أروبا كتلة من الجليد لا حياة فيها لا حيوانية ولا بشرية، كان شمال إفريقيا مأهولا بالبشر، يقول الأستاذ لانغر:

«وانتشر فرع من عناصر البحر المتوسط والصحراء، الطويلة الرؤوس وأقاربهم من العرب والبربر وغيرهم في جنوب أروبا وشمال إفريقيا والشرق الأدنى»[2].

إذن فالمؤرخ (لانغر Langer) يعتبر البربر والعرب تجمعا سكانيا واحدا، عمّر مناطق الشرق الأدنى وشمال إفريقيا وجنوب أروبا. ويوضح المؤرخ لانغر رأيه هنا فيقول:

«وإذن فقد كان الاتجاه العام للحركة الحضارية من الجنوب إلى الشمال، ومن الشرق إلى الغرب، ولهذا كانت المناطق الجنوبية والشرقية في أي وقت مضى تتمتع بحضارات أكثر رقيا من حضارات المناطق الهامشية في الشمال الغربي»[3].

---

(1) تاريخ ابن خلدون، ج6، ص 176.

(2) موسوعة العالم لوليام لانغر، ج1، ص 25 - 26 (الترجمة العربية).

(3) المرجع السابق، ص 32.

إذن فالمؤرخون الأروبيون، النزيهون طبعا، يقرون بأصول البربر العربية (السامية) المشرقية. ويقرون بأن سكان جنوب أروبا أنفسهم بحضارتهم اليونانية والرومانية يعودون إلى أصول عربية مشرقية، وهو تفنيد واضح من مؤرخين أروبيين غير مغرضين مثل العلامة (لانغر Langer) والمؤرخ الفرنسي (بيير روسيه P. Rossi)، لآراء أولئك المؤرخين المنظرين للاستعمار الغربي، والذين تتلمذ عليهم دعاة النزعة البربرية الجزائريون والمغاربة السطحيون.

ويذهب (بيير روسيه P. Rossi) بعيدا، فيرى أن اللغة الآرامية هي أم اللغات اليونانية واللاتينية والفارسية، فيقول:

«**وكانت هناك لغة واحدة منطوقة ومكتوبة فرضت أخيرا نفسها، وعمت هذه المنطقة الواسعة ألا وهي اللغة الآرامية التي تعتبر اليونانية الفرع الغربي لها، ولقد تطورت الآرامية بوتيرة طبيعية وبدون صدام إلى اللغة العربية التي ورثت ماضي المصرية، والكنعانية، والحيثية، والبابلية. هذا هو المقياس الحقيقي للثقافة العربية التي تعتبر الأم والملهم للهيلينية التي صاغتها في روحها وقوانينها**»[1].

ويرى المؤرخ الفرنسي أن الآلهة اليونانية كانت منحدرة من الآلهة العربية، «فعشتار صارت فينوس الرومانية فيما بعد»[2].

والثقافة العربية عند المؤرخ الفرنسي المذكور أم الثقافات الغربية والشرقية يقول: «**عندما نؤكد بأن الشرق محدد بواسطة الثقافة العربية، في مجال عربي، فإننا لا نبتكر شيئا من عندنا.. ولو أن اليونان لم يتكون في الثقافة العربية لما ظهر البتة أرسطو إلى الوجود.. إن روما أسست في بوتقة الثقافة العربية.. لابد أن نحدد العروبة كثقافة وحيدة للشرق، وأن نراجع ما لقنّا في المدارس عن الشرق واليونان.. إن اليونان لم يكن سوى شرفة أو ملحق للبناء العربي بالشرق،**

(1) La cite d'Isis. Vraie histoire des Arabes. P. Rossi. مدينة إيزيس، تاريخ حقيقي للعرب.

(2) المرجع السابق، ص 24.

واليونانيون يعترفون بذلك. إن أصول الحضارتين القريطية والقبرصية القديمتين مصرية كنعانية»[1]. أما عن الحضارة الفارسية فيقول (روسيه P. Rossi):

«في حوالي 500 سنة قبل الميلاد، كتب بالآرامية داريوس - إمبراطور فارس الذي هزمه الإسكندر الأكبر - القوانين المصرية ونشرها في إمبراطوريته»[2].

ويفسّر (روسيه P. Rossi) نجاح عبور الإسكندر الأكبر التاريخي إلى انتماء هذا الأخير واليونان إلى الثقافة العربية، يقول:

«إن الوقت قد حان لكي نفسّر لماذا لم يلاق عبور الإسكندر الأكبر صعوبات أمامه، ولماذا كانت اللغة والسياسة والإدارة اليونانية آسيوية بعمق، أي (سامية) إذا لجأنا إلى هذا الاصطلاح السخيف»[3].

ويعيد الأصول العربية لهذه الثقافات إلى فترات قديمة جدا، يقول:

«منذ القرن السابع قبل الميلاد صارت اللغة الكنعانية تحمل اسم (الكوينية)، أي اللغة المشتركة للمنطقة الممتدة من النيل وحتى الهندوس، وهو المجال العربي، ثم صار حوض البحر المتوسط مزدوج اللغة: اليونانية كلغة ثانية بالميدان الأدبي، والآرامية استمرت كلغة أولى..»[4]. وكما أوضحنا من قبل فقد أكّد ما قاله روسيه كاتب بريطاني في سنة 1991، وهو ويليام برنال.

وإذا استعرضنا العلاقة التي كانت بين البربر وقدماء المصريين، وجدنا أنها ذات أخذ وعطاء بالنسبة لمسار الهجرات البشرية. فبعض المؤرخين يرون بأن أول حضارة نشأت في منطقة الشرق الأدنى والأوسط وحوض البحر المتوسط كانت على ضفاف بحيرات كانت تنتشر في الصحراء الكبرى الجزائرية، وعندما جفت هذه البحيرات وعمّ القحط هرب هؤلاء السكان من الجفاف، وانتشروا

---

(1) المرجع السابق، صفحات: 29 - 30 - 32 - 33.
(2) المرجع السابق، صفحات: 40 - 51 - 57.
(3) المرجع السابق.
(4) المرجع السابق.

في هذه المنطقة وبالعالم ، ويسمى هذا الرأس الأصلي للبشرية "الرأس الليبي البربري". بل إن مؤرخا كغوتييه يرى أن أول من سكن حوض النيل[1] جاء من منطقة الصحراء الكبرى. ويحتمل إذا اعتمدنا على هذا الرأي الذي لا زال حتى الآن مجرد احتمال -بأن يكون أصل سكان هذه المنطقة الواسعة، من الصحراء الكبرى، هاجروا من ضفاف بحيراتها، ثم استوطنوا في شبه الجزيرة العربية وبين النهرين والنيل عشرات القرون أو مئات القرون، ثم عادوا ضمن هجرات ليعمروا شمال إفريقيا وجنوب إفريقيا إثر ذوبان الجليد منها.

ويؤكد المؤرخون أن الأسرتين المصريتين الفرعونيتين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين كانتا بربريتين، وهما من الأسر الكبيرة التي حكمت مصر القديمة. وهذا يعتبر دليلا واضحا على التفاعل الموجود بين البربر وقدماء المصريين.

وكما سبق أن بيّنا، فإن الهجرات من الجزيرة العربية نحو شمال إفريقيا وحوض البحر المتوسط وجنوب أروبا، تمت خلال الخمسين ألف سنة الماضية، وخاصة إثر دورة الجليد المعروفة لدى المؤرخين باسم (فرم Warm 3) قبل العشرين ألف سنة الأخيرة، عندما بدأ الجفاف يعم الجزيرة العربية، والجليد يذوب من أروبا وحوض البحر المتوسط، يقول أحمد سوسة: «كما يتضح أن العالم يجتاز اليوم الدورة الدفيئة الثالثة التي بدأت في أعقاب دورة الجليد (فرم Warm 3)، كانت أروبا مغطاة بالجليد، في حين كانت الجزيرة العربية تتمتع بجو معتدل رطب، تكثر فيه الأمطار في كل المواسم، مما ساعد في هذه الفترة على الأخذ بالزراعة التي تعتمد على الري، ونمو الغابات الكثيفة في المنطقة. ولما دخلت الدورة الدفيئة الثالثة عادت أروبا إلى حالتها الطبيعية التي كانت عليها في الدورة الدفيئة السابقة، وانقلبت أرض الجزيرة العربية إلى صحاري، تاركة في جوفها طبقات نفطية متكونة من بقايا غاباتها بتأثير الضغط عليها»[2].

(1) Le passe de l'Afrique du Nord, E.F. Gautier, p23.

(2) حضارة العرب ومراحل تطورها عبر العصور، للدكتور أحمد سوسة، ص 62 - 63.

وهذا هو رأي الكثير من المؤرخين، فتوينبي، وجايلد «يريان أن عامل الجفاف الذي حلّ في أعقاب العصر الجليدي، كان حافزا في قيام الهجرات المتواصلة من جزيرة العرب، وبالتالي نشوء الحضارات المهمة في وادي النيل ووادي الرافدين»[1].

البربر والفينيقيون:

ويؤكد الأستاذ (غوتييه E.F. Gautier) «بأن التأثير الفينيقي بالمغرب دام ما يقرب من ألف سنة، ولم يسجل لنا التاريخ سوى القرن الأخير من الوجود الفينيقي، أن القرن الذي انهارت فيه إمبراطورية قرطاج. أما القرون التسعة الأخرى فقد بقيت غامضة تاريخيا»[2].

ويؤكد المؤرخون بأن البربر تفاعلوا مع الفينيقيين واندمجوا فيهم أكثر من تفاعلهم مع الرومان والبيزنطيين، لأن الطرفين من أصل واحد. هاجروا من مصدر هجرة واحد، ويعترف بذلك حتى المؤرخون الأروبيون، النزهاء طبعا، يقول الأستاذ جوستاف لوبون: «إن البربر قبل الفتح العربي كانوا يعبدون آلهة قرطاجنة كفورزيل وماسيمان. ويروى عن (تيرتوليان Tertulien) (وهو كاتب فيلسوف مشهور من فلاسفة الكنيسة، ولد بالشرق الجزائري وتخرّج من الجامعة الرومانية المشهورة التي كانت تقع في موقع القرية الجزائرية مداوروش)، أن البربر كانوا يضحون ببعض الأولاد تقربا إلى إله الزمن كيوان، وكانوا يعبدون النار أيضا»[3].

إذن فـ(تيرتوليان Tertulien) فيلسوف الكنيسة الذي عاش في القرن الثالث الميلادي بالجزائر، يقر بأن البربر كانوا يتعبدون وفقا للعبادات الفينيقية، ويؤكد هو وغيره من المؤرخين العالميين، أن البربر لم يتجاوبوا مع المسيحية كثيرا، لأنها وردت لهم من أروبا وعن طريق روما المستعمرة.

(1) المرجع السابق، ص 22.

(2) Le Passe de l'Afrique du Nord. E.F. Gautier. p31.

(3) حضارة العرب لغوستاف لوبون، ترجمة عادل زعيتر، ط2، ص 307.

كما أن المؤرخين يثبتون أن البربرية كانت تكتب بالحروف الفينيقية، يقول الأستاذ الناضوري: «**فقد بدأ البربر في تسجيل لهجاتهم في القرن الثاني قبل الميلاد متأثرين باللغة البونية الفينيقية الأصل، والتي نجح الفينيقيون في التوصل إلى اختراع خطها لأول مرة في حياة الإنسانية بصورة نهائية**»(1).

ويعتبر الكنعانيون أحد الشعوب الأربعة التي يعود إليها البربر في أصولهم، والكنعانيون هم مخترعو الكتابة أو الأبجدية قبل أن تنقل على أيدي الفينيقيين بأكثر من ألف سنة، يقول الدكتور أحمد سوسة:

«**ومن المتفق عليه أن الكنعانيين الذين هاجروا من جزيرة العرب، واستقروا في فلسطين، كانوا أول من استعمل الحروف الأبجدية في الكتابة، وهي الحروف التي اكتشفت في شبه جزيرة سيناء، ويعود تاريخها إلى سنة 1850 قبل الميلاد، ومن الكنعانيين انتقلت إلى الفينيقيين الذين نقلوها بدورهم فيما بين سنة 850 و750 قبل الميلاد إلى الإغريقية واللاتينية، وصارت تعرف في اليونانية باسمها العربي (الألف باء)**»(2).

إذن فالبربر اندمجوا وتفاعلوا مع الفينيقيين واعتبروا أنفسهم دائما أنهم والفينيقيين من أصل واحد، يتحالفون معهم ضد الرومان، وأن قرطاجنة كانت تعتبر إمبراطورية مشرقية إفريقية في جنوب المتوسط، في مواجهة إمبراطورية روما بشمال البحر. وأن الوطنية المغربية في ذلك الوقت كانت تتمثل في التحالف مع قرطاجنة ضد روما. ومن هذا المنطلق فإن **سيفاكس** - رئيس مملكة مازيسيلا وزوج صفان بعل، ابنة صدر بعل (هزدروبال)- حليف قرطاجنة، هو الوطني الذي ناضل وحارب دفاعا عن الإمبراطورية الشمال الإفريقية (قرطاجنة)، ضد الإمبراطورية المستعمرة الأجنبية الغريبة عن شمال إفريقيا ألا وهي روما.

---

(1) كتاب د. رشيد الناضوري (المغرب الكبير).

(2) حضارة العرب ومراحل تطورها عبر العصور، ص 32.

ومن الغريب أيضا أن مؤرخي الرومان وأروبا حاولوا إقناعنا بأن الرومان هم الذين أدخلوا التطور والحضارة إلى نوميديا والبربر. لكن الحقيقة التي تعمدوا إخفاءها هي أن الذي أدخل الحضارة لسكان شمال إفريقيا وأخرجهم من العصور المظلمة أو بتعبير أدق من العصر الحجري القديم، هم الفينيقيون، يقول الأستاذ الناضوري: «عندما اتصل الفينيقيون بالبربر الذين كانوا لا يزالون في مرحلة العصر الحجري الحديث، بدأت العلاقات الفينيقية البربرية في التطور في المجالات الاقتصادية والحضارية، مما ساعد على انتقال البربر من المرحلة القبلية الهمجية، إلى مراحل أكثر تقدما نحو تكوين دولة بربرية»[1].

بل إن ديورانت مؤرخ الحضارات الإنسانية، يرى أن العرب هم أول من ابتكر الزراعة واستأنس الحيوان قبل المصريين وغيرهم، يقول: «إن هناك ما يدل على أن الحضارة، وهي هنا زراعة الحبوب، واستخدام الحيوانات المستأنسة، قد ظهرت في العهود القديمة غير المدونة، في بلاد العرب، ثم انتشرت منها في صورة مثلث ثقافي إلى ما بين النهرين سومر وبابل وآشور، وإلى مصر»[2].

البربر والرومان والفندال والبيزنطيون:

مما سبق يثبت أن البربر لم يتفاعلوا مع الرومان، وأنهم استمروا في اعتبارهم دخلاء على شمال إفريقيا مستعمرين أجانب. فحتى الكنيسة -التي انتشرت بالمشرق العربي- لم يعتنقها البربر، لأنها جاءت من روما حملها غزاة مستعمرون، بخلاف وضع الكنيسة في المشرق العربي. يقول الأستاذ العلامة الناضوري:

«وحقيقة كون الرومان ينتمون إلى عائلة الشعوب الأوروبية، وكذلك سيادتهم العسكرية، قد حال دون استطاعتهم -رغم محاولاتهم الكثيرة- تحويل البربر إلى شعب روماني النزعة»[3].

(1) المغرب الكبير، رشيد الناضوري، ج1، ص 221.
(2) قصة الحضارة لديورانت، الترجمة العربية، ج2، ص 43.
(3) المرجع نفسه، ص 287.

ومن الغريب أن عدم اندماج البربر مع الرومان كان شبيها بعدم اندماج عرب المشرق بهم أيضا، يقول الأستاذ الناضوري:

«ونفس هذه الظاهرة تنطلق على كافة شعوب الشرق الأدنى.. بخلاف العناصر السامية العربية التي تمكنت من التأثير الكلي على المصريين والبربر، وتعريبهم لغويا وفكريا، ولا يقتصر هذا على البربر فقط بل ويشمل الشرق الأدنى كله»(1).

وقد شهد المؤرخون الأروبيون النزهاء على تناقض البربر مع الرومان، وعدم اندماجهم لا بهم ولا بحضارتهم. ويقول محررو مادة (بربر) في موسوعة "يونيفيرساليس Universalis":

«لم ترضخ القبائل البربرية للرومان، بل استمرت في تمردها ضدهم، فالحضارة الرومانية لم تدمج في بوتقتها البربر، كما أن الحضارة الرومانية لم تؤثر سوى على قلة قليلة جدا من المغاربة»(2).

ونفس عدم التفاعل هذا للبربر تم إزاء (الفندال)، وهي القبائل الجرمانية التي غزت شمال إفريقيا في القرن الخامس الميلادي. فقد قضى الواندال فترة احتلالهم بشمال إفريقيا في سلسلة من الحروب والثورات مع البربر. ولعل أخطر ثورة كانت ضدهم هي ثورة "تراسا موند"، واعتبرت هذه الثورة ثورة الفلاحين ضد الكولون (الإقطاعيين) الواندال، وكان مصير الجيش الواندالي الغازي هزيمة ساحقة سنة 523م في معركة ركاب الجمال. وهزم الواندال وطردوا من شمال إفريقيا، رغم استعمارهم الذي دام حوالي قرن.

نفس الشيء حدث مع **البيزنطيين** ورثة ممتلكات روما، فلم يكد يمضي عامان على احتلال البيزنطيين للمغرب، حتى اندلعت ثورات البربر ضدهم

---

(1) حضارة العرب لغوستاف لوبون، ترجمة عادل زعيتر، ط2، ص 307.

(2) موسوعة يونيفيرساليس، مرجع ذكر سابقا.

واستمرت مشتعلة فيما بين 535 و545م.. وحاول كبار قادة الإمبراطورية العسكريين التصدي لهذه الثورات، ولكنهم فشلوا وهم (بليزاريوس، وجرمانوس، وصولومون وتروجليتا)، وجهودهم ذهبت عبثا.

ثم حاولت العسكرية البيزنطية مدة 25 سنة فرض الهدوء على ربوع البلاد، وعندما نجحوا في ذلك في منتصف القرن السادس الميلادي، كانت الولايات المغربية هجرها سكانها (إلى المناطق الجبلية والصحراوية) وشملها الخراب[1] وهو نفس الشيء الذي حدث مع الاحتلال الفرنسي بالجزائر.

ثم تلاحقت ثورات البربر ضد الاحتلال البيزنطي الذي لم يستقر له قرار طوال وجوده.. «وبقي البربر خارج الخط القنصلي (البيزنطي) يحيون حياة مستقلة»[2].

وفي سنة 563م قامت ثورة كبرى في عهد جان روجاتينوس ممثل الإمبراطور البيزنطي بالمغرب.

ويقر محررو مادة بربر في موسوعة "يونيفيرساليس Universalis": «بأن البربر غرباء عن الحضارة اليونانية - الرومانية»[3].

البربر والفتح الإسلامي:

البربر معروف عنهم أنهم أشداء ذوو جلد وصبر، شعب محارب بشراسة. وفي الوقت الذي نجدهم قاوموا الرومان ورفضوا الاندماج فيهم، واعتناق دينهم، واكتساب عاداتهم ولغتهم وثقافتهم؛ نجدهم استقبلوا العرب بترحاب في القرن السابع الميلادي. لقد تصدى البربر للرومان وحاربوهم بشراسة، رغم أن احتلال الرومان دام أكثر من ستة قرون، أسسوا فيها المدن والمسارح والجامعات؛ يكفي أن يعلم القارئ أن ثاني جامعة بالإمبراطورية الرومانية

---

(1) المغرب الكبير، تأليف د. عبد العزيز سالم، ج2، ص 51.
(2) نفس المرجع، ص 53.
(3) موسوعة يونيفيرساليس، ص 170، م3.

وممتلكاتها بعد جامعة روما، كانت جامعة مداوروش بالشرق الجزائري. يكفي أن يعلم القارئ أن من أهم مسارح روما بالعالم هو مسرح تبسة الدائري، يكفي أن يعلم القارئ أن الحضارة الرومانية المسيحية أنجبت أعظم الفلاسفة اللّاهوتيين في تاريخ الكنيسة من أمثال القديس أوغسطين (ST. Augustin) بهربيون (عنابة - الجزائر)، وترتوليان (Tertulien) وأبوليوس (Apuiee)، ومينيكوس فيليكس بمداوروش. يكفي أن يعلم القارئ الكريم أن أقدم مدرسة فلسفية حلولية مسيحية ظهرت في جامعة مداوروش بالشرق الجزائري. إذن فهذه كلها شواهد على بقاء الرومان مدة طويلة، وشاهد على تغلغل ثقافتهم وحضارتهم وتراثهم الديني بالمغرب العربي. فبوابة كراكلا (Caracalla-Marcus) بسور تبسة التي لا نظير لها بالعالم، وسور تبسة بكامله وبقائه سليما لا مثيل له بالعالم، ومدينة تيمقاد، ومدينة جميلة، ومدينة شرشال، وتيبازة؛ كلها شواهد على تغلغل الوجود الروماني بالمغرب. لكن رغم ذلك كله فقد بقي هذا الوجود هامشيا سطحيا، لأن نفوس المغاربة لفظته ورفضته لغربته عنها ولغربتها عنه.

لكن ما أن جاء الإسلام ودخل العرب المغرب العربي مرة أخرى حتى استجاب البربر، ولم تكد تمر فترة تقل عن خمسين سنة حتى وجدنا المغاربة وقد صاروا جميعا مسلمين عربا، يتحدثون العربية ويكتبونها ويخطبون بها بفصاحة تندر حتى بين خطباء الجزيرة العربية وبلاد الشام والعراق، لماذا؟ قيل لأن رسالة الإسلام عادلة، ذات مستوى روحي محبب لنفوس الشعوب ذات التكوين القبلي.

وهذا سبب وجيه ومعقول، لكن جل المؤرخين يقرون أن أسبابا أخرى غير هذا السبب تكمن وراء الاستجابة السريعة للبربر للفتح الإسلامي - العربي. وهي تتمثل في التشابه الكبير بين حياة البربر والعرب وبين تراثهم الحضاري والثقافي والفني.. أي أن البربر عندما دخل العرب بلادهم تصوروهم غرباء

عنهم مثل الرومان، فتصدوا لهم بمقاومة شرسة، وما أن احتكوا بهم في القتال حتى اكتشفوا في العرب أصولهم، وهذا ما سنثبته عندما نورد قصة الكاهنة مع الجيوش العربية.

ومن غير شك فإن ما وصل العرب من شراسة حروب البربر ضد الرومان، جعل الخليفة عمر بن الخطاب يتوجس خيفة من غزو بلاد البربر، خشية مقاومتهم، فيفشل الفتح الإسلامي بالمغرب، مثلما فشل الوجود الروماني.. فقد أرسل عمر بن الخطاب برسالة إلى عمرو بن العاص والي مصر، عندما استأذنه هذا فتح بلاد المغرب، التي كانت تسمى في ذلك الوقت بإفريقية. ورد عمر عليه قائلا: «لا إنها ليست بإفريقية، ولكنها المفرقة، غادرة مغدور بها، لا يغزوها أحد ما بقيت»[1].

وفتحت بلاد المغرب في عهد عثمان بن عفان. ووجد العرب استجابة فورية وواسعة. ويقول الدكتور عبد العزيز سالم:

«ونجح عقبة بن نافع في كسب كثير من من سكان البلاد من قبائل لواتة، ونفوسة، ونفزاوة وهراوة، فدخلوا في الإسلام»[2].

وكان زعماء البربر يتتبعون أخبار العرب في الشام وفي مصر، ومن غير شك فقد كانت هناك صلات بين مصر والشام من جهة وبلاد المغرب من جهة أخرى، ومن غير شك أن يكون قد تم بعض الاتصال بين بعض زعماء البربر وعمرو بن العاص والي مصر. يقول الأستاذ عبد العزيز سالم: «وكانت قد بلغتهم الأخبار باستيلاء العرب على بلاد الشام ومصر، فتطلعوا إلى الخلاص من البيزنطيين على أيدي العرب»[3].

---

(1) فتح مصر والمغرب لابن عبد الحكم عبد الرحمن، ص 40.
(2) المغرب الكبير، عبد العزيز سالم، ص 152.
(3) المرجع السابق، ص 143.

قصة كسيلة:

يحاول أعداء الانتماء العربي للجزائر والمغرب من ذوي النزعة البربرية الهدامة، استغلال قصة كسيلة، الزعيم البربري الذي ارتد عن الإسلام وحارب العرب.. والحقيقة التاريخية حول كسيلة والظروف والملابسات التي أحاطت بارتداده، كان هؤلاء الهدامون وأساتذتهم منظرو الاستعمار يتجاهلونها..

وخلاصة هذه الحقيقة أن كسيلة أسلم، لكن الذي دفعه إلى الارتداد عن الإسلام ومحاربة العرب، هو خطأ أو أخطاء ارتكبها عقبة بن نافع ودفع ثمنها على يد كسيلة نفسه، وإلى القارئ الكريم ما أورده المؤرخون حول هذه القصة.

بفضل حنكة (أبو المهاجر دينار) وهو أحد القادة المسلمين العرب، استطاع استمالة كسيلة وزعماء البربر للإسلام، إلى أن وصلت الجيوش العربية الإسلامية إلى مدينة تلمسان بالغرب الجزائري.. لكن عندما جاء يزيد بن معاوية للحكم، عزل أبا المهاجر سنة 62 هـ، وأرسل عقبة بن نافع ليخلفه... واعتقل عقبة أبا المهاجر وكبله بالقيود وصادر أمواله.. وحيث أن كسيلة كانت تربطه صداقة بأبي المهاجر دينار، ومن المحتمل أن يكون استاء من عزل صديقه، وبأن ذلك قد بلغ إلى عقبة بن نافع، فحقد هذا عليه وتعمد الإساءة إليه وإهانته، ويذكر المؤرخان: المالكي، وابن عذارى القصة التالية: «إن عقبة أتى يوما بذود غنم للعسكر، فذبح الذود، فأمر عقبة كسيلة أن يسلخ مع السالخين، فقال له: أصلح الله الأمير، هؤلاء فتياني وغلماني يكفوني، فنهره عقبة، وقال له: قم.. فقام كسيلة مغضبا، فكان كلما دمس في الشاة مسح يده بلحيته مما علق بيده من بلل ذلك. وجعل العرب يمرون عليه وهو يسلخ، ويقولون له: ما هذا الذي تصنع؟ فيقول: هذا جيد للشعر. فمرّ به شيخ من العرب فقال: كلا، إنه ليتوعدكم. فقال أبو المهاجر لعقبة: أصلح الله الأمير، ما هذا الذي صنعت؟ كان رسول الله ﷺ يستألف جبابرة العرب كالأقرع بن حابس التميمي، وعتيبة بن حصن، وأنت

تجيء إلى رجل هو خيار قومه، في دار عزه، قريب عهد بالكفر، فتفسد قلبه. توثق من الرجل فإنّي أخاف فتكه. فتهاون به عقبة، فلما انصرف، نكث البربر ما كانوا عليه»[1].

أما الخطأ الثاني الذي ارتكبه عقبة بن نافع فهو أنه استفز قبيلة أوربة فغزاها استفزازا، دون أن ترتكب أمرا تستحق عليه هذا الغزو، ونصحه أبو المهاجر دينار أيضا قائلا: «إن قبيلة أوربة البرانسية أسلمت بإسلام كسيلة، وليس هناك ما يدعو إلى غزوها، فأبى عقبة أن ينتصح»[2].

ودفع عقبة بن نافع كسيلة والبربر إلى التمرد، ففر إلى جبال الأوراس وجمع الجموع وترصد لعقبة وهو عائد من المغرب الأقصى وقتله؛ كما أباد كل من كان معه. ثم دفع كسيلة العرب إلى طرابلس، وأخليت القيروان من الجنود. والمؤرخون يذكرون أن كسيلة لم يلحق أذى بالقيروان رغم استطاعته ذلك، ولم يمسها بسوء، وهذا دليل على أن كسيلة لم يكن يريد شطب الوجود العربي، وإنما أراد الانتقام من شخص عقبة فقط.

ويذكر المالكي: «أنه لم يبق في القيروان بعد رحيلهم إلا الشيوخ والنساء والأطفال، وكل مثقل بالأولاد. فأرسلوا إلى كسيلة يسألونه الأمان فأجابهم.. دخل القيروان سنة 64 هـ. وجلس في قصر الإمارة أميرا على البربر ومن بقي منهم من العرب»[3].

بل إن المؤرخ المصري حسين مؤنس، يوضح بجلاء قضية تمرد كسيلة وأسبابه.. ويكشف أن كسيلة وجد نفسه أمام جماهير بربرية مهمة، اعتنقت الإسلام وتفاعلت مع العرب، وترفض الانفصال عنهم والتخلص كليا من الوجود العربي بالمغرب، يقول الدكتور مؤنس:

(1) رياض النفوس للمالكي، ص 29، والبيان المغرب في أخبار المغرب لابن عذارى أبو عبد الله.
(2) المالكي: ص 24.
(3) رياض النفوس، للمالكي، ص 32.

«كان في إفريقية في ذلك الحين نفر عظيم لم يرضهم سقوط القيروان في يد كسيلة، فأثارهم ذلك، وثارت المنازعات بينهم وبين أنصاره. ومن يكون هؤلاء الذين ثاروا تلك الثورة إلا بربرا مسلمين»[1].

ويبدو أن كسيلة نفسه لم يكن متحمسا كثيرا إلى الاستمرار في مقاومة العرب، أو أن البربر المسلمين كانوا من القوة بحيث لم يسهلوا له مهمته في طرد العرب نهائيا من المغرب. وقضى كسيلة خمس سنوات كاملة يحكم القيروان. هل كان ينتظر أن يعهد إليه بولاية إفريقية فيعود للإسلام؟ أم أن المقاومة كانت شديدة ضده من طرف البربر المسلمين المستعربين؟ وعلى كل حال، فقد مرّت هذه السنوات الخمس محفوفة بغموض لم يجله المؤرخون. ثم عاد **زهير بن قيس** على رأس جيش من طرابلس ومصر. ويروي المالكي أن كسيلة عندما اقترب من جيش المسلمين من القيروان خرج من المدينة قائلا لأتباعه: «إني رأيت أن أرحل عن هذه المدينة، فإن بها قوما من المسلمين لهم علينا عهود، ونحن نخاف إن أخذنا القتال معهم أن يكونوا علينا»[2]. ثم قتل كسيلة على يد زهير بن قيس في معركة ممّس.

نستنتج مما سبق ما يلي:

1 - أن تمرد كسيلة وارتداده عن الإسلام ومحاربته للعرب جاء بسبب خطأين اثنين ارتكبهما عقبة بن نافع في حق كسيلة، ولو بقي أبو المهاجر دينار واليا على المغرب وقائدا على الجيوش الإسلامية لما تمرّد كسيلة.

2 - فشل كسيلة رغم سيطرته على إفريقيا والقيروان مدة خمس سنوات كاملة، فشل في تصفية الوجود العربي الإسلامي. وذلك إما لأنه لم يكن مقتنعا بما يفعل، وبأن هدفه كان شخصيا وهو الانتقام من عقبة بن نافع، وإما لأنه وجد

---

(1) فتح العرب للمغرب، للدكتور حسين مؤنس، ص 211.
(2) المالكي أبو بكر: رياض النفوس، ص 32.

أمامه جماهير غفيرة من البربر اعتنقت الإسلام واندمجت في العرب فعرقلت مساعيه لتصفية وجودهم.

3 - يتبين مما سبق أن قضية كسيلة التي يستغلها أعداء الانتماء العربي للجزائر، من ذوي النزعة البربرية الاستعمارية المقيتة، ترتكز على أسس واهية. لأن مقاومة كسيلة لم تأت انطلاقا من إيمانه ببربريته ضد غزو عربي كما يزعمون، وإنما جاءت كرد فعل شخصي عاطفي بل وغريزي. ولم يحدثنا التاريخ أن ردود الفعل العاطفية الغريزية تثمر في حركة نضال الشعوب.

4 - يستنتج مما سبق أيضا أن الوجود العربي الإسلامي تغلغل عميقا في نفوس البربر. ولو لم يكن كذلك لتمكن دعاة تصفية هذا الوجود من تأسيس قوة متراصة قادرة على التصدي نهائيا للجيوش الإسلامية. وأظن أن خمس سنوات من سيطرة كسيلة على المغرب العربي كانت كافية لذلك.

قصة الكاهنة:

ويحاول أيضا أنصار النزعة البربرية الاستعمارية تشويه قصة الكاهنة في التاريخ. لكنّ الحقائق التاريخية في هذه القصة نوردها للقراء الكرام مستمدة من الكتب العربية الإسلامية، أي من مصادرها الحقيقية، مع ملاحظة أن محرفي قصة الكاهنة المغرضين يعتمدون في تحريفهم على مؤرخي الاستعمار الفرنسي.

بقيت الكاهنة معتصمة بجبال أوراس النّمامشة على رأس قبيلتها (جراوة)، ونظرا لعدم احتكاكها بالعرب، وعدم اطلاعها على هوية رسالتهم، فقد تصورت أنهم يشبهون الرومان، جاءوا مستعمرين مستغلين؛ ولكن عندما حاربتهم واحتكت بهم اكتشفت ذاتها فيهم، وهي السيدة المعمرة الحكيمة. كما اكتشفت أصول قومها في هؤلاء القادمين، فقضت آخر حياتها غير متحمسة لحربهم، بل وأوصت ولديها بأن يعتنقا الإسلام، ويكفا عن محاربة العرب. ويروي البكري:

«أن الكاهنة عملت على القضاء على مظاهر العمران اعتقادا منها بأن العرب يسعون وراء العمران، حيث الذهب والفضة، فوجهت قومها إلى كل ناحية من بلاد إفريقيا يحرقون المزارع، ويهدمون الحصون، فبعد أن كانت إفريقيا ظلا واحدا من طرابلس إلى طنجة قرى متصلة ومدنا منتظمة، تلاشى هذا كله وشمل الخراب سائر هذه البلاد»[1].

ومما يدل على أن الكاهنة حاربت العرب بسبب جهلها بهم، قصتها مع **خالد بن يزيد العبسي**. فقد أسرته مع ثمانين من كبار المسلمين في معركة دارت بينها وبين الجيوش العربية في (مسكيانة) بالشرق الجزائري، وعندما حدثتهم وسألتهم عن دينهم وعن جنسيتهم اكتشفت فيهم أشياء أحدثت صراعات نفسية في أعماقها. وتأثرت بإعجابها بالعرب من خلال ما عرفته من هؤلاء الأسرى الثمانين؛ فأطلقت جميع الأسرى، واحتفظت بخالد بن يزيد العبسي، وقررت أن توكل له تربية ولديها، بل وقامت بتبني خالد بن يزيد وفقا لشعائر دينها. ولنستمع إلى ابن عذارى يروي لنا قصة هذا التبني:

«عمدت إلى دقيق الشعير فلثته بزيت، وجعلته على ثديها، ودعت ولديها، وقالت كلا معه على ثديي، ففعلا، فقالت: صرتم إخوة»[2].

ويجمع المؤرخون أنه ما كادت الكاهنة تعلم بوصول حسان بجيشه إلى إفريقيا، حتى رحلت من جبال أوراس، بعد أن أوصت خالد بن يزيد أن يصحب ولديها ويستأمن لهما عند **حسان بن النعمان**، فأمنهما. أما هي فقررت أن تقاتل حتى الموت. ويقول ابن خلدون: «وكان للكاهنة ابنان قد لحقا بحسان قبل الواقعة، أشارت عليهما بذلك أمهما، وهبا لإشارة علم كان لديها في ذلك من شيطانها، فتقبلهما حسان، وحسن إسلامهما واستقامت طاعتهما، وعقد لهما على قومهما»[3].

---

(1) المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب، للبكري أبو عبد الله، ص 35.

(2) ابن عذارى، البيان المغرب، ص 37، ج1.

(3) تاريخ ابن خلدون، ج7، ص 18، طبعة بيروت.

ويروى عن الكاهنة أنها قالت لولديها وهي تودعهما: «.. يا ولديّ أوصيكما بالعرب والإسلام خيرا، أما أنا فإنما الملكة من تعرف كيف تموت».

نستنتج مما سبق:

1 - أن الكاهنة حاربت العرب لأنها كانت تجهل عنهم أي شيء، وعندما احتكّت بهم من خلال نقاشها للأسرى العرب الذين وقعوا بين يديها، لم تكتشف فيهم فقط عدالة الرسالة التي حملوها، وإنما اكتشفت في لغتهم وعاداتهم وطريقة حياتهم تشابها كبيرا، بل وتطابقا مع لغتها وعاداتها وطريقة حياة قومها؛ فاهتزّ الإصرار على دحر العرب في نفسها. ولكن قررت -وهي التي عاهدت قومها على القتال- أن تقاتل حتى الموت رغم عدم إيمانها بما تفعل. أو بتعبير أدق رغم اهتزاز إصرارها على محاربة العرب.

2 - تدل قصتها مع خالد بن يزيد العبسي، ومع ولديها، على ما أوردناه في الفقرة السابقة، لأنه ليس من المعقول أبدا أن يقدم قائد عسكري مثل الكاهنة على تسليم فلذات كبده إلى عدوه يربيهم على دينه، وعلى لغته، وعلى ثقافته. أما عن تخريج بعض المؤرخين الأروبيين لقصة خالد بن يزيد العبسي، على أن الكاهنة وقعت في حبه، فهو أمر لا يرتكز على أساس تاريخي، وهو غير معقول أبدا، لأن فارق السن كبير، فالكاهنة كانت آنذاك في سن 127 سنة، وخالد شاب صغير، ثم إن قصة التبني وعجينة الشعير تفند هذا الادعاء.

3 - لقد أورد المؤرخون قصة عن الكاهنة احتاروا في أمرها، فعندما هزمت حسان بن النعمان في موقعة مسكيانة سنة 75 هـ، ودحرت جيوشه إلى طرابلس، دخلت مدينة القيروان عاصمة المسلمين بالمغرب في ذلك الوقت، وتجولت في شوارعها ثم غادرتها، دون أن تتعرض لا للمدينة ولا لأهلها بسوء، وهو أمر غريب ومحير. **هل بدأت تدرك الكاهنة مدى قربها وقرب قومها من الجنس العربي؟ هل بدأت تقتنع بعدالة الرسالة التي حملوها مع سيوفهم؟ وخاصة**

وهي المرأة المحنكة -مثلما أورد ابن خلدون- «عاشت 127 سنة، وملكت 35 سنة»، فأتاحت لها هذه التجربة الوايعة في الحياة والملك، أن تكتشف بفراستها أصول قومها في العرب، وأصول لغتهم في اللغة العربية، وأصول طريقة حياتهم في طريقة حياة العرب، فأمرت ولديها في حياتها بأن يكفا عن حرب العرب، وأن يعتنقا الدين الذي جاءوا به، وأن يكتسبا الثقافة التي أحضروها معهم.

يتبين مما سبق أن قصتي كسيلة والكاهنة قد حرفتا من طرف المؤرخين الفرنسيين: منظري الاستعمار، وفلاسفته، وفلاسفة "فرنسة الجزائر"، وأن تلاميذ الآباء البيض، مبشري الاستعمار ورواده، وطلائعه، من الجزائريين والمغاربة، لايزال لهم وجود بالجزائر والمغرب العربي حتى الآن، وقد فضحتهم مناقشات ميثاق 1976، ودفعتهم إلى أن يكشفوا عن هويتهم، ويعلنوا عن أفكارهم السامة الموروثة من الآباء البيض مبشري الاستعمار. وقد تصدت لهم في بلاد القبائل نفسها، الجماهير، والمثقفون الذين كانوا في حصن الحركة الوطنية القوي الذي حال دون تأثير أفكار مبشري الاستعمار الفرنسي عليهم، وجعلهم في مأمن. وهبت لهم أصوات من جبال الأوراس، ومن الطوارق، ومن الونشريس، وفي وادي ميزاب ترد عليهم وتسفّه أفكارهم المسمومة.

قبل دخول الفرنسيين الجزائر في 1830، لم يكن بالمغرب العربي شخص واحد يقول بأن البربر غير العرب، أو بأنهم جنس من أصل أروبي. وفكرة "النزعة البربرية" فكرة دخلت مع الاستعمار الفرنسي، حمل لواءها فلاسفته والمبشرون بأفكاره.

فقد كان النسابة البربر يوصلون القبائل البربرية بأصول عربية، سواء بالجزيرة العربية وخاصة بجنوبها، أو ببلاد الشام. ويروي ابن خلدون «أن نسابة زناتة ينسبون أنفسهم إلى حمير، وإلى العمالقة»[1].

---

(1) تاريخ ابن خلدون، ج 7، ص 6.

كما أورد ما يلي:

«وقال هاني بن بكور الضريبي، وسابق بن سليمان المطماطي، وكهلان بن أبي لؤي، وأيوب بن أبي يزيد، وغيرهم من نسابة البربر، أن البربر فرقتان كما قدمنا، وهما: البرانس والبتر، فالبتر من ولد بر بن قيس بن عيلان؛ والبرانس بنو برنس بن سفجو بن أبرج بن جناح بن واليل بن شراط بن تام بن دويم بن دام بن مازيغ بن كنعان بن حام. وهذا هو الذي يعتمده نسابة البربر»[1].

ويورد ابن خلدون في تاريخه شعرا في هذا المعنى، أنشده شعراء يمجدون فيه نسب البربر العربي، مثل قول الشاعرة تماضر:

فاقسم أنّا والبرابرُ إخوة ... نماما وهم جدّ كريم المناصب
أبونا أبوهُمْ قيسُ عيلانَ في الذّرى ... وفي حرسه يسقي غليل المحارب[2]

كما يورد ابن خلدون شعرا لقيس بن خالد (البربري) يفتخر فيه بأصله العربي:

أيها السائلُ عنّا أصلنا ... قيسُ عيلانَ بنو العزِّ الأُولْ
نحنُ ما نحنُ بنو برّ القوي ... عرف المجدَ وفي المجدِ دخل
وابتنى المجدَ فأورى زندَه ... جدّنا الأكبرُ فكاكُ الكُبَلْ
إن قيسًا قيسَ عيلانَ همُ ... معدن الحقّ على الخير دَلَلْ
حسبُك البربرُ قومي إنّهم ... ملكوا الأرضَ بأطرافِ الأسلْ
وببيضٍ تضربُ الهامَ بها ... هامَ من كانَ عن الحقّ نكلْ[3]

ويذكر ابن خلدون كيف كان يتفق نسابة العرب مع نسابة البربر على الأصل العربي للبربر؛ وابن خلدون كعادته يناقش هذه النسبة ويختلف مع النسابة حول عروبة كل قبائل البربر. لكنه يعترف بعروبة أكبر قبيلتين بربريتين وهما صنهاجة

(1) تاريخ ابن خلدون، ص 186، ج6، طبعة بيروت.
(2) المرجع السابق، ص 187.
(3) المرجع السابق، ص 187. الأسل: الرماح.

وكتامة. كما يقر وهو المؤرخ الفذّ، بأنهما قدمتا من اليمن في هجرات سابقة للفتح الإسلامي بل وقبل الميلاد، يقول:

«ولا خلاف بين نسابة العرب أن شعوب البربر الذين قدمنا ذكرهم، كلهم من البربر إلا صنهاجة وكتامة، فإن بين نسابة العرب خلافا، والمشهور أنهم من اليمنية، وأن إفريقس لما غزا إفريقية أنزلهم بها.. وعندي أنهم من إخوانهم (أي من العرب) والله أعلم»[1].

وإفريقس هذا الذي يورده ابن خلدون، والذي ورد ذكره في هذه الدراسة هو «إفريقس بن قيس بن صيفي، أحد ملوك اليمن»[2].

ويورد ابن خلدون في تاريخه أيضا ما يلي:

«ويروي ابن أبي دينار عن المقريزي أن إفريقس بن أبرهة ذي القرنين، غزا المغرب ثم ابتنى هناك مدينة سماها إفريقية»[3].

وقد رأينا أن نسرد في هذه الدراسة، النصوص التي أوردها ابن خلدون في تاريخه عن نسب البربر العربي، وهذه النصوص كالتالي:

«قال آخرون: البربر يمنيون، وقالوا أوزاع من اليمن»[4].

«وقال المسعودي: البربر من غسان وغيرهم، تفرقوا إثر سيل العرم.. وقيل من لخم وجذام كانت منازلهم بفلسطين، وأخرجهم منها بعض ملوك فارس، فلما وصلوا إلى مصر منعتهم ملوك مصر النزول، فعبروا النيل وانتشروا بالبلاد»[5].

«وقال أبو عمر بن عبد البر: ادعت طوائف من البربر أنهم من ولد النعمان بن حمير بن سبأ. قال: ورأيت في كتاب الإسفندار الحكيم: أن النعمان بن حمير بن سبأ كان ملك زمانه في الفترة، وأنه استدعى أبناءه وقال لهم: أريد أن أبعث منكم

---

(1) نفس المرجع السابق، ص 192.

(2) دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية، ج2، ص 338.

(3) تاريخ ابن خلدون، ج6، ص 338.

(4) تاريخ ابن خلدون، ج6، ص 182.

(5) المرجع السابق، ص 183.

للمغرب من يميزه، وأنه بعث منهم لمت أبا لمتونة، مسفو أبا مسوفة، ومرطا أبا مسكورة، وأصناك أبا صنهاجة، ولمط أبا لمطة، وأيلان أبا هيلانه، فنزل بعضهم بجبل دون، وبعضهم بالسوس، وبعضهم بدرعة..» إلخ[1].

«وغزا إفريقيش المغرب ونقلهم من سواحل الشام وأسكنهم إفريقية وسماهم بربر. والبربر قبائل شتى من حمير ومضر والقبط والعمالقة وكنعان وقرسين، وتلاقوا بالشام ولغطوا فسماهم "البربر" لكثرة الكلام.. ويقال إن إفريقيش استجاشهم لفتح إفريقية وسماهم البربر. وينشدون من شعره:

تبربرتْ كنعانُ لما سُقْتها   من أراضي الضَّنك للعيشِ الخصيبْ»[2]

ويلاحظ أن هذا البيت يذكر سبب هذه الهجرات، وهو الجفاف، ويتفق مع علماء التاريخ المحدثين.

ويروي السلاوي في كتابه الاستقصاء قصة قيس بن عيلان بن مضر بن نزار وزواجه من تمريغ بنت يجدول بن عمار بن محمود، وكان من أولاده منها برّ.

ويقول الأستاذ عبد الرحمن باغي في كتابه "حياة القيروان":

«فليس مما يناقض الحق أن يكون البربر جيلا من الحاميين، قديما استوطن المغرب مدة طويلة من الزمن القديم، ثم تلاحقت به بقية من كنعان من الشام، واختلطوا بهم وامتزجوا فيهم، شأن السومريين، حين نزح لهم الساميون وكوّنوا البابليين»[3].

وأنا أزيد على رأي الأستاذ عبد الرحمن هذا القيّم فأقول: فليس مما يناقض الصواب أبدا أن يكون البربر جيلا من الساميين – الحاميين لأن جلّ المؤرخين حديثا توصلوا إلى نتيجة وهي عدم وجود سلالتين منفصلتين بعضها عن البعض الآخر، وإنما هم سلالة واحدة، كان مهدها الأول شرق إفريقيا واليمن في

---

(1) المرجع السابق، ص 183.
(2) المرجع السابق، ص 183.
(3) حياة القيروان، لعبد الرحمن باغي، ص 19.

العصور القديمة، ثم جاءت هجرات متتالية من السبئيين والحميريين والغساسنة، والكنعانيين والعمالقة من اليمن وبلاد الشام. وكونوا التجمع السكاني الذي سمّي فيما بعد بالبربر. بل إن تسمية الساميين كما بيّنا لا أساس لها علميا وتاريخيا، وأن كثيرا من علماء التاريخ يستبدلونها بالتسمية العربية.

ويورد الأستاذ عبد الرحمن باغي في كتابه حياة القيروان خلاصة آراء عدة مؤرخين يوثق في رواياتهم ونقلهم، يوردها كما يلي:

«ويذكر صاحب الاستقصاء قول ابن خلدون ويطمئن إليه، وهو أن علماء النسب متفقون على أن البربر يجمعهم جنسان عظيمان هما برنس ومارتميس الذي يلقب بالأبتر، فلذلك يقال لشعوبه البتر، ويقال لشعوب برنس البرانس. وبين النسابين خلاف هل هما لأب واحد أم لا، فعند ابن حزم أنهما لأب واحد، والجميع من نسل كنعان بن حام، وعند سابق بن سليمان المطماطي وغيره من نسابة البربر أن البرانس فقط من نسل كنعان، وأما البتر فهم بنو بتر بن قيس بن عيلان بن مضر، ثم يرجح السلاوي أن الشعبين معا عريقان في البربرية، وأن الجميع من ولد مازيغ، ومازيغ من ولد كنعان بن حام»[1].

وكلمة أمازيغ نفسها عربية، فالأمازر من الرجال: الأقوياء أشداء القلوب.

تسمية البربر:

لا يوجد لكلمة "البربر" أصل عرقي (إتني)، فالبربر اشتهروا في التاريخ بالبتر، وبالبرانس أحيانا أخرى، أكثر من اشتهارهم بتسمية البربر. سمُّوا بالعهد القرطاجني وعهد ماسينيسا ويوغرطا بالجدالة: سكان الصحراء؛ وبالمزالة: سكان الهضاب؛ وسموا بالنوميديين من طرف اليونان. فقد قال أبوليوس الكاتب المداوروشي المشهور الذي عاش بالقرن الأول الميلادي: «إن أبي نوميدي وأمي جدالية».

(1) المرجع السابق، ص 19.

ويرى الأستاذ عبد الرحمن باغي، الذي يغلب أن كلمة بربر مشتقة من الكلمة اللاتينية (Barbarus)، وهو الاصطلاح الذي أطلقه الرومان ومن قبلهم اليونان، على الشعوب التي تقل عنهم حضارة.

وقد سبق أن أوردنا نص المؤرخ الطبري الذي يرى أن أول من أطلق هذا الاسم على سكان المغرب هو إفريقيش إذ قال لهم -وهم في بلاد الشام- «ما أكثر بربرتكم، فسموا لذلك بربرا»[1].

ويستدل من جميع آراء المؤرخين عربا وأروبيين نزهاء، أن كلمة "بربر" لا تعتبر تسمية ذات أصالة تتضمن تحديدا عرقيا (إتنيا)، والغالب أنها أخذت من الاصطلاح الروماني الذي كان يطلق كما سبق أن بيّنا على جميع الشعوب المتخلفة، بمستعمراتهم، سواء بالشرق الأدنى أو بشمال إفريقيا أو أوروبا. والغريب أن الذي أوجد الفرق في الكتابة بين التسمية الرومانية هذه، وتسمية البربر هم بعض المؤرخين الأوروبيين، فاستبدلوا حرف (A) في كلمة (Barbare)، بحرف (E) في كلمة (Berbere) وهو استبدال مفتعل كما هو واضح، وضع لتكريس انفصال البربر عن العرب بالمغرب العربي. ولو كانت هذه التسمية أصيلة لها مضامين عرقية (إثنية)، لاحتفظ بها البربر حتى بعد استقرار الإسلام بالمغرب، مثلما بقيت كلمة "الفرس" و"الأفغان" و"الترك" و"الهنود"، وغيرهم من الأجناس الإسلامية التي لازالت مسلمة، لكنها احتفظت بمميزاتها العرقية اللغوية حتى الآن.

ومما يؤكد عدم أصالة تسمية (البربر) عرقيا تسميات فئات البربر المتعددة السائدة حاليا، من صحراء مصر الغربية، وحتى المحيط الأطلسي. ولو سألت أي مواطن من هذه الفئات التي تتجاوز عشر فئات «هل أنت بربري» لما فهم ما تقول، لأن تسميات هذه الفئات اتخذت صفات جغرافية أحيانا، ومهنية أحيانا أخرى، وهي أبعد ما تكون جميعها عن المضامين العرقية.

(1) تاريخ الطبري أبو جعفر، ج1، ص 442.

ولنستعرض معا هذه التسميات مبتدئين من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب في الامتداد الجغرافي المتواجدة على صعيده الفئات البربرية.

- **بدو سيوة**: بالصحراء الغربية بمصر، وهم ينسبون جغرافيا إلى منطقة تسمى سيوة.

- **الزوارة**: بغرب ليبيا، وهم ينسبون إلى منطقة زوارة، بل إن معنى هذه التسمية عربي من (التزاور).

- **الشاوية**: تطلق على سكان الشرق الجزائري، نسبة إلى الشاة. وهي عشائر وقبائل تربي الشاة. وفي بادية الشام -الصحراء المشتركة بين سورية والعراق- مناطق يسمى سكانها (شواية).. وهم يربون الشاة أيضا.

- **الطوارق**: وهم في جبال الهوغار وبأقصى جنوب الجزائر. وهي تسمية عربية من طرق باب الصحراء المرعب يطرقه، فهو طارق وهم طوارق أو طراق.

- **الميزابية**: وهم في منطقة غرداية بالجنوب الجزائري، وأخذت هذه التسمية من وادي ميزاب الذي يقيمون فيه.

- **القبايل**: وهي تسمية عربية. جمع قبيلة، وتنطق وتكتب الهمزة ياء، وهذا عربيا أيضا يسمى "التسهيل"، مثل نطق عزرائيل عزراييل وجبرائيل جبراييل.

- **الروايف**: فئة بشمال المغرب الأقصى وهم يسكنون "منطقة الريف" المشهورة.

- ... إلخ.

فهذه التسميات جميعها لم توجد -صدفة- جغرافية أو مهنية، خالية من أية مضامين عرقية، وإنما لها أصل في الواقع والتاريخ، ولو كان البربر أصلا عرقيا وإتنيا، ولو كان البربر غير العرب وغير (الساميين) لاحتفظوا بتسميتهم، واستوعبوها، وغرسوها في نفوس أبنائهم. مثلما حدث ببلاد فارس وتركيا مثلا. رغم أن هذين البلدين تقع حدودهما على حدود بلاد الشام والعراق، وهما أقرب

جغرافيا لشبه الجزيرة العربية من المغرب. والآن وفي أقطار الشمال الإفريقي، لا يعرف معنى كلمة (بربر) ومدلولها إلا من تعلم وقرأها في الكتب. وهذا له دلالته. فالبربرية، والنزعة البربرية من خلق غرباء عما يسمى بالبربر، دخلاء عليهم، هدفهم ليس خدمة التاريخ، لأن التاريخ ينكر وجود البربر خارج إطار الأمة العربية، وإنما هدفهم تمزيق الشعب الجزائري وشعوب المغرب العربي، وفصلها عن المشرق والأمة العربية التي تنتمي إليها هذه الشعوب. ومما يؤكد ذلك أن النزعة البربرية، والانفصالية البربرية، جاءت مع الاحتلال الفرنسي؛ وأن أدبياتها الهزيلة لا توجد إلا بالفرنسية، وأن دعاتها من الجزائريين والمغاربة هم مجرد تلامذة أساتذة الاستعمار الفرنسي ومنظريه، بمباركة الحركة الصهيونية العالمية، والإمبريالية الدولية طبعا. وأن إيديولوجيتها (إن قلنا ذلك تجاوزا) هي «الأكاديمية البربرية» بفرنسا، التي تسيرها عناصر كان بعضهم أعضاء في منظمة الجيش الفرنسي الاستعمارية الإرهابية (OAS).

التشابه بين حياة البربر والعرب:

لم يوجد مؤرخ أوجز التشابه بين البربر والعرب في حياتهم مثل ابن خلدون. فبيوتهم (أي البربر) إما من الطين أو من القصب أو من الشجر والشعر والوبر، وينتقلون في البراري طلبا للرعي.. ويربون الشاة والبقرة. أما الخيل فيربونها للركوب والتناسل، كما يربي الرحل منهم الإبل. الضعاف منهم وهي الطبقات الدنيا فيهم يفلحون ويربون الدواجن. أما الأقوياء والطبقات العليا فيعيشون على الرعي وعلى السطو وقطع الطرق، أما فرشهم وأثاثهم فمن الصوف.. هذه الحياة التي يرسمها لنا ابن خلدون هي نفسها حياة العرب. ولقد تنقلت بين قبائل عربية عدة بالمشرق كقبائل شمر والحديديين والموالي والهيب، وعنيزة، وغيرها، ووجدت أن حياة هذه القبائل هي نفسها حياة قبيلتي بالجزائر وهي قبيلة النمامشة ذات الأصل البربري، وهاكم نص ابن خلدون:

«يتخذون البيوت من الحجارة والطين، ومن الخَوصْ والشجر، ومن الأشعار والوبَرْ. ويظعن آل العز منهم والغلبة لانتجاع المراعي فيما قرب منالرحلة ولا يجاوزون فيها الريف إلى الصحراء والقفر الأملس، ومكاسبهم الشاء والبقر، والخيل في الغالب للركوب والنتاج، وربما كانت الإبل من مكاسب أهل النجعة منهم، شأن العرب؛ ومعاش المستضعفين منهم بالفلح ودواجن السائمة، ومعاش المعتزين من أهل الانتجاع والأضعان في نتاج الإبل وظلال الرماح، وقطع السابلة، ولباسهم أكثر أثاثهم من الصوف».

وإذا انتقلنا من ابن خلدون والمؤرخين العرب والمسلمين إلى المؤرخين الأوروبين النزهاء، وجدنا أن محرري مادة (بربر) في موسوعة "يونيفيرساليس Universalis" يقرون هذا التشابه بين مجتمع البربر ومجتمع ومجتمع العرب. وهي إحدى دوائر المعارف الأوروبية التي أنصفت الحقيقة في هذا المجال، كما سبق أن بيّنا. وإليكم النص منقولا عن الفرنسية.

«كان -ولمدة زمنية طويلة- من الأناقة معارضة العادات البربرية مع العربية بالمغرب وإبراز التناقض بينهما. بينما حقيقة التشابه بين الطرفين، تبدو أكثر وضوحا وأهمية: فالتنظيمات الاجتماعية المرتكزة على علاقات الدم، حقيقة كانت أووهما، وممارسة أعمال جماعية جبرية، واستعمال مخازن للحبوب مشتركة، توجد عمليا عند البربر كما توجد عند العرب. حتى ما يقال عنه من تقديس الأضرحة الذي يزعم أنها محصورة لدى البربر. نجدها عامة في جميع البلدان الإسلامية»[1].

لقد استعمل محررو هذه المادة في الموسوعة المذكورة عبارة "من الأناقة" وأنا أرى أن ذلك كان يتم بتوجيه مقصود من طرف الدوائر الاستعمارية، وخاصة قبل استقلال الجزائر كما بيّنا سابقا.

---

(1) Encyclopeadia universalis مجلد 3، ص 171.

الأصول العربية للبربرية:

من الغريب أن الباحثين الفرنسيين منظري الاستعمار، بذلوا جهودا مضنية لمحاولة اكتشاف علاقة ما -ولو كانت ضئيلة- بين اللغة البربرية من جهة وبين اللغات الأوروبية القديمة من جهة أخرى، لكن جهودهم باءت جميعها بالفشل الذريع. قارنوا البربرية بلغة الباسك، ولغة البرتون، وغيرها من اللغات الأروبية القديمة، فلم يجدوا بينهما أي تشابه يذكر. ولكن التشابه الوحيد الذي وجد هو بين اللغات الجونشية (وهي لغات السكان الأصليين لجزر الكناري)، وبين البربرية. وهذه الجزر هي امتداد طبيعي جغرافي وبشري لشواطئ الوطن العربي الغربية... وبعيدة كل البعد جغرافيا وبشريا عن شواطئ أوروبا. والمؤكد أن سكان الكناري هم جزء من سكان المغرب العربي. وهذا هو الذي يفسّر التشابه بين اللغة الكنارية القديمة وبين اللغة البربرية.

يقر الأستاذ العلامة "لانغر W. Langer" بأن اللغة العربية واللغة البربرية واللغات السامية تنحدر جميعا من أصل واحد، يقول:

«وتتصل اللغة المصرية القديمة باللغات السامية ولغات البربر بأصل واحد»[1].

ويقدر "باسيه A.Basset" الباحث اللغوي الفرنسي «بأن عدد اللهجات البربرية خمسة آلاف لهجة»[2].

ويقر محررو مادة بربر في موسوعة "يونيفيرساليس Universalis" «بأن جميع اللهجات البربرية مطبوعة بطابع اللغة العربية»[3].

ومحررو الموسوعة المذكورة يرون أن اللغة البربرية ذات أصل حامي - سامي فيقولون:

---

(1) موسوعة العالم، وليم لانغر، ج1، ص 45.

(2) موسوعة يونيفيرساليس، مجلد 3، ص 172.

(3) المرجع السابق، ص 171.

«أكثر طريق مؤكد إلى الحقيقة هو نسبة اللغة البربرية إلى أصول حامية - سامية التي تجمع في بوتقة واحدة البربرية، والمصرية القديمة، والكوشية والسامية»[1].

وتورد الموسوعة المذكورة:

«بأن روسلر المستشرق الألماني يذهب إلى الحد الذي يدخل فيه البربرية في اللغة السامية التي تعتبر العربية فرعا منها: «ونلاحظ في البربرية كما نلاحظ باللغات السامية وجود الحروف الحلقية والعبارات الجزلة»[2].

كما يقر محررو الموسوعة المذكورة - في معرض حديثهم عن آداب اللغات البربرية- «**بأن آداب البربرية الهزيلة الشفوية البحتة تتكون من أساطير عن الحيوانات، وقصص خرافية، وأغان تقليدية، أو مرتجلة، والواضح فيها كلها أنها مستمدة من المشرق العربي**»[3].

ومن المؤرخين اللغويين من يرد البربرية إلى أصول فينيقية مثل غوستاف لوبون الذي يقول:

«**إن لغة البربر العريقة في القدم، يحتمل أن تكون مشتقة من الفينيقية**»[4].

ومن الغريب أنه إذا حللنا الأبجدية التي يستعملها الطوارق اكتشفنا الوجاهة في رأي لوبون هذا.. فالرأي السائد لدى الكثير من الباحثين أن الأبجدية التي يسميها الطوارق (التيفيناغ)، استعاروها من الأبجدية الفينيقية، ثم طرأ عليها مع الزمن الكثير من التبديل. ولقد قمت بتحليل -ساعدني عليه الأستاذ ربحي كمال، أستاذ اللغات القديمة في كلية آداب جامعة دمشق- فتوصلت إلى وجود تطابق بين كثير من حروف أبجدية الطارقية (التيفيناغ) من جهة، وبين حروف العديد من اللغات السامية من جهة ثانية، وإلى القراء الكرام هذه النتائج:

---

(1) المرجع السابق، ص 172.

(2) المرجع السابق، ج 17، ص 172 - 173.

(3) المرجع السابق، ص 170.

(4) حضارة العرب: غوستاف لوبون. ترجمة عادل زعيتر - الطبعة الثانية. ص 301.

- الألف بالتيفيناغ، مثل الألف بالخط السرياني واليعقوبي والعربي والحميري (الخط العربي باليمن القديم).
- الجيم بالتيفيناغ يشبه حرف الجيم في الخط الفينيقي والآرامي.
- الدال بالتيفيناغ، يشبه الدال بالعربية.
- الزاي بالتيفيناغ، يشبه الخط المسند الحميري والآرامي.
- الياء بالتيفيناغ يشبه الفينيقي والآرامي والأنباري.
- النون بالتيفيناغ يشبه النبطي والسرياني والصفوي واللحياني (وكلها لغات سامية قديمة).
- السين بالتيفيناغ يشبه الفينيقي.
- القاف بالتيفيناغ يشبه الآرامي القديم والفينيقي والنبطي والسرياني والثمودي واللحياني (وكلها لغات سامية قديمة).
- الشين بالتيفيناغ يشبه المصري القديم والفينيقي والحميري والآرامي القديم والصفوي والثمودي واللحياني والحميري والحبشي والعربي والكنعاني والعبري.
- التاء بالتيفيناغ يشبه الفينيقي والحميري والآرامي القديم والصفوي والثمودي واللحياني.
- الطاء بالتيفيناغ يشبه الصفوي والثمودي.

حروف التيفيناغ: الحروف البربرية المستعملة لدى الطوارق(*)

الحرف العربي	الحرف البربري	التفسيـــــر
أ	I	يشبه السرياني واليعقوبي والحميري
ب	B	يشبه اليوناني القديم
ج	Λ	يشبه الفارسي القديم والفينيقي والآرامي
د	⊃	يشبه العربي إلى حد ما
ز	I	يشبه المسند الحميري والآرامي واليوناني القديم إلى حد ما
ي	Z	يشبه الفينيقي والآرامي واليوناني القديم والأنباري والكندي والنبطي
ك	|̅|	يشبه النبطي إلى حد ما
ل	| |	يشبه الحميري أو الأنباري
م	⊓	يشبه المسند الحميري
ن	و	يشبه النبطي والسرياني والصفوي واللحياني
س	3	يشبه اليوناني القديم والفينيقي
ق	و	يشبه الآرامي القديم والفينيقي والنبطي والسرياني والثمودي واللحياني
ش	*w*	يشبه المصري القديم والفينيقي والحميري والآرامي القديم والصفوي والثمودي واللحياني والحبشي والكنعاني
ت	×	يشبه الفينيقي والحميري والآرامي القديم والصفوي والثمودي واللحياني.
ط	H	يشبه الصفوي والثمودي.

(*) أعد هذا الجدول الدكتور ربحي كمال، أستاذ اللغات القديمة في جامعة دمشق، وذلك عام 1976، ويلاحظ أن بعض عشائر الطوارق تستعمل هذه الحروف بطرق مغايرة

إذن فأكثر من نصف حروف أبجدية "التيفيناغ" التي يستعملها الطوارق متطابقة مع حروف أبجديات اللغات السامية القديمة. وكما يلاحظ القارئ فإن هذا التطابق جاء في معظم الحالات مع عدة لغات سامية قديمة.

ومما يؤكد الرأي القائل بأن أبجدية (التيفيناغ) مستمدة من الأبجدية الفينيقية ما يراه العلامة الدكتور رشيد الناضوري أستاذ التاريخ القديم في جامعة الاسكندرية. فهو يقول في كتابه (المغرب الكبير) ما يلي:

«فقد بدأ البربر في تسجيل لهجاتهم في القرن الثاني قبل الميلاد، متأثرين باللغة البونية الفينيقية الأصل، والتي نجح الفينيقيون في التوصل إلى اختراع خطها لأول مرة في حياة الإنسانية بصورة هجائية»[1].

يلاحظ أن الكنعانيين الذين هاجروا إلى المغرب العربي سبقوا الفينيقيين في اكتشاف الكتابة.

بل إن الأستاذ (بات Oric Bates) الباحث اللغوي الانكليزي.. يفرد فصلا كاملا في كتابه عن التشابه بين حروف (التيفيناغ) -أبجدية الطرقية- وبين الأبجدية الفينيقية ويتوصل إلى أن أصل أبجدية الطوارق فينيقي، كما يدخل الأبجديتين في إطار واحد، وهو إطار (الحرف المسماري)، الذي تنحدر منه الأبجدية العربية والكتابة السامية القديمة[2].

وهذا المستشرق الألماني المشهور (روسلر O. Rossler) يثبت في أبحاثه بما لا يترك أي مجال للشك: «أن اللغة النوميدية لغة سامية، انفصلت عن اللغة السامية في الشرق في مرحلة مغرقة في القدم، ثم تطورت بعد ذلك في اتجاه خاص جعلها تبدو مختلفة عن باقي اللغة السامية». كما استطاع روسلر أيعتبر كثيرا من الجوانب الصوتية والصرفية والمعجمية في اللغة النوميدية القديمة، تغييرات حدثت بعد انفصالها عن الأصل القديم المشترك. وقد أوضح روسلر اشتقاق كثير من الكلمات النوميدية على أساس المقارنة باللغات السامية في المشرق»[3].

---

(1) المغرب الكبير، ج1، ص 225.

(2) Oric Bates: The easten libyans. London. First edition 1914 - New edition 1970.

(3) Dallet: Dictionnaire de la langue Kabyle, Paris 1982.

السمات المشتركة بين البربرية والعربية:

سبق أن عرضنا آراء اللغويين بما فيهم بعض الأروبيين، الذين رأوا أن جميع اللهجات البربرية، مطبوعة بالطابع العربي.

والحقيقة أن هذا الطابع العربي لم يشمل فقط المفردات اللغوية، وإنما شمل التركيب اللغوي، والقواعد النحوية والصرفية أيضا والاشتقاقية. وأعرض للقراء الكرام بعض ما توصلت إليه -بقليل من الجهد- من التشابه بين اللغتين البربرية والعربية.

تاء التأنيث:

تمتاز العربية من بين جميع لغات العالم -بتاء التأنيث تمييزا للمؤنث عن المذكر- لكن البربرية تستعمل الثاء بدل التاء، وهما حرفان لا متقاربان فقط وإنما ينوب كل واحد عن الآخر في كثير من اللهجات نفسها، مثال:

أمغار: العجوز - **أمغارث**: العجوزة.

كما أن البربرية تشترك مع العربية في جمع المؤنث السالم أيضا. مثال: الخلاث: النساء.

استعمال النون للربط:

تمتاز العربية باستعمال النون للربط بين وحدتين صرفيتين مثل نون الوقاية وتستعمل بالبربرية أيضا النون للربط مثل:

- **القش نتمطوث**: ملابس المرأة.
- **القش نوركاز**: ملابس الرجال.

الضمائر المتصلة:

تشترك البربرية مع العربية أيضا في الضمائر المتصلة أيضا. مثال:

- **الخلاث اطّسَنْ**: النساء نمن.
- **نَتْش اطّسغْ**: أنا نمت.

- **نتاثْ هطَّسْ**: هي نامت.

ومن الغريب أن البربرية تشترك مع العربية في عدم ذكر ضمير متصل مؤنث للفعل الماضي، وإنما تكتفي مثل العربية بعلامة التأنيث وهذه العلامة هي الهاء في أول الفعل. والهاء كالتاء أو من أسرة واحدة لها تستعمل للمؤنث.

المشتقات التي تبدأ بالميم:

ومن بين العناصر التي تشترك فيها البربرية مع العربية بعض المشتقات التي تبدأ بالميم مثل اسم المكان مثلا، مثال:

- **تامر دومث**: المكان الذي يعد فيه الفحم الخشبي.

والتاء هنا لتعريف المؤنث. وقد أشار إلى الكثير من هذه الصفات المشتركة في البنية اللغوية بين البربرية والعربية، العالم اللغوي الأمريكي (**غرينبرغ** Greenberg) في كتابه "لغات إفريقية"[1].

حروف أنيت وهمزة الوصل:

مما يؤكد أصالة اللغة البربرية في جذورها العربية اشتراكها مع العربية في استعمال حروف أنيت المعروفة بالعربية، وهمزة الوصل.

- **اخسا أيطس**: يريد أن ينام (الياء في أول الفعل).
- **يا اللّه انّطّس**: هيا ننام (النون بأول الفعل).
- **اخسا اتطس**: تريد أن تنام (التاء بأول الفعل).
- **اخسا أضطسغ**: أريد أن أنام (الهمزة بأول الفعل).

يلاحظ إضافة همزة الوصل بالبربرية حتى بالفعل. ويلاحظ أن البربرية مثل العربية يبدأ فيها فعل الأمر المسكن الحرف الأول الأصلي عنه بهمزة. مثال بالبربرية:

(1) J.H. Greenberg: Languages of Africa (Indiana university 1966), pp 42, 46, 48, 65.

- إكّر: قم - اطّس: نم بالعربية، أسو: إشرب، أما فعل الأمر المتحرك للحرف الأصلي فلا يبدأ بهمزة مثل: قيم: قم - روح: اذهب... إلخ.

المفردات اللغوية:

يكاد الباحث إذا تعمّق في التقصي يجد لكل كلمة بربرية أصلها في العربية. ومن الغريب أن هذه الأصالة العربية في المفردات البربرية، ليست متأتية فقط على أساس النقل، نتيجة للاحتكاك مع العربية، مثل ما هو بالفارسية أو التركية أو الأردية مثلا، وإنما جاءت هذه الأصالة أمرا فريدا من نوعه. ألاحظ أن الكلمات العربية التي يضمها قاموس اللغة الفارسية بنسبة تفوق النصف - دخلت هذا القاموس عن طريق النقل المباشر، أما بالنسبة للكلمات البربرية ذات الأصل العربي، فهي وجدت لا بالنقل وإنما بالاستعمال الأصيل، أي أن هذه الكلمات وجدت بالبربرية منذ وجدت البربرية بالوجود.

ويرى عالم اللغات السامية الأوروبي أولئاري، بأن انتشار اللغة السامية مع الهجرات، قد نجم عنه نشأة لهجات متعددة وفقا للأقاليم يقول:

«ويدلنا التاريخ على أن انتشار اللغات السامية مرتبط بهجرات الساميين المتتابعة من جزيرة العرب إلى بلاد ما بين النهرين، وأرض كنعان، وسورية، والحبشة، وشمال إفريقيا. أما تكوين اللغات واللهجات المختلفة فيرجع العامل المهم فيه إلى أن كلا من اللغات السامية خارج الجزيرة العربية، كانت تحت تأثير التداول بين خليط من السكان غير الساميين، مما أدى إلى حدوث تغييرات لفظية وتعديلات لغوية، فضلا عن إهمال القواعد النحوية، كل ذلك أدخل عدة إضافات على مفردات اللغة»[1].

وبعبارة أكثر وضوحا فإنني صرت متقينا أن اللغة البربرية ما هي إلا إحدى اللهجات العربية القديمة، التي تفرعت عن اللغة العربية الأم، التي يعتبر مهدها

---

(1) أوليئاري: قواعد المقارنة للغات السامية (نقلا عن كتاب الدكتور أحمد سوسة: الحضارة العربية ومراحل تطورها عبر العصور، ص 106.

الجزيرة، ثم إن القبائل التي تكلمت اللهجة (البربرية)، انتقلت جميعها بلغتها إلى شمال إفريقيا. ومما يؤكد ذلك وجود بعض القبائل بجنوب اليمن لازالت تتكلم لغة شبيهة بالبربرية حتى الآن.

إنني مقتنع أن البربرية ليست لغة سامية قديمة فقط، بل هي إحدى اللهجات العربية الضاربة في القدم، وسأضرب أمثلة على ذلك، مثال:

- **تامطوث**: المرأة. لا يتبادر لذهن أي ناطق لها أن لها علاقة بالعربية، لكن إذا تعمقنا في البحث وجدنا أن أصلها عربي ومعناها (الكائن الذي يحيض.. والطمث في العربية معناها: الحيض، أما عن سبق الميم للطاء في التسمية البربرية، فأمر يحدث في جميع اللغات. يقال: المرأة الطامث (بالعربية).

- **أركاز**: الرجل. وهي مثل أختها تامطوث، عربية ومعناها: ركز شيئا في شيء أقره وأثبته، والرجل هو ركيزة البيت.

- **آخنفوف**: الأنف. وهي عربية أيضا ومعناها: خَنَفَ يَخنِفُ خُنوفًا، أي شمخ بأنفه من الكبر أي التكبر. ومن الغريب أن كلمة (آخنوف) بالبربرية في استعمالها بمعنى الأنفة أقرب إلى العربية من كلمة الأنفة نفسها..

- **آمّورث**: الأرض البربرية، وهي عربية أيضا (والممرثة في العربية هي الأرض التي أصابها مطر خفيف).

هذه الأمثلة تدل على أن البربرية ما هي إلا إحدى اللهجات العربية القديمة جدا التي اندثرت من الجزيرة العربية. والتي بقيت حتى الآن مستعملة بشمال إفريقيا، نقلتها القبائل العربية القادمة -مثلما بينّا في هذه الدراسة- من المشرق العربي في هجرات تعود إلى آلاف السنين. أنا أرى أن تسمية أطلقت على المرأة بالعربية القديمة اعتمدت على أمر محسوس وهو الحيض، ثم تطورت فيما بعد إلى كلمة (المرأة) بل إن تسمية (تامطوث) أقرب إلى دقة التمييز من كلمة المرأة.

ولا يمكن لقائل أن يدعي أن هذه الكلمات الأربع استعارتها البربرية من العربية بالنقل، لأن البربر عرفوا المرأة وعرفوا الرجل وعرفوا الأنف وعرفوا الأرض قبل الهجرة الإسلامية.

أمر آخر أن البربر يستعملون الأنف في معاني الأنفة والعزة. ومثلما أوضحت، فإن تسمية آخنفوف التي يستعملها البربر -في معاني الأنفة-، أقرب إلى معاني الأنفة في العربية نفسها من كلمة "الأنفة".

أجزاء الخيمة:

أثبت المؤرخون أن البربر عرفوا الخيمة قبل الهجرة الإسلامية، ومن غير شك فقد أحضرها معهم أجدادهم المهاجرون للمغرب قبل الفتح الإسلامي بكثير، وتدل على ذلك أسماء الخيمة ذات الأصالة العربية، لا النقل من العربية (لنكن واضحين في هذا المجال).

وإذا استعرضنا مثلا أجزاء الخيمة وجدناها في معظمها عربية ذات أصالة لا تقل عن الكلمات العربية مثل:

- **أقنْطاس**: وهي الخشبة المتينة التي تدخل في ثقبيها الركيزتان اللتان تقام عليهما الخيمة الرئيسية. وهي مستمدة من كلمة عربية وهي: القنس: ومعناها بالعربية أعلى الرأس، والقناس أيضا رأس الخيمة.
- **إيجَادْ جَنْ**: الوتد بالبربرية وهي مستمدة من كلمة عربية أيضا وهي (الجُدْ جُدْ) ومعناها الأرض الصلبة أومن كلمة المجدح: وهي خشبة في رأسها خشبتان يساط بها الشراب، وقلب حرف الحاء جيما في الاستعمال البربري.
- **آخام**: معناها بالبربرية الخيمة.

أجزاء المحراث:

- **آمحراث**: المحراث.

- **إيكرَّز**: يحرث، وتبدو للوهلة الأولى غير عربية، والحقيقة أنها عربية بالأصالة لا بالنقل، وهي مستمدة من الفعل العربي كرز يكرز كُروزًا: أدخل واستخفى في غار أو حفرة، والحرث هو غرسالمحراث في الأرض.

- **إقَرْسَة**: سن المحراث المعدني الذي يشق الأرض. وهي عربية بالأصالة أيضا مستمدة من الكلمة العربية القِرْسُ: ومعناها الجامد من كل شيء، وسن المحراث من معدن الحديد الجامد الصلب.

ملابس المرأة:

- **المرفع**: قطعة من الفضة معقوفة تحمل القرطين أو الأقراط وتشبك في المناديل التي تلف الرأس وهي من رفع.

- **اخلالت**: الخلالة - وهي عربية لا تحتاج لشرح.

- **اسوريث**: القميص، نسبة إلى سورية مصدر القماش في العهود القديمة.

- **ايمَلْحِفَتْ**: من لحاف وهي عربية.

- **آزَلّوم**: معناها الحزام. وتبدو أيضا لأول وهلة غريبة عن العربية، والحقيقة أنها كلمة عربية بالأصالة لا بالنقل. ففي العربية: فعل زَلَّمَ الرَّحى إذا أدارها وأخذ من حروفها.

- **آخَلْخَالْ**: الخلخال.

- **الخَواثيمْ**: الخواتم.

- **الشّرْكْ**: العقد (من نصب له الشراك).

- **ادَمّاغَتْ**: قطعة من القماش الخشن توضع على الرأس لتحول دون تلوث المناديل بالزيت المغمس فيه الشعر، وهي من الدّماغ. عربية كما نرى.

- **العَقْصَتْ**: وهي عربية من العقاص.

حظيرة الأغنام:

إذا استعرضنا تسميات الأشياء لدى المربين للغنم البربر، وجدنا الكثير منها ذات أصل عربي بالأصالة لا بالنقل. (فأَولّي) معناها بالبربرية الغنم. وتبدو للوهلة الأولى بعيدة عن العربية، والحقيقة عكس ذلك، ونستطيع أن نسندها إلى أصلين عربيين:

- **إلى الولي**: وهو المطيع.. والشاة معروفة بطاعتها حتى يضرب المثل بها فيقال امرأة عاقلة هادئة ومطيعة كالشاة.

- **إلى**: مصدر آخر وهو يقال في العربية: توالى الغنم عن الماعز تميزت عنها.

- **هيخْسِي**: الشاة - وتوجد بالعربية كلمة الخِسِيُّ: وهو الخباء الذي يصنع من الصوف. وهذا تسمية الكل بالجزء.

- **إيْزمَر**: الخروف - ولها أصل بالعربية، يقال زَمرَ صوفُه إذا قل. والخروف قصير الصوف طبعا.

- **ايسَرْذَقْ**: الرِّبْقُ الذي يوضع حول رقبة الخروف. وأصل الكلمة العربي آت من: سردَقَ البيت جعل أعلاه وأسفله مشدودا كله. السُّرادق: كل ما أحاط بشيء من حائط أو مضرب. ومعنى الكلمة بالبربرية هو الإحاطة برقبة الخروف.

- **آذْراسْ نُولِّي**: معناها بالعربية جمع الغنم وربطها بالحبال ورؤوسها مقيدة ببعضها ببعض لحلبها. ولها أصل أصيل لا منقول من العربية يقال: درَّس البعير إذا راضه أو روّضه.

- **آغي**: الحليب: يتبادر للوهلة الأولى أنها بعيدة عن العربية، والحقيقة غير ذلك. يوجد بالعربية فعل يقال: غوِيَ الرضيع غَيًّا إذا أكثر من الرضاع.

ويتبين من هذه الكلمة أنها عربية بالأصالة وليست بالنقل. وهي في تصوري أكثر أصالة عربية من كلمة الحليب. لأنها أي آغي مرتبطة بوظيفة يقوم بها الطفل

الرضيع إزاء ثدي أمه. أما كلمة الحليب فهي مرتبطة بوظيفة سحب الحليب من ضرع الحيوان. ومن غير شك فإن الإنسان في عهوده الأولى تعرف على الحليب من ثدي المرأة قبل تعرفه عليه من ضرع الحيوان.

الطعام:

- **آغروم**: الخبز: باليمن الآن معناها: نوع من الخبز.
- **أمان**: الماء وهي واضحة.
- **اكسوم**: اللحم. ذات أصل في العربية أي الجسم وينطق حتى الآن في اللهجة السورية الجسم (كسم) بالكاف.
- **آلُوسي**: الزبدة. ولها أصل بالعربية بالأصالة لا بالنقل. اللُّواسةُ بالعربية معناها اللقمة وتستخرج الزبدة من اللبن المخيض على شكل لقمات.
- **نَتْشْ اللّوزغ**: أنا جعت: أصلها عربي آتية من اللَّوز: وهو المحتاج.

الملابس للرجل:

- **الكُركْ**: وهو قطعة من جلد البقر أو الجمل تخاط بالجلد من الأمام والخلف وتتخذ نعالا وخاصة زمن الثلج، ويمنع الانغراز والتزحلق. وأصلها عربي من كلمة الكرْكُ وهو رداء ذو فروة.
- **أَقلْمُونْث**: معناها قلنسوة وهي عربية كما يبدو محرفة قليلا.
- **أقشابيث**: عباءة الرجل وهي ذات أصل عربي. يقال قشب الثوب قشابة كان جيدا نظيفا.

بعض الأفعال والكلمات المتفرقة:

- **يَطّسْ (نام)**: طَسَّ الشيءَ في الماء إذا غطسه. والنوم فيه معنى الغطس في اللّاوعي.
- **يوعادْ (يُعيد)**: وهي عربية واضحة.

- **سوسَمْ** (**اسكت**): وهي عربية محرفة قليلا.
- **هَزَّطْ** (**تنسج**): من تهز الشيء: تحركه.
- **يَدْعَسْ** (**دخل**): دعس القصاب الشاة: أدخل يده بين جلدها ولحمها.
- **يُكّذْ** (**يخاف**): أكْذَى الشيء: احمرّ لونه من خجل أو فزع.
- **يقّيم** (**جلس**): أقام يقيم.
- **يَرْوَلْ** (**هرب**): هَرْول.
- **يرّز** (**كسّر**): رزّ فلانا: طعنه.
- **يوسيد** (**جاء**): أوسد في السير: أسرع.
- **يلّف** (**طلّق**): لفأت الريح التراب عن الأرض: فرقته.
- **يَلْغَظْ** (**ساق الدابة**): لغطوا أصواتا مبهمة.
- **يَتَزّالْ** (**يجري**): الزول: الخفيف الحركة.
- **يكّرْ** (**قام**): وَكَرَ الظبي: وثب.
- **يينّاس** (**قال له**): **آنس الصوت**: سمعه. آنس له: تسمّع.
- **هيلِّ** (**تبكى**): انهل الدمع انسكب.
- **يفَرّنْ** (**ينقّي**): فاررِتْه: فتشت عن حاله وفتش عن حالها.
- **يتّيرارْ** (**يلعب**): التّرّ: الغلام الصغير.
- **يدجلّايْ** (**يحلف**): من جل جلاله. والحلف عادة يكون باللّه.
- **يَسْغَى** (**اشترى**): سوّغ الشيء جعله مباحا حلالا. تملّك الشيء.
- **يتازّال** (**يجري**): أزل: سار في مكان مجدب. أزَّ، يئزُّ: تحرك واضطرب.
- **يرّاضْ** (**لبس**): راوضه: داراه وخاتله حتى يدخل فيه.
- **يتّكسْ** (**ينزع بخلع الملابس وغيرها**). وكس الشيء: نقصه. وكس ماله: نقصه.
- **هْذَلّكْ** (**تَعْجْنُ**): دلّك السنبل حتى انفرك قشره عن حبّه. ودلّك الشيء: دعكه وعزله.

- **يسنّاو (ينضج الخبز وغيره)**: أسنى النار: رفع سناها.

- **يسّافويْ (ينفخ)**: سفت الريح التراب وغيره: ذرته وحملته من مكانه.

- **يزّاط (يرحي)**: زاط: فعل جلبة.

- **يْكنِّي (يرقع)**: كنّ: ستر.

- **يَسْوْ (يشرب)**: يحسو الرجل المرق: يشربه جرعة جرعة.

- **آمغار (العجوز)**: في الحديث النبوي الشريف: أن أعرابيا قدم على النبي ﷺ فرآه مع أصحابه. فقال أيكم ابن عبد المطلب. فقالوا: هو الأمغر المرتفق. أرادوا بالأمغر الأبيض الوجه (لسان العرب) والشيب بياض.

- **إيخف (الرأس)**: خفأ الشيء: ظهر. والرأس أبرز شيء في الإنسان.

- **الشِيفّر (الجفن)**: شفر الجفن: حرفه.

- **ايغمّاس (الأسنان)**: الغمّاسة: الطعنة النافذة في اللحم.

- **أضاضْ (الأصبع)**: الدض: الأصل.

- **ايشّر (الأظفر)**: الأَشَرة: عقدة في رأس ذنب الجرادة.

- **ايذَرْمان (الصدر)**: المذمّر: الكاهل والعنق وما حوله إلى الذّفرى وهو الصدر.

- **آحَبّوطت (الصرة)**: حبط الجلد: ورم.

- **آضار (القدم)**: الضّرة من القدم ما يباشر الأرض عند الوطء من لحم باطنها مما يلي الإبهام. ومنها جاءت كلمة الضّرة. تقول المرأة أنت ضرتي: أي أنت أسفل قدمي.

- **أساكَلْ (الفخذ)**: من السُّقل: الخاصرة. وسقلت اليد أو الرجل مالت.

- **آفوذ (الركبة)**: الفود: الجانب. يقال نزلوا بين فودي الوادي.

- **آسرذون (البغل)**: البرذون: ضرب من الدواب يخالف الخيل العراب. وهو غليظ الأعضاء.

- **الزِّمل (الحصان)**: الزّامل من الدواب الذي كأنه يضلع في سيره من نشاطه.
- **العُوذَةَ (الفرس الأنثى)**: العوذ: المسن من الإبل.
- **آغْيول (الحمار)**: الغيل (جمع غيول) من الغلمان: العظيم السمين.
- **ايكرزيز (الأرنب)**: كرز إذا استخفى في حفرة. من صفات الأرنب.
- **أفِيغَرْ (الثعبان)**: فغرفاه فتحه. افعوان.
- **أعجمي (العجل)**: العجماء: البهيمة.
- **ايزمر (الخروف)**: زمر إذا قصر صوفه.
- **آلْغَمْ (الجمل)**: اللُّغام: زبد أفواه الإبل.
- **أوشّن (الذئب)**: انشنّ الذئب في الغنم عاث فيها قتلًا.
- **إيغيد (الجدي)**: الغيدان من الشباب أوله.
- **آر (الأسد)**: الهرّ: الأسد يسمع صوت جريه إذا جرى.
- **أمثنه (المطر)**: مثّ السّقاء: رشح.
- **أقربوش (هيكل السرج)**: القربوس: حنو السرج.
- **أقلزيم (الفأس)**: قلز الجراد قلزا: رزّ ذنبه في الأرض.
- **أبورْغَسْ (الجرادة)**: البرغش: حشرة.
- **أولْمانْ (الخيوط الأفقية للمنسج)**: الولم: حزام الرِجْل، وحزام السرج.
- **لقّ (الآن) ها الوقت**: هلّق معناها الآن في اللهجة السورية.
- **أبوظ (قاع الشيء)**: البوظ: البوتقة: الوعاء الذي يذاب فيه المعدن.
- **آكسوم (اللحم)**: الكسم.
- **يعرّم (كثيرا)**: العرام من الجيش: كثرته.
- **آزكرار (طويل)**: زكر الإناء: ملأه.

- **يورَزْمير (مريض)**: استزمر: تقبض وتضاءل.

- **اكّس (انزع)**: وكّس فلانا: وبخه. وكس الشيء: نقص.

- **آبريذ (الطريق)**: البريد: المسافة بين كل منزلتين من منازل الطريق.

- آزمالت (العمامة): منحدرة من زمله، أي لفه بلحاف.

- النازيث (الهضبة القليلة الارتفاع): يقال أكمة نازية أي مرتفعة عما حولها.

- **أمقران (الكبير)**: يقال أقرن فلان إذا جاء بأسيرين من شدة قوته وبأسه. والناقة القرون هي الناقة القوية التي تملأ إناءين في حلبة واحدة. ومَقْرن بالجزيرة العربية اسم للرجل.

- **أفالوا (الخيط)**: الفائل: عرق في الفخذ.

لقد تعمدت أن أسوق الكلمات التي لا يمكن أن يقال أنها حديثة عرفها البربر بعد دخول العرب مع الفتح الإسلامي بعد التطور الحضاري الذي حدث في القرون الوسطى مع انتشار الحضارة الإسلامية، فالكلمات التي سقتها عرف البربر مسمياتها قبل الفتح الإسلامي، أما الكلمات الأخرى التي يمكن أن يقال عنها حديثة فقد عرفها البربر مع التطور الحضاري على يد العرب المسلمين، وهي عربية بوضوح وبالنقل. بل إن كثيرا من العبارات ينطقها البربر بكلمات عربية كاملة مثل الجملة التعجبية: (آبابا حنيني ما أكبر إيخفنس) وهي مفهومة للقارئ العربي، ماعدا كلمة إيخف، أي الرأس بالبربرية وهي عربية أيضا كما بيّنا، وقد استعمل فعل التفضيل (ما أكبر)، رغم أن الكلمة التي تدل على الكبير في البربرية هي (أمقران). وكلمة أمقران نفسها من أصل عربي.

لقد استعرضت آخر قاموس قبائلي صدر بالجزائر سنة 1995، فوجدت جل كلماته عربية من هذا النوع، أي بالأصالة لا بالنقل. فحرف العين مثلا في

هذا القاموس ضم 130 كلمة، 115 منها عربية، والأخرى بين كلمات من الدارجة الجزائرية، وكلمات مأخوذة عن اللغة الفرنسية[1].

ويقول الأستاذ مختار السوسي عن لهجة الشلحة بالمغرب: «إن أول ما يبادر للباحث في الشلحية عندما يقابلها بالعربية أشياء، منها:

أنه يجد مخارج الحروف متساوية في اللغتين، حتى حرف الضاد فإنه ينطبق به عند الشلحيين، كما ينطق به عند العرب سواء بسواء»[2].

(1) منجد اللغة الأمازيغية: لعز الدين تاقمونت، الجزائر (وحدة الرغاية) 1995.

(2) محمد المختار العرباوي: البربر عرب قدامى، ص 168 - الرباط 1993.

البعدان: الوطني والقومي

للثقافة الجزائرية

إذا استعرضنا تاريخ الجزائر خلال المرحلة الاستعمارية، وجدنا أن الاستعمار الفرنسي عمل طوال وجوده على تدمير الثقافة القومية بالبلاد. وحقق نجاحات لم يتمكن من تحقيقها في ميادين أخرى. لأن الاستعمار عمل على تدمير الثقافة بواسطة النفس الطويل المخطط له سلفا، ومن طرف أكبر العقول الاستراتيجية، التي كانت تفكر للاستعمار الفرنسي بالجزائر. وذلك بإفراز الشخصية الجزائرية من مضامينها الوطنية والقومية، وإحلال مقومات الشخصية الفرنسية في الفراغ الثقافي الذي يوجدونه في الذات الجزائرية.

وقد استطاع المجتمع الجزائري، بواسطة أحزابه ومنظماته الوطنية التصدي للمسألة السياسية، وللمسألة الاقتصادية، وللمسألة اللغوية، لأنها مسائل واضحة منظورة، لكن هذه الأحزاب عجزت عن مواجهة الخطة الاستعمارية الثقافية، لاحتوائها مضامين خافية عن العين المجردة. وقبل أن أدخل في تفاصيل الموضوع، لابد أن نطرح على أنفسنا السؤال التالي:

من نحن ؟

نحن عرب، نقيم في جزء لا يتجزأ من وطن كبير اسمه الوطن العربي. نحن أفراد في شعب اسمه الشعب الجزائري، الذي هو جزء لا يتجزأ من أمة هي الأمة العربية، تعمل الإمبريالية الدولية الآن ومنذ أكثر من قرن على نهب خيراتها، وتستعمل أقوى سلاح ضدها وهو تجزئتها، مع إصرارها (إي إصرار القوى الإمبريالية) على الحفاظ على هذه التجزئة وتكريسها، ضمانا لنهب الخيرات العربية، المتمثلة في البترول العربي، والبترودولارات العربية.

وأنا لا أتصور ثقافة جزائرية إذا لم يكن لها بعد قومي، أي عربي. ودون أن ترتكز على القيم الإسلامية. وقبل التطرق إلى التفاصيل، أود أن أشير إلى:

أولا: أن الفرنسيين عملوا طوال 132 سنة على تدمير البعد العربي للشخصية الجزائرية، واستعملوا عدة أساليب، وخاصة النفسية منها. فأطلقوا شعاري (Bicot. travail arabe) بيكو. عمل عربي، (sale arabe) العربي القذر. هادفين من وراء ذلك إلى جعل الجزائري يحتقر أصله العربي، واستطاعوا تجميع رواسب معادية للانتماء العربي الجزائري، بين نسبة كبيرة من سكان المدن.

ثانيا: أن الجنرال ديغول عندما تولى الحكم في 1958، اقتنع بفضل فراسته وثقافته التاريخية الواسعة، أن استقلال الجزائر آت لا محالة، لأن ثورة أول نوفمبر ومن ورائها تصميم الشعب الجزائري يريدان ذلك. فعمل على تأجيل استقلال الجزائر قدر الإمكان، ولو على حساب الخسائر البشرية العالية، واقتصاد فرنسا وسمعتها. لكي يضمن بقاء الجزائر بعد 1962 تدور في فلك الفرنكفونية. وذلك بإبقائها خارج الإطار العربي. وبدون إبقائها خارج إطار الانتماء العربي، فإن مخطط الفرنكفونية بالجزائر المستقلة سيكتب له الفشل.

إن أخطر ما ورثناه عن العهد الاستعماري هو تشويه المفاهيم، تشويها يتناقض مع التاريخ ومع المنطق ومع العلم.

فالصفتان "وطنية" بمعناها الإقليمي، و"قومية" بالمعنى العربي الواسع. توجدان بقاموس "اللغة العربية"، بينما لا توجد بالفرنسية إلا كلمة "وطنية" (Nationalisme).

وهذا هو الذي جعل مفكري المغرب العربي وخاصة مفكري الجزائر، المتكونين بالفرنسية، الذين يسيطرون على مفاتيح المراكز الأساسية في الدولة الجزائرية، بما فيها المؤسسات الثقافية والإعلامية، لا يؤمنون بالمفهوم القومي.

وقد رأيت أن أقدّم عرضا عن مفهوم الأمة والشعب من الوجهة التاريخية عبر موقف الإسلام، وتحديد القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف لهذا المفهوم. وعبر الفلسفات القومية في القرون الثلاثة الماضية بأروبا، وعبر التحليل الماركسي.

تعريف الإسلام للأمة والشعب:

لا يقر لا القرآن الكريم ولا الحديث النبوي الشريف وجود أمم إسلامية متعددة. وإنما يصر الإسلام على وجود شعوب ضمن أمة واحدة. تقول الآية الكريمة: ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾. كما ورد في آية كريمة أخرى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾. وفي آية ثالثة: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسلِمَةً لَكَ﴾. وقد ورد ذكر أمة بمعنى الجماعة من الشعوب في أربع وأربعين آية[1]. كما ورد في الحديث النبوي الشريف: «لا تتفقُ أمّتي على ضلالة» ولم يقل صلوات الله عليه وسلم «أممي».

إذن فانطلاقا من التفسير الإسلامي لمفهوم الأمة، وبناءً على نصوص القرآن الكريم والحديث الشريف، فإن التعدد في الشعوب لا في الأمم، سواء في الإطار العربي أو في الإطار الإسلامي، وأن وصف الشعب الجزائري بالأمة الجزائرية، يعتبر مخالفة للإسلام ولنصوصه. وهذا هو الذي جعل أنظمة المشرق العربي مع ليبيا، تجمع كلها على عدم وصف شعوب أقطارها بالأمم. ابتداءً من السعودية وحتى ليبيا.

تعريفات أوروبية للأمة:

سوف أتعرض في هذه الدراسة إلى تعريفات الأمة التي كانت متداولة بين المنظرين إلى ثلاث مجموعات: مجموعة المنظرين الوحدويين الأروبيين، ومجموعة المنظرين الفرنسيين، ومجموعة الماركسيين الأروبيين.

فمجموعة المنظرين الوحدويين الأروبيين، أي المنظرون المنتمون إلى أمم أروبية كانت تعاني من داء التجزئة، ولم تكن لها ممارسات استعمارية بالمفهوم

(1) معجم ألفاظ القرآن الكريم –مجمع اللغة العربية بمصر– ط2، القاهرة 1970، ج1، ص 54. ج4، ص 25.

الكلاسيكي للاستعمار آنذاك. وهي تشبه في تاريخها، الواقع التجزيئي للأمة العربية في مرحلتها الراهنة.

وقد عبر عن هذه النظرية، أي نظرية الأمة، الكاتب الإيطالي "مانتسيني G. Mazzini". حيث قال في تعريفه للأمة سنة 1851 عندما كانت إيطاليا مجزأة إلى دويلات: «الأمة مجتمع طبيعي من البشر يرتبط بعضها ببعض بوحدة الأرض، والعادات، واللغة، من جراء الاشتراك في العادات وفي الشعور الاجتماعي».

وكان في مفهوم "مانتسيني G. Mazzini" والمدرسة الإيطالية، أن وحدة الأرض لا تعني وحدة الدولة. في مفهومه أن جميع الدول الإيطالية في عصره تمثل أمة واحدة. وإن كانت تفصل بين أجزائها حدود دولية. وقد عرف الأمة مفكرون آخرون إيطاليون قوميون تعريفات مشابهة لتعريف "مانتسيني G. Mazzini" مثل "آرغيلو" و"غاريبالدي V. Garibaldi" و"كافور C.B. Cavour".

كما عرّف "فخته J.G. Fichte" المفكر الألماني الأمة سنة 1808، في وقت كانت فيه الأمة الألمانية مجزّأة إلى مائتين وأربعين (240) دولة. عرّف الأمة بما يلي: «الأمة الألمانية تتكون من جميع الذين يتكلمون الألمانية».

أما النظرية الثانية، فهي النظرية الفرنسية التي تبلورت في القرن التاسع عشر الميلادي. وهي مطبوعة بالطابع الاستعماري. لأن المنظرين الفرنسيين عندما صاغوها، راعوا في أذهانهم المصالح الاستعمارية للأمة الفرنسية، التي لم تكن تعاني من التجزئة مثلما كانت تعاني الأمة الألمانية والأمة الإيطالية. ويعتبر المفكر الفرنسي الاستعماري "رينان Renan" أبا النظرية الفرنسية في تعريف الأمة، يقول: «إن أس الأساس في تكوين الأمة هي الإدارة، أي الدولة»، "فرينان" ينفي صفة الأمة عن الشعوب المستعمرة لأنها لا تملك دولا مستقلة؛ ومن غير شك فإن الذين يشترطون صفة الدولة المركزية الموحدة في تعريف الأمة من المفكرين

متأثرين بالنظرية الفرنسية، حتى ولو كانوا من اليساريين. "فموريس طوريز M. Thorez" زعيم الحزب الشيوعي الفرنسي الأسبق، عرّف سنة 1939 الأمة تعريفا لم يخرج كثيرا عن إطار "رينان". وسنأتي على تفاصيل تعريف "طوريز Thorez" عندما نتعرض لمفهوم الأمة لدى الماركسيين. وقد انتقد حتى بعض المفكرين الفرنسيين "رينان". فالأستاذ "هاوزر" أستاذ التاريخ بجامعة ديجون، في كتابه "مبدأ القوميات" الذي صدر سنة 1916، انتقد انتقادا مرا نظرية "رينان" في شرط الدولة القومية، كعنصر أساسي في تعريف الأمة.

مفهوم الأمة لدى الماركسيين

لقد وقف "ماركس K. Marx" و"إنجلز F. Engels" موقفا مؤيدا من حركة توحيد الأمة الألمانية، لأن "ماركس"، وإن كان مفكّرا أمميا، لم يتخل عن قوميته الألمانية فأيّد وحدة أمته، رغم أنه كان مقتنعا أن ألمانيا الموحدة ستكون تحت سلطة دولة مركزية: بورجوازية. وعندما أعلن "بسمارك O. Bismark" عن حركته الموحدة لألمانيا، تلقى التأييد المطلق من "ماركس" و"إنجلز" اللذين تعرضا لنقد مرير من بعض اليساريين الأروبيين في ذلك الوقت، مثل الباكونيين والبرودونيين، والفوضويين.

أما "لينين V. Lenine" فقد أيّد مفهوم الأمة المناضلة ضد الاستعمار ومن أجل وحدتها. ورفع شعار "الشرق الثوري والقومي، ضد الغرب الإمبريالي والمعادي للثورة".

ثم جاء "ستالين J. Staline" فأعطى قبل الحرب العالمية الأولى، تعريفا أوفى وأوسع للأمة. ورد بذلك على الماركسيين الذين كانوا يتحفظون على مفهوم الأمة، بسبب ما عانته الإنسانية من النزعات القومية الفاشية في أروبا، في مقال بعنوان "القومية والاشتراكية الديمقراطية"، نشر سنة 1913 في مجلة الحزب البلشفي، كتب "ستالين" يقول:

«الأمة هي قبل كل شيء جماعة معينة من الأفراد، وهي ليست جماعة عرقية، ولا جماعة عشائرية. فالأمة الإيطالية الحالية تكونت من رومان، وجرمان، واترسك، وعرب... إلخ.

ويجب أن يقال الشيء نفسه عن الإنجليز، والألمان، وغيرهم من الأمم، المكونة من أناس ينتسبون إلى عروق مختلفة. الأمة جماعة من الناس تكونت تاريخيا».

إذن فقد نفى "ستالين" عن القومية وعن مفهوم الأمة صفة العرقية، وأكّد بأنه لا توجد أمة بالعالم إلا ويكون تكوينها من عدة أجناس وعروق، وهذا ينطق أيضا على أمتنا العربية التي تكونت في مدى أكثر من أربعة عشر قرنا، من عدة أجناس وعروق وقبائل وعشائر.

اشترط "ستالين" أيضا في تعريفه للأمة وحدة الأرض، وهذا ينطبق على وحدة العالم العربي الذي تعيش عليه شعوب الأمة العربية. يقول "ستالين" في نفس المقال السابق: «لكن لماذا انجلترا والشمال الأمريكي لا يؤلفان أمة واحدة على الرغم من اللغة المشتركة؟ لأنهما لا يعيشان بجانب بعضهما البعض (ولم يقل "ستالين" لأنهما ليسا تحت دولة واحدة). ويتبين من ذلك، أن وحدة الأرض تكوّن إحدى الخصائص المميزة للأمة».

وبالإضافة إلى اللغة، فإن "ستالين" يشترط شرطا ثالثا، وهو وحدة التكوين النفسي، أي التاريخ المشترك، فيقول: «ويتبيّن من ذلك أن وحدة التكوين النفسي، التي تتجلى في وحدة الثقافة، تكوّن أيضا إحدى الخصائص المميزة للأمة».

ويضيف "ستالين" شرطا رابعا لتكوين الأمة وهو الحياة الاقتصادية. وقد يسأل سائل معاد للوحدة العربية والأمة العربية. طالما لا توجد وحدة اقتصادية عربية، فلا توجد إذن أمة عربية. ونحن نقول بأن هذا منطق غريب،

فوحدة الاقتصاد هدف يناضل العرب جميعا من أجل تحقيقه، وعدم وجوده لا ينفي عنا وجودنا، وإلا لكنا أيدنا النظرية الاستعمارية التي عملت ولازالت تعمل على منع الوحدة الاقتصادية العربية من التحقيق، إبقاءً على تبعية عدة أنظمة اقتصادية لدولاب الاقتصاد الإمبريالي، والاستمرار في نهب البترول، والبترودولارات العربية.

ويخلص "ستالين" من قوله السابق إلى تعريف الأمة بما يلي: «فالأمة إذن هي جماعة مستقرة من البشر، تكونت تاريخيا من جرّاء وحدة اللغة، والأرض، والحياة الاقتصادية، ووحدة التكوين النفسي التي تتجلّى في وحدة الثقافة».

وعندما انتقد "ميشكوف" و"كوفالنشوك" نظرية "ستالين" واشترطا إضافة شرط خامس لها وهو الدولة القومية المستقلة، ردّ عليهما "ستالين" في رسالة جوابية حملة تاريخ 18/ 03/ 1929 بما يلي: «ويتضح من رسائلكما أنكما تعتبران هذه النظرية (ويقصد نظريته) غير وافية لتحديد وتعريف الأمة، ولذلك تقترحان أن يضاف إلى العلائم الأربع المذكورة آنفا، علامة خامسة، وهي وجود دولة قومية مستقلة، وتزعمان أن الأمة لا توجد، ولا يمكن أن توجد ما لم توجد هذه العلامة الخامسة، إنني أعتقد أن النظرية التي تقترحانها لمفهوم الأمة مع علاقتها الخامسة خاطئة خطأ فاحشا، فلا يمكن تبريرها لا من الوجهة النظرية، ولا من الوجهة العملية أي السياسية».

وإذا استعرضنا آراء المفكرين السوفييت حول مفهوم القومية العربية في العصر الحديث لما وجدنا أفضل من قول "براماكوف": «ينبغي الإشارة إلى الاتجاهات المضادة للاندماج في أمة واحدة، هذه الاتجاهات التي تقويها أو تعمل لها الإقطاعية والبورجوازية»[1]. وفي رأي "براماكوف": «أن أعداء الوحدة العربية هم الإقطاعيون والبورجوازيون. إن أعداء الوحدة العربية هم الإقطاعيون العرب».

---

(1) الماركسية السوفياتية والقضايا العربية، إلياس مرقص، ص 46.

أما عن رأي التقدميين العرب في وحدة شعوب الأمة العربية، والقومية العربية. فإن الذي يعبر عنهم عن جدار هو الأستاذ إلياس مرقص، حيث يقول: «إن النضال الوطني التحرري للعرب، لن ينتصر تماما (أي على الإمبريالية) بدون قيام الوحدة العربية. والثورة الاشتراكية العالمية لن تهزم الإمبريالية في العالم العربي بدون الوحدة العربية، وحركة التحرر الوطني لإفريقيا السوداء ستظل قاصرة وضعيفة ومنتكسة بدون الوحدة العربية»[1].

مفهوم الأمة الخاطئ:

يتّفق كثير من اليساريين في المغرب العربي مع الكثير من المفكرين التحريريين، الذين لم يخرجوا عن إطار المفاهيم السياسية للأحزاب الوطنية قبل استقلال أقطار المغرب العربي. يتفقون حول تعريف الأمة، الذي يختلف عن تعريف مفكري المشرق العربي وليبيا. ولعل السبب في ذلك راجع إلى الستار الحديدي الذي فرضه الاستعمار الفرنسي على المغرب العربي طوال مائة واثنتين وثلاثين سنة. هذا الستار الحديدي الذي عزل المغرب العربي عزلا يكاد يكون كاملا عن بقية الأقطار العربية الأخرى.

ولعل سبب خطأ تفسير الأمة والقومية لدى مفكري المغرب العربي، ناجم عن تأثرهم بالثقافة الفرنسية. فالمعروف أن النظرية الفرنسية في تعريف الأمة كما بينت سابقا، متأخرة عن النظرية الألمانية والنظرية الإيطالية. كذلك، فإن تعريف الشيوعيين الفرنسيين للأمة كان متأخرا أو متخلفا عن تعريف الماركسيين غير الفرنسيين، والشيوعيين العرب سواء بالمغرب أو بالمشرق كانوا يتبعون الحزب الشيوعي الفرنسي وحتى منتصف الخمسينيات، حيث تحرر الشيوعيون العرب بالمشرق العربي من تأثير الحزب الشيوعي الفرنسي، بينما لازال الشيوعيون واليساريون بصفة عامة بالمغرب العربي، متأثرين بتعريف الشيوعيين الفرنسيين للأمة، قبل الحرب العالمية الثانية.

---

(1) المرجع السابق، ص 47.

في سنة 1939 وضع السيد (موريس طوريز) نظريته المسماة "نظرية الأمة الجزائرية" الآخذة مثلما قال: «في التكوّن على أساس تمازج واندماج البربر والعرب، والأتراك والمالطيين، واليهود، والفرنسيين، والإسبان، والطليان،... إلخ. بمساعدة الجمهورية الفرنسية». ولم يوضح "طوريز" على أية لغة تقام هذه الأمة، لكن طالما أشار إلى عبارة بمساعدة الجمهورية الفرنسية، فإن اللغة التي كانت في ذهن السيد "طوريز" هي الفرنسية، كما أن حدود الأمة الجزائرية متداخلة مع حدود الجمهورية الفرنسية، أو "الوحدة الفرنسية وفقا للاصطلاح السياسي السائد في ذلك الوقت».

وبطبيعة الحال، فإن السيد خالد بكداش كان آنذاك ينقل ما يصدر عن السيد "طوريز" ومفكري الحزب الشيوعي الفرنسي نقلا حرفيا، وخالد بكداش كان يشرف على جميع الأحزاب الشيوعية بالجناح الآسيوي للوطن العربي، فانطلق ينادي: «بالعمل على تكوين الأمة السورية بمساعدة فرنسا الديمقراطية».

لكن خالد بكداش زعيم الحزب الشيوعي السوري أحدث انقلابا كاملا في موقفه إزاء القضية، وإزاء نظرية "موريس طوريز"، فأعلن في سنة 1955 : «أن الأمة العربية موجودة وتامة التكوين على أساس هذه المميزات نفسها، بما فيها التكامل الاقتصادي، وأن من ينكر هذه الحقيقة الساطعة كالشمس في رائعة النهار، فهو قومي سوري حقير، أو صهيوني أحقر»[1].

إذن فالشيوعيون بالمشرق العربي قد غيّروا موقفهم من قضية الأمة العربية، فصاروا يؤمنون بأن الأمة العربية تامة التكوين، في الوقت الذي لازلنا نرى الكثير من اليساريين الجزائريين لازالوا يؤمنون بعدم وجود الأمة العربية، ووجود أمم عربية. والقليل منهم الذي آمن بوجود الأمة العربية، لازال يعتبرها غير تامة التكوين، مثل الأستاذ بوشامة مثلا»[2].

---

(1) المرجع السابق، ص 30.

(2) جريدة المجاهد اليومية، عدد 7/ 5/ 1976.

قصة وحدة الأمم الألمانية والإيطالية والبولونية:

لقد عانى الألمان والإيطاليون من داء التجزئة أكثر مما عانينا نحن العرب، لكنهم استطاعوا بفضل نضالهم تحقيق الوحدة. فالأمة الألمانية كانت تضم 360 دولة في القرن السابع عشر. وفي القرن الثامن عشر تقلص هذا العدد إلى 248 دولة. وفي سنة 1815 تقلص عدد هذه الدول إلى 38 دولة. وفي سنة 1871 عندما جاء "بيسمارك" ليوحد الأمة الألمانية، وجد عدد دولها 25 دولة، وهو رقم أعلى من رقم الدول العربية الآن.

ونفس مراحل التجزئة تقريبا، -مع تغيير النسب- التي مرت على الأمة الألمانية، مرت على الأمة الإيطالية التي استطاعت أن تحقق وحدتها على يد "مانتسيني" و"غاريبالدي" وغيرها من قادة الوحدة الإيطالية العظام.

وفي القرن الثامن عشر، قسمت الأمة البولونية بين ثلاث دول هي: بروسيا، وروسيا، والنمسا، وبقيت تحت التجزئة مدة قرن ونصف؛ لكن أبناء بولونيا ظلوا متماسكين يناضلون من أجل وحدة أمتهم. إلى أن تحققت هذه الوحدة سنة 1918.

لا مبرر لنا كجزائريين أو تونسيين أو موريطانيين أو مغاربة أن نعمل على تكريس التجزئة وبقائها، وإنما ينبغي علينا أن نجعل من أهدافنا الاستراتيجية تحقيق الوحدة العربية، لأنه حتى الاشتراكية التي تنشأ في كل قطر عربي على حدة، سوف تكون ناقصة، وسوف لا تكتمل أو تنجز، إلا مع تحقيق الوحدة العربية، خاصة، ونحن نعيش في عصر التكتلات العظيمة والقوى الأعظم. عصر الوحدة الأروبية، عصر التجمع الصيني، عصر التجمع الاقتصادي الأمريكي - الكندي - المكسيكي، والتجمع الياباني.

نستنتج مما سبق ما يلي:

أولا: أن اعتبار الوطن العربي يضم أمما متعددة منها الأمة الجزائرية. ليس له تبرير لا إسلاميا، ولا ماركسيا، ولا تاريخيا، بل ولا يتفق حتى مع التعريفات الأروبية غير الماركسية.

ويتفق فقط مع تعريف المدرسة الفرنسية، وخاصة المفكر الفرنسي الاستعماري "رينان".

ثانيا: إن الجزائر شعب جزء من الأمة العربية، وأن ثقافتها هي جزء لا يتجزأ من الثقافة العربية، بمضامينها الروحية الإسلامية طبعا.

إن وصف الشعب الجزائري بأنه أمة جزائرية لا يقتضي العمل من أجل "الوحدة العربية" التي تعتبر سياسة ثابتة للدولة الجزائرية. ويتناقض هذا الوصف مع وجود "الأمة العربية". وليس من المعقول أبدا أن تدمج أمة في أمة لتكونا أمة واحدة.

ثالثا: إنه قبل 1962، كان لنا مبرر قوي في رفع شعار "الأمة الجزائرية" للرد على الفرنسيين. الذين كانوا ينكرون علينا الهوية الجزائرية، المنفصلة عن الهوية الفرنسية، لكن بعد أن حصلت الجزائر وبلدان المغرب الثلاثة الأخرى على استقلالها، لم يبق لنا مبرر في استمرار رفع هذا الشعار، فنحن شعوب في إطار واحد هو إطار الأمة العربية.

رابعا: شعار "الأمة العربية" لا يتناقض أبدا مع شعار "الأمة الإسلامية" فتحقيق الوحدة العربية هو مرحلة لتحقيق الوحدة الإسلامية.

الأصول العربية للثقافة الجزائرية:

كان البربر قبل تدمير قرطاج، يتكلمون اللغة البونيقية، أي الفينيقية أو القرطاجية. وكانت هذه اللغة هي التي تسير بها دواوين وإدارات الممالك البربرية، بما فيها مملكة "ماسيله" نفسها التي كان على رأسها ماسينيسا. الأمر

الذي جعل المؤرخين الأروبيين مثل "غوستاف لوبون"، يعتبرون أن اللغة البونيقية (الفينيقية) هي المصدر الذي اشتقت منه اللغة البربرية[1].

بل إن المؤرخين يجمعون على أن التراث الفكري والديني والقرطاجي قد انتقل إلى البربر، واستمر حيا في الثقافة السائدة في المغرب وفي المجتمع البربري. مما يؤكد الأصل الواحد الذي ينحدر منه الفينيقيون والبربر. فالبربر ساميون، أي عرب قدماء. فقد استبدل المؤرخون المحدثون كلمة سامي - التي هي من صنع المستشرق النمساوي "سلوتزر Shlotzer" في القرن الثامن عشر - بكلمة عربي، وعبارة "أقوام سامية" بـ "أقوام عربية"[2]. بل حتى الأكاديمية التاريخية بالاتحاد السوفييتي، تخلت عن استعمال (السامية) واللغة السامية[3]، ويؤكد البربر أصلهم السامي "العربي القديم"، باستجابتهم العفوية لسائر العناصر السامية من الفينيقيين وحتى العرب. فبفضل الفينيقيين خرج البربر من العصر الحجري الحديث، واكتسبوا منهم وعن طريقهم لمدة عشرة قرون كاملة، أساليب العصر وثقافته ومدنيته. وحتى بعد اختفاء قرطاج استمر البربر من خلال أدبهم ومعتقداتهم وثقافتهم الشعبية حاملين لثقافة قرطاج وفنها ومعتقداتها الدينية. حتى أن كاتبا نوميديا كأبوليوس (125 - 180م) الذي ولد وعاش بمداوروش بالشرق الجزائري. يروي عنه المؤرخون: «أنه كان يمثل اتساع الأُفق والأصالة الفكرية» كان متأثرا في كتاباته بالثقافة البونيقية.

---

(1) حضارة العرب، غ. لوبون، ترجمة عادل زعيتر، ط2، ص 301.

(2) حضارة العرب ومراحل تطورها عبر العصور، أحمد سوسة.
La cite d'Isis, histoire vraie des Arabes, P. Rossi. Paris, 1976.

(3) أخبرني بذلك المستشرق السوفييتي شرباتوف، في الندوة العربية الثالثة للفلكلور التي عقدت في بغداد (سبتمبر 1980).

أبوليوس الكاتب النوميدي الأصيل:

كان أبوليوس أكثر أصالة من الكتاب المغاربة القدماء الذين كتبوا باللاتينية أو اليونانية. وأنا أشبهه بالمالك حداد الذي كتب بالفرنسية، لكنه قال أنا المنفي في اللغة الفرنسية. لأن تفكيره كان مشرقيا أكثر منه غربيا لاتينيا. فقد درس في جامعات مداوروش وقرطاج وروما وأثينا وإسكندرية. وكان يحس أن الثقافة البونيقية قريبة منه «كان يشعر وهو يقيم بقرطاج أنه في بلده بل وفي بيته»[1].

كان أبوليوس أكثر أصالة ومغربية من الكتّاب المغاربة الآخرين الذين كتبوا باللاتينية، وعاشوا بالشرق الجزائري حول جامعة مداوروش (Madaurus) المشهورة، ومن أمثال مينكوس فيليكس (بالقرن الثاني) وتيرتوليان (بالقرن الثالث) والقديس أوغسطين (في القرن الرابع) الميلادي. لأن كتابات أبوليوس امتازت بطابعها المغربي بسبب اعتمادها على التراث الفكري المشرقي: المصري، والفينيقي، واليوناني: «**كان معجبا بالآلهة الشرقية مثل إيزيس إلهة قدماء المصريين، وغيرها**»[2]. وكان يعتز بمغربيته فيقول: «**أنا نصف نوميدي ونصف جدالي**»[3]. وجدالة قبيلة بربرية بدوية، كانت مضاربها بالجانب الصحراوي الشرقي للمغرب العربي.

وإحساس أبوليوس بمشرقيته وبمغربيته هو الذي جعل مواطني مدينة مداوروش يقدرونه أكثر من أي كاتب آخر. فقد عثر في حفريات مداوروش على تمثال نصفي لأبوليوس أهداه له سكان هذه المدينة وكتبوا عليه اعتزازهم وفخرهم بكاتبهم المحبوب. ومداوروش مدينة جامعية بالشرق الجزائري. استمر نشاطها الثقافي لمدة قرنين على الأقل، في ازدهار هائل. في أثناء عهد نوميدية. كما استمرت هذه المدينة على وثنيتها مدة طويلة[4]. لقد استمرت

(1) المرجع السابق... Encyclopaedia Universalis, T2, p 181.
(2) المرجع السابق.
(3) المرجع السابق.
(4) L'Algérie romaine, Martial Douel, Paris, 1930.

مداوروش -التي كانت تأتي في المرتبة الثانية في ترتيب الجامعات بالعالم بعد جامعة روما-، استمرت في تأدية رسالة الثقافة الشرقية مع جامعة قرطاج، رغم محاولات الرومان لقطع جذورهما الشرقية السامية (أي العربية القديمة).

وكان "أبوليوس" لا يكف عن ترديد العبارات التالية عن حبه لوطنه نوميديا ولقومه ولمدينته مداوروش والاعتزاز بها جميعا، يقول: «**لم يتملكني في يوم من الأيام أي نوع من الشعور بالخجل من وطني**». وكانت أمه وثنية من قبيلة جدالة البدوية البربرية، استمرت طوال حياتها على وثنيتها وعلى المعتقدات الدينية البونيقية "القرطاجية" في وقت تنتشر فيه الديانة المسيحية.

ورث "أبوليوس" عن أبيه ثروة طائلة أنفقها في التنقل بين جامعات ومكتبات مدن ثقافة عصره مثل قرطاج، وأثينا، وساموسا، وروما وغيرها. فقد «**كان يملك حبا عارما للتعرف على البلدان، ونهما غريبا لاكتساب المعارف، كما استعمل ثروته في مساعدة أصدقائه الفقراء؛ كان بليغا يتقن فنون البلاغة والبيان المتداولة في عصره، حللها في كتابه "فلوريدات" -أزاهير-. أما كتابه "دفاع" فقد ضمنه روعة أفكاره الفلسفية التي جعلت النقّاد يصفونه وينعتونه "بالفيلسوف الأفلاطوني". وفي كتابه هذه عبّر "أبوليوس" عن حبه وإعجابه بالزعيم النوميدي "سيفاكس"**[1] **دون الإشارة إلى "ماسينيسا". وكان يعبّر بذلك بطريق غير مباشر عن إعجابه بولاء "سيفاكس" لقرطاج، وبدفاعه عنها ضد روما المستعمرة، وباستشهاده في مواجهة الجيوش الرومانية الغازية والسيف في يده. كان أبوليوس وهو يعبر عن حبه "لسيفاكس" يعبر عن حبه للبطولة، وللمغربية وللأصالة الشرقية، حبه للوفاء لأصالة المغربي التي كانت تتمثل في الولاء لقرطاج، الحاضرة السامية (العربية القديمة)، الإفريقية، الشرقية، ضد روما، الإمبراطورية الأروبية، الغربية، المستعمرة. كان بموقفه هذه يعبر عن تمرده على التعتيم الذي فرضه المؤرخون الرومان واللّاتين في عصره على**

(1) L'Algérie romaine, Martial Douel, Paris, 1930.

تاريخ "سيفاكس" الزعيم النوميدي العظيم، وعلى الإبراز المبالغ فيه لحليفهم "ماسينيسا". وليت المؤرخين المغاربة والجزائريين الببغاويين الذين ينقلون نقلا فوتوغرافيا لما كتبه في هذا الموضوع مؤرخو الاستعمار الأروبي القديم أي الروماني، دون نقد ولا تمحيص، ليتهم يتّعظون بموقف أبوليوس العظيم هذا، الذي عاش بالقرن الثاني الميلادي.

ولم يتحمل الرومان تمرد هذا الكاتب النوميدي. على خطهم السياسي وتراثهم الفكري والثقافي، حيث كان يجاهرهم بوثنيته الشرقية ورفضه حتى للمسيحية التي دخلت المغرب عن طريق الاستعمار الروماني، وبإعجابه بقرطاج وسيفاكس رمز الولاء لقرطاج، ورمز محاربة المستعمرين الرومان. فلفقوا له تهمة نشر السحر والزندقة بحمله لتعاويذ، ولتمثال زئبقي ولمرآة، ودافع عن نفسه في كتابه "دفاع"، فسخر من متهميه قائلا: «أن يكون الإنسان جميلا، وأن يحسن فن التحدث والكلام، تلك تهمتان كبيرتان أنا أعتز بأن تسندا إليّ». كما سخر من جلاديه، فدافع عن السحر الذي اتهموه به قائلا: «إن السحر هو الفن البديع الذي لا تموت آلهته أبدًا».

إن أهم كتب "أبوليوس" هو كتابه "الحلوليون" والذي يحمل عنوانا آخر أيضا وهو "الحمار الذهبي" يروي هذا الكتاب قصة إنسان اسمه "لوسيوس" يتحول إلى حمار، ولا يستطيع العودة إلى أصله الإنساني إلا إذا أكل الورود. ويحاط "لوسيوس" بعصابة من اللصوص تمنع عنه الورد؛ وبعد اثني عشر فصلا شعريا من هذه القصة، قضاها لوسيوس متنقلا من لص إلى لص (بستاني، جندي، حلواني.. إلخ) تغيثه أخيرا "إزيس" ربة قدماء المصريين، وتعيده إلى هيئته البشرية.. كل هذه الأحداث عرضت بفن قصصي حاذق وفصيح، وبأناقة عجيبة في الأسلوب، وبلغة شعرية خلابة، حيث تجاوزت بانسجام سائر العناصر الموغلة في القدم»[1].

---

(1) Encyclopeadia Universalis, T2, p181.

هل يرمز الحمار الذهبي إليه هو، أي إلى أبوليوس كإنسان نوميدي (مغربي)، فرض عليه الرومان أن يسلخ من جلده.. الشرقي، السامي (العربي القديم)، ويلبس ثوب حيوان! ويتخذ هيئة الحيوان، أي أن يمارس ثقافة المستعمر؟ هل يرمز بإيزيس إلى أن ثقافة الشرق التي حاول ويحاول الرومان منع النوميديين من ممارستها، هي القادرة وحدها على إعادتهم إلى هيئتهم البشرية أي إلى أصالتهم، أي إلى أن يكون النوميدي ثقافيا هو نفسه، وليس مسخا لغيره، كما يريد ذلك المستعمرون؟؟ إنها احتمالات ممكنة بالنسبة لكاتب أحس بشرقيته في محيط معاد للشرق، فلجأ إلى الرمز والتلميح، تجنبا لاضطهاد ومتابعة محاكم التفتيش الرومانية، وقد أحس الرومان بذلك فاضطهدوه وحاكموه، متهمين إياه بالسحر والشعوذة.

نجد في كتاب أبوليوس (الحلوليون) أو (الحمار الذهبي) أساطير شعبية لاهوتية وثنية قديمة، مستمدة كلها من التراث الشرقي القديم: المصري، والقرطاجي، واليوناني، شابتها حكايات وأساطير متداولة، فإحدى العجائز في ملحمته هذه تروي: «أن الفتاة بسيشيه تتعرض لعقاب رهيب بسبب جمالها الخلاب، لكن إيروس -إله الحب لدى اليونان- يتدخل ويقع في حب بسيشيه، فيقودها إلى قصر جميل، حيث يغدق عليها سائر أنواع السعادة، دون أن يسمح لها أن ترى بعينيها زوجها الأسطوري.

وتتقابل بسيشيه مع شقيقاتها اللائي كنّ يتقدن غيرة منها، فيقنعنها بقتل زوجها العجوز، ويزودنها بخنجر وبمصباح. وتتقدم بسيشيه لارتكاب جريمتها فتنحني على إيروس، لكن من شدة ذهولها تسقط من المصباح قطرة زيت مغلية على كتف زوجها الإله، فيثور هذا ويطردها. وحتى تعثر بسيشيه مرة أخرى على (إيروس) تجتاز امتحانات ومعانات عديدة تمليها عليها (فينوس)، ومن بين هذه الاختبارات نزولها إلى الجحيم. وفي الختام تتزوج مرة ثانية بسيشيه من إيروس، وتنجب منه فتاة تسميها فولوبتيه»[1].

(1) المرجع السابق، ص 181 – 182.

ويتساءل محررو مادة أبوليوس في موسوعة "يونيفرساليس Universalis"، فيقولون: «هل هذه مجرد قصة؟ أسماء الحب والروح مجرد رمز». ودون أن نتطرق لسائر الاحتمالات، فإننا نؤكد صفة واحدة لهذا الكتاب وهي أنه حمل (عن جدارة كما قال عنه النقاد) اسم (أوديسة الروح الأفلاطونية)[1].

ومن حقنا نحن أبناء الجزائر والمغرب العربي الأصلاء في تفكيرهم، أن نتطرق لسائر الاحتمالات التي أشارت إليها باحتشام دائرة المعارف الفرنسية المذكورة. فنقول: **إنه ليس من المستبعد أبدا، أن يكون أبوليوس يرمز بالجميلة بسيشيه إلى بلده نوميديا، وبالإله إيروس إلى الشرق وثقافة الشرق، وإلى السامية (أي العربية القديمة) وبالشقيقات الحاسدات إلى التيارات الاستعمارية الثقافية الرومانية، وبأن الذي ينقذ هذا الحب الكبير من الموت هو تدخل ربة شرقية، هي فينوس. مثلما تدخلت ربة شرقية في قضية الحمار الذهبي وهي (إيزيس)، وأنقذت لوسيوس فأعادته إلى هيئته البشرية. هذه احتمالات ومن حقنا كباحثين مغاربة وجزائريين تعقبها. بعد أن عمل معظم النقّاد الرومان والأوروبيين على إخفائها، والاكتفاء بإحاطتها بتساؤلات حائرة في أحسن الأحوال، كما فعل محررو موسوعة "يونيفرساليس"**[2]**. بل إن المؤرخين الرومان، والفرنسيين والجزائريين المتأثرين بهم، أسدلوا ستارا من التعتيم على الكاتب النوميدي الأصيل أبوليوس، في نفس الوقت الذي سلطوا فيه الأضواء على كتاب مترومنين كالقديس أوغسطيس وتيرتوليان وغيرهما.**

فالقديس أوغسطين لا يوجد فرق بينه وبين (الكاردينال لافيجري CH.Lavigerie) ي (1825 - 1892)، و(الأب فوكو CH. Foucauld) (1858 - 1916) أسماء كلها تدخل في قاموس مناهضة طموح الجزائريين والمغاربة

---

(1) المرجع السابق، ص 181 - 182.

(2) المرجع السابق، ص 181 - 182.

في التحرر من ربقة الاستعمار الروماني في عهد أوغسطين، ومن ربقة الاستعمار الفرنسي في عهد لافيجري وفوكو.

لقد انتبه القليل من المؤرخين العرب إلى هذه الحقائق. مثل المؤرخ المصري رشيد الناظوري، أستاذ مادة التاريخ القديم في جامعة الاسكندرية، الذي لم يأخذ ما كتبه المؤرخون الرومان والأوروبيون على أنه مجرد مسلمات، بل استعمل حاسة الاستقراء والنقد. يقول الناظوري عن استمرار نوميديا -حتى تحت الاحتلال الروماني- في حمل مشعل حضارة قرطاج أي الحضارة العربية القديمة.

«ففي المجال الديني جمع البربر بين مؤثرات العقيدة المحلية، والفينيقية، واليونانية الأصل، وبعض الملامح ذات الطابع المصري القديم. ويلاحظ أن المكتبة القرطاجية. بعد تدمير قرطاج، كانت من نصيب البربر، استكمالا لأداء هذه الوظيفة الفكرية»[1].

بل إنه يوجد بعض المؤرخين الأروبيين النزهاء الذين أنصفوا الساميين (العرب القدماء)، فاعتبروهم الأساتذة الذين لقنوا الدنيا كلها أصول الحضارة والفكر، عن طريق القرطاجنيين، والمصريين القدماء، (وقدماء المصريين ساميون مثلما يعترف بذلك حتى المؤرخين الأوروبيين النزهاء من أمثال بيير روسيه)[2].

واستطاعت المخترعات المصرية أن تنتشر بواسطة التجارة الفينيقية، فتصل أقصى الشرق في الهند والصين واليابان قبل أن تعبر المحيط الهادي، لتؤسس قاعدة ثقافة ماية بأمريكا الوسطى»[3].

لقد استمرّ العهد الروماني مدى ستة قرون مسيطرا بلا منافس على المغرب، من تاريخ تدمير مدينة قرطاج في 146 قبل الميلاد، وحتى غزو

---

(1) المغرب الكبير، ج1، د. رشيد الناظوري، ص 286.

(2) La Cite d'Isis, histoire vraie des Arabes, P. Rossi.

(3) Encyclopaedia Universalis, V.5.

الوندال لمغرب عام 429 ميلادي. لقد أشاد الرومان المدن، وأقاموا الحصون، وبنوا الطرق، ليس للشعب المغربي، وإنما لحماية جالية رومانية مستوطنة مستعمرة، تسيطر على سائر وسائل الإنتاج الزراعية، والصناعية والتجارية، وتستعمل الوطنيين كعبيد أو أقنان أرض. أو تسخرهم لشق الطرق وبناء القلاع. بل إن الرومان أعادوا الشعب المغربي القهقرى في القدم الحضاري. فالكثير من القبائل البربرية التي استقرت في العهد القرطاجي وتحولت من الرعي إلى الزراعة، عادت إلى بداوتها، بعد أن سلبها الرومان أراضيها، ووزعوها على النبلاء مثلما فعل الفرنسيون، ورثة الرومان المستعمرين في القرن التاسع عشر والعشرين بالجزائر.

بل حتى المدن التي بناها الرومان لحماية مصالحهم الاستغلالية لم يوجدوها من العدم، وإنما بنيت في نفس مواقع المدن القرطاجية السابقة. يقول الأستاذ الناضوري: «**ويمكن تلمس ذلك في المواقع الأثرية، حيث يلاحظ تواجد الطبقة الرومانية فوق الطبقة النوميدية أو الموريطانية، التي تقع بدورها فوق الطبقة القرطاجية. وذلك أن عملية اختيار هذه المواقع كانت تتفق مع اختيار الرواد الأول من الفينيقيين، من حيث صلاحية المكان وتناسبه مع كافة الأغراض الاقتصادية والدفاعية**»[1].

فالرومان إذن لم يخلقوا شيئا جديدا في المغرب، مثلما يزعم مؤرخوهم أو تلاميذهم من المؤرخين الجزائريين والمغاربة الببغاويين، وإنما اقتفوا الأثر العمراني الفينيقي ثم القرطاجي. يقول الأستاذ الناضوري:

«**وقد اعتمدت العمارة الرومانية بالمغرب على حد كبير على العمارة الشرقية واليونانية؛ وعلى سبيل المثال يلاحظ أن قوس النصر الروماني يمكن إرجاعه في أصوله التاريخية إلى الفن الأشوري. ويلاحظ أيضا وجود بعض**

(1) المغرب الكبير، ج1، د. رشيد الناظوري، ص 332.

المسلات المصرية في روما، وكذلك بعض المقابر الرومانية ذات الشكل الهرمي المصري القديم. وقد تميز المغرب في العصر الروماني في الصباغة الأرجوانية، من الأصداف المحلية على الساحل المغربي في نواحي جزيرة الصويرة. وترجع هذه الصناعة في أصولها إلى العصرين الفينيقي والقرطاجي، حيث كانت من الصناعات المستوردة أصلا من الساحل الفينيقي. هذا بالإضافة إلى صناعات أخرى مثل السجاجيد والأنسجة وغيرها. وتلزم الإشارة في هذا الصدد إلى دور القرطاجيين في إدخال الكثير من هذه الصناعات إلى المغرب قبل الرومان»[1].

إذن فمحاولة المؤرخين الأوروبيين، وتلاميذهم المغاربة والجزائريين، إقناعنا بأن الرومان هم الذين أدخلوا الزراعة ووسائلها، والصناعات، لا يعتمد على أساس تاريخي. ومن الغريب أن بعض مؤرخينا بالجزائر أخذوا هذه المحاولات كمسلمات غير قابلة للنقاش، فلم يسلكوا طريق المؤرخ المصري رشيد الناضوري، أو المؤرخ العراقي أحمد سوسة، أو حتى المؤرخ الفرنسي "بيير روسي" أو المؤرخ البريطاني "ويليام برنال" الذين قاموا بعملية استقراء ونقد لآراء المؤرخين الأوروبيين وهم يؤرخون للحضارة والثقافة بالوطن العربي. وأنا لا أنكر مساهمة الرومان في تطوير ما وجدوه من عناصر المدنية، مثل العمارة، والري، والزراعة. لكن طوروا شيئا وجدوه قائما، تركه بالمغرب الفينيقيون.

لقد حاول الرومان نشر الثقافة الرومانية ففرضوا **بالقوة اللغة اللاتينية وألغوا اللغة البونيقية**، التي كانت سائدة بالمغرب كلغة مدنية وإدارة وثقافة، مثلما فعل الفرنسيون بالجزائر، في القرنين التاسع عشر والعشرين بنشرهم للغة الفرنسية وإلغائهم للغة العربية من الحياة الرسمية. ولم يستطع الرومان نشر اللاتينية إلا بين أفراد طبقة تضم المستوطنين الرومان وعددا قليلا من المغاربة، كانوا يعيشون على فتات موائد المستوطنين الرومان. في نفس الوقت دفعوا الغالبية

---

(1) المرجع السابق، ص 334 – 339 و ص242، 243، 542.

العظمى من السكان إلى الأمية، عندما دفعوا الكثير من القبائل التي وجدوها مستقرة في الزراعة لدى دخولهم للمغرب، إلى العودة إلى الحياة البدوية، بعد أن جردوها من ممتلكاتها الزراعية. التي أقاموا فيها (اللوتيفوندات)، أي المزارع الرومانية. وهذا الأسلوب هو الذي أخذه عنهم الفرنسيون في القرنين التاسع عشر والعشرين بالجزائر. إن العهد الروماني مرّ على المغاربة كله ظلام وتقهقر. لقد حاولوا فرض اللغة اللاتينية لكن لم يتمكنوا من ذلك، لأن البربر استمروا في استخدام لهجاتهم البربرية المشتقة من اللغة البونيقية شفويا، واللغة البونيقية كتابيا. حاول الرومان فرض معتقداتهم الدينية على المغاربة، وعلى رأسها عبادة الإمبراطور الروماني، فاستجاب لذلك (يوبا) الثاني وأسرته وطبقته المترومنة، لكنّ -كما يقول الأستاذ الناضوري- البربر لم يتقبلوا ذلك بسهولة، فقد كانوا يعبدون آلهتهم البربرية مثل الربة "ثانيث" والقرطاجية مثل الإله "بعل عامون"[1].

وحتى المسيحية فقد اعتنقها البربر وحولوها إلى سلاح لمقاومة الرومان، الذين كانوا في عهدهم الأول يعارضون اعتناق المسيحية، وعندما اعتنقوا هذه الديانة صاغوا مذهبا خاصا مستمدا من بيئتهم وتراثهم، يحمل بذرة الثورة ضد الاستعمار الروماني، ألا وهو **المذهب الدوناتي**.

لم تتمكن العناصر الحضارية الرومانية، المادية والفكرية، من إيجاد مستقر لها بالمغرب. فقد استمر البربر يقاومون الرَّومنة، محافظين على تراثهم الحضاري البربري شفويا والقرطاجي كتابيا، واستمرت هذه المحافظة حتى في العهدين الوندالي والبيزنطي، يقول الأستاذ الناضوري:

«إن الحقيقة التاريخية التي يلمسها الباحث في التاريخ المغربي القديم أثناء العصر الروماني، هي احتفاظ المغرب بنزعته الحامية -السامية رغم

(1) نفس المصدر السابق.

محاولات الرومان المستمرة لطبعه بالطابع الروماني، في كافة المجالات الحضارية والمادية والفكرية. وهذه الحقيقة تؤكد الصفة المميزة للمغرب القديم، وهي أصالته المشرقية الأولى قبل العصر العربي. لقد استخدم الرومان، في هذا الصدد، الكثير من الوسائل الحربية المدنية المشروعة وغير المشروعة في سبيل تحقيق وجهة نظرهم، ولكنهم لم يتمكنوا من الوصول إلى غايتهم النهائية. والتفسير التاريخي لذلك، هو أن المغرب في العصر القرطاجي قد تمكن من الوصول إلى صميم العصر التاريخي، وبدأ يؤدي دوره السياسي والحضاري في منطقة البحر الأبيض المتوسط، على قدم المساواة بالدولة الرومانية. ولذلك لم يكن للاحتلال الروماني فاعليته الكاملة في تعديل هذا الاتجاه. إلى أن استقبل المغرب مرحلة حاسمة جديدة في التاريخ وهي المرحلة العربية، كوّن فيها المغرب والمشرق أمة عربية جديدة»[1].

أما **العهد الوندالي** فقد كان إيجابيا بالمغرب من ناحيتين: اقتصادية، وتتمثل في استرداد الكثير من الطبقات الكادحة من عمال الأرض الأجراء، ومن القبائل المطاردة، للأراضي التي صادرها الرومان. وثقافيا، بقضائه (أي العهد الوندالي) على الطبقة الرومانية أو المروْمنة، وبالتالي القضاء على اللاتينية والثقافة الرومانية. أو حسر انتشارها على الأقل لهذه اللغة، التي كانت قبل دخول الوندال مسيطرة على رقاب الثقافة المغربية الأصيلة، أي المشرقية السامية (العربية القديمة).

وهذا هو الذي يفسّر لماذا لم يحارب البربر الاحتلال الوندالي، في مرحلته الأولى، بل حاربوا، إلى جانب الوندال، الإمبراطورية الرومانية التي أذاقتهم الأمرّين واستغلوا تحالفهم مع جانصريك، الملك الوندالي، لتحرير أنفسهم اقتصاديا واسترداد أراضيهم الزراعية، بعد تفتيت هياكل (اللوتيفوندات)، وإعادة الاعتبار

(1) المرجع السابق.

لثقافتهم المشرقية. لكن عندما لمسوا في النصف الثاني من القرن لاحتلال الوندال لبلادهم، اتخاذ هذا الاحتلال طابعه الاستعماري الاستيطاني المعتمد على مصادرة أرض الفلاحين، وإقامة المزارع الإقطاعية الشبيهة باللوتيفوندات الرومانية، ثاروا عليهم. وتحولوا في آخر العهد الوندالي إلى سادة المغرب الذي صارت تحكم معظم أراضيه بواسطة إمارات بربرية قبلية مستقلة؛ يقول المؤرخ المصري الدكتور السيد عبد العزيز سالم: «**واشتدّ خطر هذه الثورة (الثورة البربرية) في عهد هلدريك، وكانت العامل الأساسي في إسقاط دولة الوندال في المغرب**»[1].

ومع دخول القائد البيزنطي بليزاريوس قرطاج وهزمه غيليمار، الإمبراطور الوندالي. بدأ **العهد البيزنطي**، الذي دام أكثر بقليل من قرن بالمغرب. ومرّ هذا القرن على المغرب في سلسلة من الثورات الطاحنة على الوجود البيزنطي. وخير ما يعبر عن هذا القرن خلاصة مستمدة من ثلاثة مؤرخين وهم: جوليان (Ch. A. Julien)، وبيليغرين (A.Pelegrin)، والسيد عبد العزيز سالم، وهي كما يلي: «انصرفت جهود الحاكم العام البيزنطي إلى جمع الأموال بالقوة، والضغط على السكان، دون التفرغ للإشراف على أعمال الإصلاح في البلاد. فكانت الإدارة البيزنطية تبذل كل جهدها لاستغلال السكان استغلالا فاحشا، وذلك بإرهاقهم بالضرائب الكثيرة وامتصاص كل مواردهم. واضطر المزارعون في نهاية الأمر إلى ترك مزارعهم، والتجار إلى غلق متاجرهم؛ وعمد الكثيرون إلى احتراف اللصوصية والاعتماد على قوائم سيوفهم. وكانت هذه المظالم عاملا أساسيا فيما أصاب المغرب من اضمحلال، كما كانت السبب في قيام الأهالي بالفتن والثورات المتواصلة».

---

(1) المغرب الكبير، ج2، د. السيد عبد العزيز سالم، ص 37.

الفتح الإسلامي:

في هذه الظروف دخل الإسلام المغرب وتمّ الفتح العربي، ووجد العرب استجابة واسعة لرسالتهم الإسلامية، ولثقافتهم العربية. ولم تكد تمر فترة تقل عن خمسين سنة، حتى وجدنا المغاربة من حدود ليبيا الشرقية وحتى شواطئ الأطلسي، وقد صاروا جميعا مسلمين وعربا، يتحدثون العربية ويكتبونها ويخطبون بها بفصاحة تندر حتى بين خطباء الجزيرة العربية، أو بين الغساسنة بالشام والمناذرة بالعراق.. لماذا؟، قيل لأن رسالة الإسلام عادلة ذات محتوى روحي محبب لنفوس الشعوب ذات التكوين القبلي. وهذا سبب وجيه ومعقول. لكن جل المؤرخين يقرّون أن أسبابا أخرى تكمن وراء الاستجابة السريعة للبربر للفتح الإسلامي - العربي بسبب أصلهم السامي، أي العربي القديم.

وسرعان ما انتشرت لغة الضاد بين البربر، حيث وجدت فيهم نفوسا مستعدة لتعلم العربية بسهولة، بسبب انتماء البربرية إلى أسرة اللغات السامية، أي إلى العربية القديمة، ووجدت الثقافة العربية بصورة عامة أن البيئة الثقافية السائدة بين البربر ليست غريبة عنها، بسبب محافظة البربر على ممارسات ثقافية فينيقية بونيقية. يقول الكعاك: «فقد حمل الفاتحون العرب معهم اللغة والدين ممثلين في القرآن الكريم، الذي، هو قوام الدين، ودستور سياسة، وبحر أخلاق، وقاموس لغة، وديوان ثقافة. لذلك بني الفتح على الثقافة في يوم الفتح نفسه»[1].

والمسجد بالإسلام هو مكان للعبادة ومدرسة وجامعة في نفس الوقت، ولهذا فقد أدّت المساجد دورا هاما في نشر العربية بين البربر. فعقبة بن نافع أسّس مسجد القيروان الجامع، وموسى بن نصير أسس مسجدي تلمسان وأغمات هيلانة، وإسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر والفقهاء المرافقون له أسسوا المساجد التالية: مسجد الرباطي، وجامع الزيتونة.

---

(1) مراكز الثقافة في المغرب، القاهرة 1958، ص 12، ص 14.

لقد كانت المساجد الأولى التي بناها المسلمون مراكز علمية هامة، ومعاهد للدرس والتحصيل قبل أن تظهر الجامعات والمدارس. ففيه كان يسمع التلاميذ على أساتذتهم في الفقه واللغة والحديث والقراءات، والطب والفلك، وغيرها من الدراسات العلمية: دينية وأدبية ولغوية. ولهذا نشهد ثلاث ظواهر في هذا القرن؛ الظاهرة الأولى، إنشاء المساجد في داخل بلاد البربر. والظاهرة الثانية: إرسال بعثات من علماء العرب وفقهائهم من التابعين إلى سائر أنحاء المغرب. والظاهرة الثالثة: تأسيس مساجد خاصة بقصد الأعمال الخيرية. وأشهرها بالقيروان مسجد الرباطي أو الحبلي، ومسجد أبي ميسرة، ومسجد بن خيرون الأندلسي»[1].

عهد الدول المستقلة بالمغرب العربي:

أسس البربر عدة دول بعد الفتح العربي وهي دول «**الرستميين، والصفويين، والأدارسة، والفاطميين، والزيريين، والمرابطين، والموحدين، والمرينيين، والحفصيين وبني عبد الواد**». وقد أسست هذه الدول كلها على أساس عربي - إسلامي. ولم تشذ واحدة عن ذلك، بل إنه لم يحدث طوال القرون الأربعة عشر أن طالب زعيم واحد بربري، بإقامة دولة على أساس بربري عرقي. بل إن الفضل في نشر العربية وآدابها وتعميم الإسلام بالمغرب العربي يعود إلى هذه الدول العشر.

وإذا استثنينا دولتي الأغالبة والأدارسة اللتين أسستهما أسرتان عربيتان، فإن بقية الدول قامت على أيدي أسر بربرية.

لقد زعم البعض بأن الدولة الرستمية أسست على قاعدة بربرية، بينما الحقائق تكذّب ذلك. فمؤسسو المذهب الإبّاضي الذي أقيمت عليه هذه الدولة، بل مؤسسو هذه الدولة الأوائل كانوا كلهم عربا من اليمن، وهم: عبد

(1) عثمان الكعاك: مراكز الثقافة في المغرب، القاهرة 1958، ص 12، ص 14.

الله بن تميم المرّي التميمي، وأبو الشعثاء جابر بن زيد الأزدي العماني، وأبو عبيدة مسلم، وسلمة بن سعد، وأبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المغافري اليمني. وهذا الأخير هو المؤسس الفعلي للدولة الإباضية التي تحول اسمها فيما بعد إلى الدولة الرستمية.

لقد عمل الرستميون البربر طوال فترة حكمهم التي دامت أكثر من قرن وربع قرن، على نشر علوم العربية والإسلام، وبناء المساجد من طرابلس حتى وهران، في سائر المدن والقرى، واتخذوها مدارس وجامعات لتحفيظ القرآن الكريم ونشر علوم العربية والإسلام. بل وكان أول إمام لهذه الدولة، أي أول رئيس لها عبد الرحمن بن رستم، عالما. ألّف كتابا في تفسير القرآن لم يصل إلينا. ويبدو أنه أتلف ضمن الصراع المذهبي إثر اضمحلال هذه الدولة. «وكان الإمام عبد الوهاب من رؤساء الدولة يحب العلم ويعمل على نشره وتشجيع اكتسابه. كان يرسل البعثات للعراق لشراء الكتب ولا يمل قراءتها شتاءً أو صيفا. وقد ألّف كتابا عنوانه "نوازل نفّوسة". وهو مجموعة من الفتاوى الشرعية، كان علماء نفوسة يستفتونه فيها»[1]. وكان الإمام أفلح عالما في الفلك والحساب، كما كان شاعرا. وله قصيدة يحثّ فيها على طلب العلم، يقول فيها:

العلمُ أبقى لأهـــل العلـــم آثـارا ... يُريك أشخاصَهم روحا وابكـــارا
حتى -وإن مات- ذو علم وذو ورع ... ما مات عبد قضى من ذاك أوطـارا
وذو حياة على جهـــل ومنقصـــة ... كميِّت قد ثوى في الرّمْس إعصارا
واجعله للّه لا تجعلـــه مفخـــرة ... ولا ترائي بـــه بدْوا وأحضـــارا

ولم تقتصر الثقافة في الدولة الرستمية على الرجال فحسب، بل شملت المرأة أيضا، حيث شاركت كثيرات منهن في ازدهار الحركة الثقافية والعلمية. منهن أخت الإمام أفلح التي حذقت علم الحساب والفلك والتنجيم.

(1) محمد علي دبوز، تاريخ المغرب الكبير، ط. القاهرة 1963. ج3، ص 361 - 373.

ومن مراكز الفكر والثقافة في الدولة الرستمية: مدينة تاهرت، ومدينة شروس، بجبل نفوسة ومدينة جادو، وقرية اجنان، وجزيرة جربة وورجلان. وبرز جبل نفوسة كمنارة للفكر والعلم في عهد الرستميين. وظهر به علماء بارزون منهم: (الشيخ مهدي النفوسي، ومحمد بن يانس، وأبو الحسن الأبدلاني، وعمروس بن فتح، ويعقوب بن أفلح، وأبو عبيدة عبد الحميد الجناوني، ومعبد الجناوني، وغيرهم. واشتهر من علماء تاهرت ابن أبي ادريس، وأحمد التيه، وأبو العباس بن فتحون، وعثمان بن الصفار، وأحمد بن منصور، وأبو عبيدة الأعرج. وقد سجل مآثر هؤلاء العلماء أحمد الدرجيني في طبقاته، وأحمد بن سعيد بن عبد الواحد الشماخي، في كتابه "السير"»[1].

وكانت تاهرت عاصمة الرستميين تضم مكتبة من أضخم ما عرفت مدن المغرب العربي، حيث حوت ثلاثمائة ألف مجلد من مختلف أنواع الآداب والفنون والعلوم، وقد قام بتخريبها الفاطميون عام 296 هـ، بعد أن حفظوا منها فقط كتب الرياضيات والفلك والهندسة والطب.

وقد قام هؤلاء العلماء الأجلاء، وغيرهم في عهد الدولة الرستمية بدور هام في نشر اللغة العربية وعلوم الدين بين البربر، وهذا رد حاسم على الشعوبيين بالمغرب العربي، الذين يحاولون طبع هذه الدولة بالطابع البربري العرقي الشعوبي، المعادي للانتماء العربي لأقطار المغرب.

وحكم بنو زيري -وهي أسرة بربرية- المغرب الأوسط والأدنى، وغرناطة وألميرية ما يقرب من قرنين. حكموا باسم الفاطميين، ثم حكموا مباشرة. وكانت من أهل الدول التي ساست المغرب والأندلس بقوة وحكمة وفروسية. ولم يخامر الزيريين في يوم من الأيام شك في أصالتهم العربية بل يعتبرون قبيلتهم صنهاجة البربرية، عربية، تعود أصولها العربية إلى الحميريين الذين

(1) المرجع السابق، ص 392 - 393.

هاجروا للمغرب قبل الفتح الإسلامي بكثير. فعندما ساءت علاقة أبو الفتح المنصور مع الخلافة الفاطمية في القاهرة عبّر عن طموحه في الاستئثار بحكم المغرب بدون المظلة الفاطمية، أمام شيوخ القبائل، الذين حضروا إلى القيروان لتهنئته بالإمارة، عندما قال لهم: «**إن أبي وجدي أخذا الناس بالسيف قهرا، وأنا لا آخذهم إلا بالإحسان، وما أنا في هذا الملك ممن يولّي بكتاب ويُعزل بكتاب، لأنني ورثته عن آبائي وأجدادي، وورثوه عن آبائهم وأجدادهم حمير**»[1].

وفي قول أبي الفتح هذا اعتزازه بالأصل العربي للبربر، وهو ما أكّده المؤرخون. وبالرغم من أن **غزوة بني هلال** للمغرب تمّت في عهد الزيريين، فإن هذا لم يزعزع إيمانهم بعروبتهم وعروبة البربر؛ مع أن إرسال بني هلال للمغرب تمّ بواسطة الخليفة الفاطمي المستنصر، وبنصيحة من وزيره محمد الحسن بن علي اليازوري، لإثارة الرعب للزيريين، بعد أن انفصلوا عن التبعية للفاطميين، إلا أن الزيريين اقتنعوا بأن بني هلال جاءوا المغرب لا ليؤسسوا مملكة تنافس دولتهم، وإنما جاءوا للإقامة الدائمة مثلما جاءت قبلهم من الجزيرة العربية وقبل الفتح الإسلامي بكثير، قبائل بني حمير، لتؤسس التجمع القبلي الكبير بالمغرب المسمى بالصنهاجيين، والذي ينتمي إليه الزيريون أنفسهم. استطاع بنو زيري والصنهاجيون البربر بصورة عامة، استيعاب إقامة بني هلال؛ واستمر الزيريون يحكمون المهدية، واستمر فرعهم، أي بنو حماد، في حكم بجاية، كما حكم سفاقس حمو بن مليل البرغواطي متحالفا مع بعض عشائر بني هلال مثل زغبة ورياح وعدي والأثبج. وحكم تونس ابن خراسان، وقابس موسى بن يحيى، وكلهم من صنهاجة.

وهكذا فقد أكّد التاريخ أن غزوة بني هلال للمغرب كانت إيجابية، لأنها ساهمت بحسم في تعريب أقطار المغرب العربي.

---

(1) ابن عذارى، ج1، ص 343. ابن الأثير، ج7، ص 121.

ويقول المؤرخ المصري السيد عبد العزيز سالم «كان لغزو الهلالية للمغرب رغم مضاره ومساوئه فضل كبير في تعريب البلاد، وتخفيف حدة اللهجات المحلية في القرى البربرية، التي لم تصل إليها إشعاعات الحضارة العربية»[1].

ومع تسرب الضعف إلى دولة الزيريين الذين كانوا يتصدون بشجاعة للطموح الصليبي في شواطئ المغرب العربي، قوي النورمنديون، وسقطت في أيديهم صقلية بل وهددوا شواطئ البلاد التونسية، وشنوا غارة على المهدية، جعلت الشاعر أبو الحسن الحداد يقول:

غزا حمانا العـدوّ في عـدد   هـم الدّبى كثرة أو اللفـف
عشرون ألفا ونصفُها ائتلفـوا   من كلّ أوب وليتَ ما ائتلفـوا
جـاءوا على غرّة إلى نفـر   قد جهلوا في الحروب ما عرفوا

إن هذه الدولة الصنهاجية بفرعيها بني زيري في المغرب الأدنى، وبني حماد في المغرب الأوسط، والتي دام حكمها ما يقرب من قرنين، أدت دورها كاملا في تطوير المغرب بالميادين العمرانية والفكرية والفنية. وصل نفوذ هذه الأسرة البربرية حتى الأندلس، حيث حكم أحد فروعها وهو فرع بني حبوس بن ماكس إمارة غرناطة والبيرة ثمانين سنة تقريبا. إن هذه الدولة الصنهاجية البربرية أكدت حقيقة الأصل العربي للبربر، فطوال حكمها بالمغرب والأندلس لم يبرز تصرف واحد من أمير من أمرائها يشير إلى شعوبية أو عنصرية بربرية، بل اعتبروا أنفسهم عربا ترجع أصولهم العربية إلى ما قبل الفتح الإسلامي بكثير؛ بل وبرزت هذه الأسرة بفروعها الثلاثة سائر الإمارات والممالك العربية في المشرق في ميدان تطوير الحضارة العربية الإسلامية في سائر حقولها. وتنافس الشعراء والأدباء والمغنون للوصول إلى المنصات الثقافية في قصورهم، سواء في غرناطة أو المهدية أو قلعة بني حماد أو بجاية، وحتى في أحلك الأعمال التخريبية التي قام

---

(1) المغرب الكبير، ج2، د. السيد عبد العزيز سالم، ص 672 – 673.

بها أعراب بني هلال في مدن إمارتيهما، لم يصدر أي رد فعل منهم ضد العرب كعرب. وإنما فسروا ظاهرة الهلاليين بتفسيرها الصحيح وهو التفسير البدوي.

ورغم أن أعراب بني هلال أرسلوا من طرف الفاطميين بالقاهرة لتدمير دولتهم، كما بيّنا، فقد واجههم أمراء بني زيري وبني حماد بأسلوب حكيم، حيث تمكنوا من استيعابهم داخل المجتمع المغربي العربي المسلم. ولم يمض عدد قليل من العقود حتى ذاب بنو هلال كليا في المجتمع المغربي، الذي استطاع بحيويته وصلابة إيمانه بعروبته وإسلامه إفراز دولتين كبيرتين، أسستهما أسرتان بربريتان هما دولة المرابطين، ودولة الموحدين، اللتان لعبتا دورا كبيرا في تطوير الحضارة العربية الإسلامية بالمغرب والأندلس، وفي التصدي للمد الصليبي الأروبي ضد كيان الدولة العربية الإسلامية وفي تأجيل سقوط الأندلس. **هذا دليل قاطع على أن البربر ليسوا جنسا آخر غير العرب، وأن اللغة البربرية ما هي إلا إحدى اللهجات العربية القديمة، التي لا زال لها وجود حتى الآن باليمن. وهذا رد مفحم على تلاميذ المؤرخين الأروبيين، أصحاب مدرسة التبشير الاستعماري الشعوبي بالمغرب العربي.**

أشاد المرابطون المساجد والمدن والقلاع، وازدهرت الحياة الثقافية في عهدهم ازدهارا جعل مؤرخا كالمراكشي، يقول في عهدي يوسف بن تاشفين وابنه:

«فانقطع إلى أمير المسلمين من الجزيرة من أهل كل علم فحوله، حتى أشبهت حضرته حضرة بني العباس في صدر دولتهم. واجتمع له ولابنه من أعيان الكتاب، وفرسان البلاغة، ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصار، ومن هؤلاء أبو بكر الملقب بابن القصير كاتب المعتمد، والوزير أبو محمد عبد المجيد بن عبدون، وأبو القاسم بن الجد المعرف بالأحدب، وأبو بكر محمد بن محمد المعروف بابن القبوسية، وأبو عبد الله بن أبي الخصال وأخوه مروان، وغيرهم»[1].

---

(1) المغرب الكبير، ج2، د. السيد عبد العزيز سالم، ص 672 - 693.

أما **الموحدون** فقد تركوا بدورهم آثارا عربية إسلامية كبيرة. أكثر مما تركته أية دولة سبقتهم. بل وخلفوا وراءهم مدرسة خاصة لهم في فن العمارة والتلوين والزخرفة، عكست النضج الذي وصلت إليه الفنون الإسلامية العربية، في هذه المرحلة المتأخرة من تاريخ الحضارة العربية الإسلامية. وازدهرت الحركة الأدبية ازدهارا كبيرا، وعرفت اللغة العربية أزهى فترات انتشارها في عهد الموحدين. ولاقى رجال الأدب رعاية كبيرة، من طرف خلفائهم، الذين عينوا منهم الولاة والموظفين السامين للدولة.

وبعد سقوط دولة الموحدين بدأت **العهود المظلمة** في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية. ومع ذلك فقد استمرت الدول التي أعقبتهم والتي أسستها أسر بربرية أيضا، وهي دول **المرينيين** بالمغرب الأقصى. وبني **عبد الواد** بالمغرب الأوسط، وبني **حفص** بالمغرب الأدنى. استمرت حاملة مشعل الحضارة والثقافة العربية والإسلام في المغرب والأندلس. فالشاعر الأندلسي أبو عبد الله بن الأبّار، وجّه سينيته المشهورة التي يستنجد فيها لتخليص المسلمين بالأندلس من الخطر الصليبي، وجهها إلى **أبي زكريا يحيى الحفصي**، والتي ورد فيها:

أدركْ بخيلِك خيلَ اللّه أندلُســـــا ... إن السّبيلَ إلى منجاتِهـــا درســـا
وهبْ لها من عزيز النّصر ما التمستْ ... فلم يزلْ منك عزّ النّصــر مُلتمســا
يا للجزيرة أضحى أهلُهـــا جُزُرًا ... للنائبـــات وأمسى جِـدُّها تَعِســـا
تقاسَـم الروم لا نالتْ مقاسمهـــمْ ... إلا عقائلها المحجوبـــة الأنســـا
وفي بلنسية منهـــــا وقرطبـــة ... ما يُذهب النفس أو ما يُنزف النّفسا
مدائنُ حلها الإشْـــــراك مبتسمـــا ... جذلانَ، وارتحل الإيمانُ مبتئســـا
ما للمساجد عــادتْ للعِـدى بيعـــا ... وللنّــداء يُرى أثنـــاءها جرســـا

واستجاب الأمير أبو زكريا لهذه الصرخة وأرسل إلى الأندلسيين المنكوبين أسطولا محملا بالمؤن والأسلحة. كما أقبل المهاجرون الأندلسيون على الدولة الحفصية للإقامة فيها حيث وجدوا الرعاية والتكريم.

وهكذا حكمت هذه الأسر البربرية الثلاث، كسالفاتها، المغرب بروح عربية إسلامية، أبعد ما تكون عن العنصرية. ولم يخطُر ببال أمير من أمرائها أن يقيم دولة على أساس بربري عرقي عنصري؛ بل كانوا يعتبرون أنفسهم عربا مسلمين، يدافعون عن أمجاد العروبة والإسلام، وسنشرون لغة الضاد والثقافة العربية. ويذودون عن حياض العروبة والإسلام. حاولوا نجدة إخوانهم بالأندلس، وعندما عجزوا عن إنقاذهم، فتحوا أبواب دولهم أمام الهجرات الأندلسية، وكانت هذه الدول نعم الملجأ لهؤلاء الفارين، من هول المدّ الصليبي الإسباني والبرتغالي.

الاستعمار الفرنسي والشعوبية:

وخلاصة هذا العرض التاريخي أن الشعوبية، أي معاداة الانتماء العربي، أو التشكيك في الانتماء العربي، هي نتيجة للاستعمار الفرنسي الذي دام قرنا وثلث قرن بالجزائر، وبالمغرب العربي. فقد عمل الفرنسيون على إفراز طبقة من المثقفين متكونين من جناحين، يكمل أحدهما الآخر: الأول ينادي ببربرية الجزائر، والثاني ينادي بلا عروبة الجزائر التي هي في نظرهم أمة مستقلة بذاتها، ولا حاجة إلى أن تتحد مع أي قطر آخر. وأن الصحراء الليبية هي فاصل بين المغرب والمشرق العربي، وأن مصير الجزائر وأقطار المغرب مع أروبا المتقدمة، وليس مع بلدان (الشرق الأوسط) المتخلفة. وأن الوحدة العربية المنشودة هي مجرد تعاون اقتصادي مصلحي، وأن الثقافة أو لغة الثقافة لابد وأن تستمر مزدوجة: فرنسية في ميدان العلوم والتقنية وحتى الأدب، ولغة

جزائرية (أي دارجة جزائرية) في ميدان الفنون والآداب. لأن العربية الفصحى ميتة -في رأيهم- كاللاتينية بالنسبة لبلدان أوروبا اللاتينية.

ومن الغريب أن اليمين الجزائري واليسار الجزائري المتكونين بالفرنسية، يتفقان على هذه الأفكار، التي تؤدي إلى نتيجة واحدة: إلى معاداة انتماء الجزائر العربي.

وقد استطاع فلاسفة الفرنكفونية الاستراتيجيون أن يعملوا بالجزائر المستقلة تحت عدة مظلات وشعارات نحو هدف واحد، هو منع الجزائر من ممارسة انتمائها العربي، واتخذت الفرنكفونية بالجزائر عدة أقنعة.

اتخذت القناع التكنولوجي، فقيل إن العربية لا تفيد الجزائر لأنها لغة متخلفة، وأنه إن أريد للجزائر أن تتقدم فما عليها إلا الإبقاء على سيادة اللغة الفرنسية في الميدان العلمي والتكنولوجي والصناعي.

واتخذت الفرنكفونية القناع البربري، فقيل إن الجزائر ليست عربية، وأن العرب غزاة، وأن العربية لغة دخيلة، ولابد من إعادة الجزائر إلى أصالتها ولغتها البربريتين -تحت مظلة الفرنسية طبعا-.

واتخذت الفرنكفونية القناع الماركسي، فقال الماركسيون الجزائريون: «بأن اللغة العربية لغة الدين، وهي مؤهلة لأن تتحول إلى لغة رجعية، وهي بالفعل مستعملة من طرف فئة رجعية، ولابد من استبدالها بلغة جزائرية تقدمية. وهذا لا يكون إلا بالدارجة، وإلى أن يحين ذلك فلابد من الحفاظ على استمرار الفرنسية التي صارت بعد قرن وثلث قرن من الاحتلال الفرنسي لغة شعبية»[1].

فالماركسية إذن دخلت الجزائر المستقلة، بعد أن مرّت على مصفاة الفرنكفونية بباريس، لأن لينين نفسه بعد ثورة 1917 سمع من بعض رفاقه رأيهم

---

(1) ذكر ذلك كاتب ياسين في محاضرة ألقاها في شتاء 1981 بجامعة الجزائر.

باستبدال اللغة الروسية، لأنها لغة القيصرية والإقطاع والرجعية، بلغة روسيا الشعبية، أي الدارجة، فرفض قائلا: «لن نتخلى عن لغتنا الروسية الجميلة.. التي آن الأوان لكي نستعملها كأداة ضد الرجعية والإقطاع». ووصف رفاقه هؤلاء باليساريين الصبيانيين.

إذن فقد تعددت الأسباب والموت واحد كما يقول الشاعر العربي: تعددت الأقنعة والهدف واحد، وهو القضاء على انتماء الجزائر العربي.

الثقافة في العهد الاستعماري:

كان مخطط الاستعمار -طوال وجوده بالجزائر- مبنيا على إفراغ الشخصية الجزائرية من مضمونها القومي، لإحلال مضمون الشخصية الفرنسية محلها. وكان يشرف على تطبيق هذا المخطط أساتذة الاستعمار الفرنسي، وهم متخصصون في العلوم الإنسانية، وعارفون بالدقائق الخفية للتركيب النفسي والاجتماعي للفرد.

كان هذا المخطط ذا حدين متوازيين متكاملين: الأول مباشر، وهو غلق جميع الفرص أمام الجزائري الذي تمكنه من تعلم لغته الوطنية، وهذا يطبق في المدرسة على الخصوص؛ وخطورته ليست كبرى، لأنه مرئي مباشر يسهل على أي ملاحظ كشفه. ووضوحه هذا جعل تاريخ بلادنا مليئا بردود الفعل الإيجابية ضده، تتمثل في حركات الإصلاح التي كانت تحث الشعب على تأسيس الزوايا، ثم المدارس الشعبية، للإبقاء على لغته حية.

أما الحد الثاني للمخطط الاستعماري فهو غير مباشر، أي لا مرئي، وهذا جعل خطورته كبيرة، وجعل تاريخ بلادنا خاليا من أي رد فعل له. وهذا الحد نستطيع أن نوجزه في عبارة واحدة وهي: «إفساد الذوق الفني الجزائري في الأغنية والموسيقى والمسرح». أما الجهاز الذي أشرف على تطبيق هذه الخطة في ميدان الثقافة والفنون ببلادنا، فهو جهاز الإذاعة، ثم الإذاعة والتلفزة الفرنسية».

لقد رأى أساتذة الاستعمار الفرنسي أن الفن ليس كاللغة يستطيعون أن يشطبوه بجرة قلم، وذلك بجعل اللغة الفرنسية اللغة الرسمية بالتعليم والإدارة وجميع مظاهر الحياة بالجزائر، أي لا يستطيعون إلغاء الأغنية الجزائرية وإحلال الأغنية الفرنسية محلها، لأن الأغنية لا تلقن في المدرسة، وإنما الذي يستطيعون عمله هو التدنّي بالأغنية الجزائرية وبكلماتها، وبالمسرح ولغته، وبالموسيقى وصنعتها، إلى مستوى الرداءة؛ حتى إذا ما شبت الأجيال الجزائرية المثقفة مجتها أذواقها، وانصرفت عنها إلى الأغنية الفرنسية والموسيقى الفرنسية. وهكذا نجح فرع الإذاعة، ثم الإذاعة والتلفزة الفرنسية بالجزائر في خلق "المدرسة الفنية الرديئة" ببلادنا.

ومن سوء حظ الفنون الجزائرية أن حركات الإصلاح نادت بتعليم اللغة العربية فقط بوسائل وإمكانيات الشعب، دون أن تهتم بالفنون، لأنها كانت تنظر إليها نظرتها إلى شيء حرام. وهكذا خلا الجو لمنظري الاستعمار يمرحون كما يشاءون في هذا القطاع من الثقافة.

أما عن لغة المسرح أو الحوار المسرحي فإن اللهجات الجزائرية عموما، وخاصة لهجة العاصمة، تعتبر أفقر اللهجات قدرة على التعبير في العالم العربي، لماذا؟

الجواب بديهي وبسيط، لأن اللهجة في سورية مثلا لم تنفصل عن لغة المدرسة ولغة الثقافة ولغة الإدارة منذ خروج العالم العربي من العصور المظلم، بل بقيت مرتبطة بها تستمد منها المفردات التي تعبر عن عناصر المدنية الحديثة، واللغة العربية استمرت مستعملة في المدارس والإدارات وفي سائر مظاهر حياة سوريا والبلدان العربية الأخرى.

أما في الجزائر فمنذ 1830، تحولت اللغة الرسمية: لغة المدرسة والعمل ومظاهر الحياة (الرسمية)، إلى اللغة الفرنسية، أي حدث انفصال بين

لغة المدرسة والإدارة والعمل، ولغة الشارع، لغة الحديث العادي، ولم تجد اللهجة أو اللهجات الدارجة الجزائرية أمامها سوى اللغة الفرنسية، تستمد منها المفردات المعبرة عن عناصر المدنية الحديثة، ومن هنا جاء فقرها من جهة، وحشوها بالمفردات الفرنسية من جهة ثانية.

المسألة الثقافية منذ 1962:

من المعروف أن الاهتمام الجزائري في التنمية انصبّ على الجانب المادي الآلي في هذه السنوات الثلاثين من استقلال البلاد، والمتمثل في بناء المصانع والمؤسسات الاقتصادية، مع إهمال شبه تام للجانب الثقافي والفني، الذي يؤدي دورا رئيسيا في إنجاح أية خطة تنموية وتعميق تأثيراتها، وفعالية ثمارها، ورعاية وصيانة منجزاتها. فقد بلغت حصة الثقافة في ميزانية الدولة عام 1978 (0,007 ٪) أي سبعة في الألف. في حين تبلغ حصة الثقافة في ميزانيات الدول المتقدمة 3 ٪ والثقافة غير التعليم طبعا.

ومع غياب خطة ثقافية (علمية)، ترك العمل الثقافي يسير بطريقة عشوائية لم يتخلص من رواسب العهد الاستعماري، فمفهوم الثقافة لازال تسيطر عليه مفاهيم "المدرسة الرديئة" التي أوجدها أساتذة الاستعمار قبل الاستقلال. والتي لعبت -كما بيّنا- مؤسسة "الإذاعة، ثم الإذاعة والتلفزة الفرنسية" دورا حاسما في خلقها ورعايتها.

وتتمثل مدرسة الثقافة والفن هذه فيما يلي:

1 - **ترك الأغنية الجزائرية والموسيقى الجزائرية** تسيران وفقا للصدف بين أيدي جيش من المؤلفين والملحنين (المزعومين) يقدر عددهم بالمئات، جلّهم جاهل بأبسط مبادئ علم الموسيقى، وبتراث الفنون الشعبية، وباللغة الوطنية؛ وهذا الوضع أدى إلى نقل الأغاني والألحان الشعبية نقلا فوتوغرافيا،

وعزفها بالآلات الحديثة كما هي، وغنائها بأصوات ينقصها في غالب الأحيان التهذيب، وتقديمها على شاشة التلفزة أو على موجات الإذاعة. ولابد لنا من استثناء بعض المحاولات الناجحة في الموسيقى أو الأغنية الجزائرية الحديثة. إلا أن الاستثناء غير القاعدة.

2 - في ميدان السينما:

بذلت جهود أسفرت عن إخراج أفلام حصلت على جوائز دولية وكفى.. أفلا أقل ما يقال فيها تدخل في إطار (النخبة)، وأبعد ما تكون عن إطار (الطليعة). وصار هم مخرجينا التنافس على الدخول إلى الساحة الدولية، لصنع أفلام قليلة، تنفق عليها الدولة بسخاء بل وببذخ وتبذير لم يعرفه أي بلد نام. وتحولت ميزانيتنا إلى صنع مخرجين بالملايير، بدل إيجاد صنعة سينمائية جزائرية جماهيرية تساهم في تربية جماهيرنا الأمية المتخلفة، وتعمل على رفع مستواها، بواسطة جمهرة واسعة من الأفلام.

مخرجونا وممثلونا يجهل جلّهم اللغة الوطنية، ولم يبذلوا أي جهد منذ الاستقلال لتعلمها. ولنتصور أن مخرجا أو ممثلا روسيا يجهل الغة الروسية، ومخرجا أو ممثلا فرنسيا يجهل اللغة الفرنسية ولا يعرف كتابتها، ومخرجا أو ممثلا إيطاليا يجهل اللغة الإيطالية ولا يعرف كتابة اسمه بحروفها.. لكن هذا الوضع نجده قائما في الجزائر، وينظر إليه على أنه شاذ مؤقت ينبغي إزالته، وإنما ينظر إليه على أنه باق وأبدي. مخرجون جزائريون كبار وممثلون كبار يجهلون كتابة أسمائهم بالعربية، ولا يتحدثون ولا يمارسون عملهم إلا بالغة الفرنسية. وبمجرد أو أؤقفت الدولة تمويلها للأفلام، مات هؤلاء المخرجون فنيا.

ونجم عن هذا الوضع إهمال دور الكلمة في الفيلم الجزائري، ودور الكلمة حاسم في أي صنعة سينمائية، لأن الفن السينمائي (كلمة وصورة). بالكلمة نستخرج مكنونات النفس البشرية التي تعتبر عالما بأسره، وبالكلمة تبث مبادئ

قيمنا ويحدث إقناع الناس بها، ثم ألم يميز الإنسان عن الحيوان بالنطق؟ ألا تعتبر نقطة التحول الحاسمة في تاريخ البشرية اكتشاف الحروف الأبجدية على أيدي أجدادنا الفينيقيين؟ ألم يجد الموسيقار الألماني العظيم "لايدفينغ بيتهوفن L. Beethoven" نفسه عاجزا عن التعبير عما يريد بالأنغام الموسيقية فقط، فأدخل أصوات المجموعة (الكورال) في الحركة الأخيرة من سمفونيته الخالدة التاسعة، لتقوم بإنشاد قصيدة (الفرحة الإلهية) للشاعر الكبير "شيلر F. Schiller"، خارقا بذلك سائر قواعد وأصول الصنعة السمفونية في عصره؟

ومنذ الاستقلال وقاعات السينما التي تملكها جميعا الدولة تعرض أفلاما ناطقة بالفرنسية، وهذا أمر غريب، فالسينما التي تعتبر أكبر أداة تتحكم في أذواق الناس وميولهم وتربيتهم في العصر الحديث، لازالت تسيطر عليها سيطرة مطلقة لغة مستعمرنا السابق. كل فيلم سواء أكان روسيا أو إيطاليا أو أمريكيا يعرض في قاعات السينما أو على شاشة التلفزة ناطقا باللغة الفرنسية. ومعنى أن الفيلم السينمائي الأجنبي المعروض بالجزائر حكر على الذين يعرفون الفرنسية فقط، ومن لا يعرف هذه اللغة لا يحق له أن يشاهد فيلما سينمائيا، والمواطن الذي يعرف اللغة الوطنية فقط محكوم عليه أن يحرم من مشاهدة فيلم أجنبي بالجزائر؟ وهذا أمر يتناقض مع أبسط مبادئ الاستقلال والسيادة.

إن الرومان والكوبيين والألبانيين يعرضون أفلاما إما ناطقة بلغاتهم أو مترجمة كتابة عن هذه اللغات. فألمانيا مثلا منعت منذ أكثر من عشرين سنة بث فيلم أو مسلسل إذا لم يكن مدبلجا أي ناطقا بالألمانية.

إن المسألة لا تكمن في تعريب نشرة الأخبار الرئيسية بالتلفزة، ولا في تعريب نقل مباريات كرة القدم على الشاشة الصغيرة، فهذان الإجراءان مهمان، لكن أهم منهما تعريب قطاع العروض السينمائية.

3 - إذا انتقلنا إلى ميدان **الصحافة المكتوبة** وجدنا أن عهد الاستقلال قصر كثيرا في ميدان الكلمة المكتوبة بالعربية، فنشر الكتاب ضئيل يكاد لا يذكر. وحتى استيراد الكتب لا يتم إلا في حدود ضيقة وخاصة إذا كان كتابا عربيا.

أما الصحافة فإن من يطلع على الإحصائيات يكتشف الأرقام المهولة، التي تشير إلى انتشار ساحق للصحافة المكتوبة بالفرنسية، على حساب الصحيفة بالعربية، لا لأن قراء الفرنسية كثيرون وإنما لأن 90 ٪ من الإعلانات التي تصدر عن القطاع العام التي تمثّل 80 ٪ من الإعلانات بالبلاد تعطى للصحف الفرنسية. ثم إن هذه الصحف أسست بأموال الدولة في نهاية الثمانينيات.

إن هذه الأرقام تدل على أن التيار المناهض للغة العربية وللثقافة العربية، وللحرف العربي، هو الذي يسود إعلامنا بتشجيع من الدولة.

إن عرض الفيلم الأجنبي السينمائي بالفرنسية، واتساع انتشار الصحافة المكتوبة باللغة الفرنسية على حساب انتشار الصحافة المكتوبة باللغة الوطنية، واستمرار سيطرة اللغة الفرنسية على الإدارة والوحدات الإنتاجية، وعلى العلوم والتكنولوجيا وعلى مراكز البحث عندنا، ونظرة الاحتقار التي ينظر بها للمثقف باللغة الوطنية، وعدم توظيف حاملي الشهادات المعربة، واستمرار مراكز التكوين في العمل بالفرنسية، كلها أجزاء في صورة واحدة كاملة متكاملة، إذا أوجزنا معانيها قلنا بأنها: «سيطرة مطلقة للغة مستعمرنا السابق على سائر مرافق حياتنا وحقول العمل باقتصادنا»، وهذا أمر يتنافى مع أبسط مبادئ الاستقلال والسيادة، ومع نجاعة فاعلية مخططات التنمية.

ما هي الثقافة الوطنية المنشودة؟

لا يمكن أن تكون لنا لغة فن مسرحي وسينمائي، إلا إذا كان المؤلف والممثل والمخرج يتقنون اللغة العربية. والمؤلف الذي يحسن العربية يكون

قادرا على القيام -أثناء تأليفه- بعملية استبدال الكلمات الفرنسية من اللهجة الجزائرية بكلمات عربية، وبعملية تقويم بصورة عامة لما اعوج وشوه في لهجتنا من جراء الاستعمار الثقافي واللغوي الطويل.

وإذا كانت اللهجة الدارجة العربية تصلح للحوار المسرحي أو الأغنية في البلدان العربية الأخرى، فهي لا تصلح أن تقوم بهذه الوظيفة بالجزائر، وذلك لتدني لهجة العاصمة على الخصوص، ولهجة العاصمة في أي بلد هي التي تسود على سائر اللهجات الأخرى.

ثم إن الدعوة للدارجة تتناقض مع أبسط المبادئ التقدمية، فماركس يقول: «بضرورة وجود لغة وطنية لأمة ما، كشكل أعلى تخضع لها أشكال أدنى من اللهجات».

وفي مناسبة أخرى يقول ماركس: «إن تمركز اللهجات في لغة وطنية واحدة هو نتيجة للتمركز الاقتصادي والسياسي للبلاد»[1]. ويروي ستالين: «بأن إنجلز يتحدث عن اللهجات وهو على علم تماما أنها فرع من اللغة الوطنية، وأن اللهجة لا يمكن أن تحل محل اللغة الوطنية»[2].

إذن فمحاولة رفع شعار اللهجة بديلا للغة الوطنية باسم التقدمية بالجزائر لا يعتمد على أي أساس، ومحاولة جعل الزجالين الشعبيين شعراء كاملي الشاعرية كما تحاول مهرجانات الفولكلور تثبيته أمر مشبوه، يدخل في إطار مناهضة التعريب، ويتناقض مع أبسط المفاهيم التقدمية.

لقد بدأت الجزائر تعليم اللغة العربية بمدارسها الرسمية منذ ثلاثين سنة فقط. تعلمها كلغة دون أن تتيح لها فرصة ممارسة الحياة اليومية العملية... وتلزمنا عدة عقود من السنوات، لكي تتهذب لهجة العاصمة وتثرى وتطوع وتكتسب المرونة

(1) الماركسية وقضايا علم اللغة، ستالين، موسكو، 1950.
(2) نفس المصدر.

التعبيرية، وتصبح لهجة جديدة في إمكانها أن تستعمل بالحوال المسرحي أو ببعض برامج الإذاعة، مثلما هو جار في مصر أو سورية مثلا...

أما عن ثنائية اللغة، لغة المدرسة والثقافة، ولغة الشارع، التي يحاولون التهويل منها، فإنها ظاهرة توجد حتى في البلدان المتطورة. فلغة "أندريه مالرو A. Malrou" غير مفهومة من سواد الشعب الفرنسي... بل إن النقاد الفرنسيين يصنفون الكتاب الفرنسيين إلى نوعين: نوع يكتب بلغة خاصة وللخواص كـ "مالرو A. Malrou" و"مورياك F. Mauriac" و"سارتر J. P. Sartre". ونوع آخر يكتب بلغة فرنسية مبسطة أقرب إلى لغة التخاطب مثل "أراغون L. Aragon".

فالثنائية اللغوية توجد في أي بلد بالعالم... ودور رجال تربيتنا وكتّابنا، وصحفيينا ينبغي أن يقوم بتبسيط لغة المدرسة ولغة الثقافة تبسيطا يكون أقرب إلى لغة التخاطب، وهذا ما يجري بالجزائر وسائر أقطار الوطن العربي. من قال إننا نكتب بلغة امرئ القيس والشنفرى؟ إن أقرب طريق لإيجاد لغة مرنة بسيطة هو الاستعمال اليومي للغة العربية بالإدارة والمصنع والمزرعة وغيرها من الوحدات الإنتاجية، مع عملنا الدائب على صقلها، وتبسيطها، وتقريبها من لغة التخاطب، لا أن نرسّم صورتها المشوّهة التي كانت نتيجة لتخلف القرون المظلمة، ولعهد طويل من استعمار ثقافي ولغوي.

دور الفنون الشعبية:

إذا سلّمنا بأن لغة التعبير عن أشكال الثقافة لابد وأن تكون العربية مع استبعاد الفرنسية، فإن رجال الثقافة ببلادنا أدباء وفنانين ملزمون بأن يؤسسوا ما يكتبون، وما يؤلفون، وما يلحّنون على أساس شرعي، أي شعبي، أي على أساس التراث الشعبي والفنون الشعبية. أي ما يسمى (بالفولكلور). فالموسيقار الألماني "برامز J. Brahms" برقصاته المجرية. والموسيقار

الفرنسي ذو الأصل الروسي "سترافنسكي I. Stravinsky" "ببيتروشكاه" وطائره الناري، وبقربان ربيعه؛ والموسيقار الإسباني "إيمانوال ديفايه M. Defalla" بسمفونيته "ليال في رياض الأندلس". والموسيقار الإيطالي "فيردي G. Verdi" بأوبراه "ريجو ليتو"؛ والكاتب الفرنسي "بالزاك H. Balzac"، والسكوتلاندي "وولتر سكوت W. Scott"، والروسي "جوركي M. Gorki"، برواياتهم. وغيرهم من الموسيقيين والأدباء الكبار، أمثلة حية على بناء فن وأدب مرتكزتين على أساس شرعي أي شعبي.

فالأديب ينبغي ألا يكتب إلا إذا قرأ العشرات من القصائد الشعبية والأمثال والحكم الشعبية، والملحن ينبغي عليه ألا يلحن إلا إذا استمع إلى العشرات من الألحان الشعبية، وأن تأتي أغنيته أو قطعته الموسيقية مرتكزة على تراثنا الشعبي مثلما تفعل مدرسة (الأخوين رحباني) بلبنان؛ ومثلما فعلت مدرسة سيد درويش في مصر. ومدرسة الملاّ عثمان الموصلي بالعراق.

نفس الشيء ينبغي أن يتم في ميدان الرقص. وأفضل مثل يحتذى هو مجموعات الرقص الشعبي في البلدان الاشتراكية.

إن إيجاد أدب وفن جزائريين شرعيين لا يكمن في الانغلاق في التعبير باللغة الفرنسية بطريقة اللقطات السياحية؛ ولا يكمن أيضا في الكتابة السلفية بعقلية متحجرة؛ ولا يتحقق هذا الأدب أو الفن المنشود إلا إذا كان الأديب أو الفنان الجزائري مالكا للغة العربية يستعملها كأداة للتعبير من جهة، ومرتكزا على التراث الشعبي من جهة ثانية.

بعد الاستقلال، قام المسؤولون على وزارة الإعلام والثقافة بتجربة في الاهتمام بالفلكلور، غلب عليها الطابع السياحي بدل الطابع الجاد، وتمثلت هذه التجربة في (مهرجانات الفولكلور) التي عرضت -بالساحات العامة

للمدن الجزائرية، وعبر شبكات (الأوروفيزيون) بأروبا- رقصات شعبية خاما كما هي دون تهذيب أو تشذيب... وهو أمر لم يسبق لبلد أن قام به. ومن المؤسف أن المسؤولين في وزارة الإعلام والثقافة أعادوا هذه التجربة في سنة 1978 وكذلك سنة 2000.

كان من المفروض على هؤلاء المسؤولين أن ينفقوا هذه الأموال لا على مهرجانات آنية قد تولد ردود فعل تذوقية سلبية لدى سكان المدن إزاء الفنون الشعبية. وإنما المفروض أن ينفقوها على عملية جمع هادئ رزين للفنون الشعبية، بالقلم وآلة تسجيل الصوت، وآلة التصوير، لكل ما قيل من زجل وحكم وأمثال، ولكل ما غني من أغان، ولكل ما عزف من ألحان موسيقية، ولكل رقصة شعبية وطلعة فروسية. ثم وضعها في مكتبات للتراث الشعبي في كل مدينة وقرية، تكون في متناول أدبائنا وملحنينا، ومؤلفي موسيقانا الحاليين والمستقبليين؛ وهذا ما سبقت أقطار العالم إليه البلدان الإسكندنافية، التي تعتبر أول أقطار العالم اهتمت بالفولكلور، منذ القرن السابع عشر.

والعقلية السيّاحية الموروثة عن مفهوم الفنون الشعبية في العهد الاستعماري، التي سيطرت على مبتكري أسلوب هذه المهرجانات السياحية، أهملت أهم شيء يميّز تراثنا الشعبي بالعالم ألا وهو الموسيقى التصويرية الشعبية، لأن تذوق ومعرفة هذا النوع الراقي من موسيقانا الشعبية يتجاوز القشرة السياحية للثقافة، أو لما يسمى بالثقافة، ويتطلب تعمقا متغلغلا في الذات الجزائرية والثقافة الشعبية الجزائرية، وهذا لا يكون إلا إذا كان الباحث مالكا للغة الوطنية. ولم تسجل لنا مهرجانات (الفولكلور) المذكورة قطعة واحدة من موسيقانا التصويرية الشعبية التي ينعدم وجودها في أي (فولكلور) بالعالم. بل إن التصوير بالموسيقى كان قمة ما وصلت إليه الموسيقى الكلاسيكية الأوروبية عندما أفرز تطورها ما يسمى

في علم الموسيقى (بالقصيد السمفوني). وهذه القطع التي لم تكشفها مهرجاناتنا رغم شهرتها وانتشارها هي: (الأسد... والنحل... والخيل... والإبل... واللحن بوسبع ريشات.. ولحن محمد بن أحمد.. والركروكي بترقيدته...) إلى غير ذلك، من روائع موسيقانا الوصفية الشعبية، التي تؤدّي بآلة (القصبة)، دون أن ترافقها كلمات؛ فتروي أساطير، أو ترسم حياة حيوان، أو حياة فنان.

إن النهضة الثقافية الفنية ببلادنا لابد وأن تركز -في رأيي- على خمسة عناصر:

أولا: عنصر اللغة العربية الفصحى المبسطة طبعا، في التعبير، نظرا لأن لهجة عاصمتنا فقيرة، بسبب طول سيطرة الاستعمار الثقافي اللغوي على بلادنا. وعنصر تراث اللغة العربية.

ثانيا: عنصر الفنون الشعبية التي لابد وأن نقوم بجمعها سواء المكتوب منها أو المنغوم أو فنون الإيقاع. نجمعها في مكتبات على مستوى كل ولاية حتى يجد فيها ملحنونا ومؤلفونا مادة لإقامة أدب أو فن شرعي، مرتبط بالأرضية التاريخية والاجتماعية لشعبنا. وينبغي أن نكف عن نقل هذه الفنون خاما كما هي، أمام سكان المدن في المهرجانات الفولكلورية التقليدية، التي انتشرت في عهد الاستقلال.

ثالثا: إقامة معاهد على أسس علمية جادة لفن التمثيل المسرحي، والسينمائي، وفن الموسيقى. معاهد قادرة على إخراج جيل من الملحنين والمؤلفين والممثلين، يملكون الأدوات التقنية للصنعة السينمائية والمسرحية والموسيقية.

رابعا: عنصر التربية الإسلامية بالارتكاز على قيم ديننا الحنيف.

خامسا: عنصر الحس القومي الوحدوي، أي جعل ثقافتنا ترتكز على العمل القومي الوحدوي، وتعمل لتحقيق هدف استراتيجي وهو الوحدة العربية. فالوحدات القومية الكبرى التي تحققت في التاريخ الإنساني المعاصر، كالوحدة

الألمانية، والوحدة الإيطالية، والوحدة البولونية، تحققت بفضل مساهمة المفكرين والكتّاب والفنانين الألمان والإيطاليين والبولونيين. ولمدة عشرات السنوات، في تحقيق الحسّ الوحدوي القومي لبلدانهم.

وهذا العنصر يأتي في صميم الميثاق، فقد ورد فيه ما يلي:

«إن الجزائر تعمل جادة في سبيل الوحدة العربية. وتؤمن بإمكانية تحقيقها، لأنها أصبحت في عهد التجمعات الكبرى، مطلبا مستعجلا لرقي الشعوب العربية، ويدل تاريخ السنوات الأخيرة، على أن الأحداث تتطور لصالح هذه الوحدة، وقد مضى الوقت الذي كانت تبدو فيه مجرد وهم».

حوار حول

مقومات الشخصية الوطنية الجزائرية

في إطار حملة إعداد ملف السياسة الثقافية بأجهزة الإعلام الجزائرية خلال النصف الأول لسنة 1981. نشرت جريدتا المجاهد، والشعب يوم 5/ 3/ 1981 مقالا بعنوان: «تأملات حول الشخصية الوطنية الجزائرية» بقلم ابن الحكيم[1].

وقد حاور المؤلف الأفكار والتحليلات التي تضمنها المقال المذكور، ونشر هذا الحوار في جريدة الشعب بعدديها 4 و5 أفريل 1981[2].

مسألة قرطاج:

الملاحظة الأولى التي أود تقديمها للأستاذ (ابن الحكيم) أن موقع قرطاج من تاريخ بلادنا يختلف عن موقع روما، لأنني فهمت من سياق مقاله، أنه يضع قرطاج وروما في كيس واحد وهو الكيس الاستعماري، لقد قال: «وينبغي أن نؤكد أن الرومان لم يتمكنوا أبدا، وكذلك القرطاجيون بطبيعة الحال، من احتلال البلاد ككل...».

إن روما إمبراطورية مستعمرة بالنسبة لنا نحن المغاربة. بينما قرطاج ليست كذلك. إن الإمبراطورية القرطاجية هي ثمرة تزاوج الفينيقيين والبربر، الذين يعودون إلى أصل واحد وهو الأصل السامي (أي العربي القديم). فالفينيقيون عندما كانوا في الساحل السوري، كانوا يسمون فينيقيين فقط. لكن عندما انتقلوا إلى الساحل المغربي وتمازجوا مع العنصر البربري (المحلي) مدة قرون، انبثقت عن هذا التمازج حضارة جديدة، هي الحضارة القرطاجية، فأثروا في البربر بحيث ساعدوهم على الخروج من العصر الحجري الحديث. وتأثروا بالبربر فاكتسبوا عادات وتقاليد بل ومعتقدات منهم. ويكاد سائر المؤرخين يجمعون على أن البربر، في الوقت الذي كانوا يرفضون فيه التفاعل

---

(1) ابن الحكيم هو الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي.

(2) ليلاحظ القارئ الكريم أن هذا الحوار دار قبل خمس عشرة سنة، وأن المحاذير التي ذكرتها على إثارة النزعة البربرية تحققت وبحدّة، فحتى ثلاثية الهوية المتمثلة في (العروبة والإسلام والأمازيغية) يُتوجه الآن لتحقيقها دستوريا. ولا أدري ما موقف الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي الآن، الذي لا يشك أي مواطن في وطنيته الصادقة.

مع روما كجسم غريب عن كيانهم. تفاعلوا وانفعلوا مع سائر العناصر السامية مثل الفينيقيين، والمصريين القدماء:

1) لقد حكم البربر مصر القديمة ما يقرب من ثلاثة قرون، عندما أسس ششنق الأول (البربري)، الأسرة الفرعونية الثانية والعشرين عام 950 ق.م، واستمر حكم البربر لمصر خلال الأسرة الثالثة والعشرين أيضا. وبهذا فإنني كمغربي (وبربري) أعتبر نفسي مساهما في الحضارة المصرية القديمة بأهراماتها ومومياها وثقافتها الراقية.

2) لقد عبد القرطاجيون الإلهة البربرية (ثانيت) وهي إهة الإنتاج والخصوبة عندهم، يؤكد أصلها البربري أو بربريتها المؤرخ البريطاني "وارمينغتون B. H. Warmington"[1]، كما كانوا يمارسون عادة الوشم وهي عادة بربرية ذات معتقدات دينية. الهدف منها في الأصل إبعاد الأرواح الشريرة.

3) أن البربر يعتبرون شركاء الفينيقيين في الفتوحات الحضارية القرطاجية على الساحل الإفريقي الغربي، والساحل الأروبي الغربي، وعلى الساحل البرازيلي بأمريكا، مثل رحلة (هانو) التي تمكن فيها البحارة الرواد القرطاجيون من الوصول إلى ساحل كونغو، والتي لازال نص أثري يوناني يشهد عليها، بعد أن ضاع النص البونيقي، وعنوان النص: (تقرير عن رحلة "هانو" ملك القرطاجيين إلى أجزاء من إفريقيا، فيما وراء المضيق "جبل طارق" والذي قدمه إلى معبد الإله بعل).

4) تمكنت في نفس الفترة الزمنية رحلة قرطاجية بقيادة (ماجو) من عبور الصحراء الكبرى ثلاث مرات، والوصول إلى منطقتي النيجر والسنغال، ولا يمكن لـ (ماجو) أن يقوم بهذا الاستكشاف التاريخي الكبير بدون مساعدة القبائل البربرية البدوية، قبائل الجدالة.

(1) قرطاج، وارمنغتون، ص 129 (لندن 1960) (بالإنكليزية).

5) إن عبور القرطاجيين للمحيط الأطلسي ووصولهم إلى الساحل الأمريكي، وتأسيسهم هناك لحضارة "ماية"، التي لازالت تشهد عليها نصوص أثرية، يعتبر إنجازا بربريا أيضا.

6) يقول المؤرخ المصري "رشيد الناضوري": «عندما اتّصل الفينيقيون بالبربر، الذين كانوا لايزالون في مرحلة العصر الحجري الحديث، بدأت العلاقات الفينيقية - البربرية في التطور في المجالات الاقتصادية والحضارية، مما ساعد على انتقال البربر من المرحلة القبلية البحتة، إلى مراحل أكثر تقدما، نحو تكوين دولة بربرية أثناء العصر القرطاجي[1] كما أن صناعة البرونز والعاج والعظم والزجاج والأصباغ، وخاصة اللون الأرجواني منها، المستخرج من الأصداف البحرية، من ابتكار الفينيقيين، نقلوها إلى أي بلد وصلته فتوحاتهم[2]. أما الزراعة واستئناس الحيوان فالمؤرخون يتّفقون على أن العرب القدماء، أو الساميين، هم روادها الأول، يقول المؤرخ البريطاني (ديورانت): «إن هناك ما يدل على أن الحضارة وهي هنا زراعة الحبوب، واستخدام الحيوانات المستأنسة، قد ظهرت في العهود القديمة غير المدونة في بلاد العرب، ثم انتشرت منها في صورة مثلث ثقافي إلى ما بين النهرين: سومر وبابل وأشور وإلى مصر»[3].

ومن غير شك فإن هذه الاستكشافات قد وصلت المغرب عن طريق الفينيقيين والهجرات السامية.

7) تأثر القرطاجيون بالثقافة الإفريقية الزنجية أيضا، حيث كانوا -مثلا- يصارعون القوى الشريرة، التي تهددهم وتهدد أمنهم كأفراد وجماعة، باستعمال أسلوب يرجع في أصوله إلى إفريقيا الزنجية، وهي صنع أقنعة

---

(1) رشيد الناضوري، المغرب الكبير، ص 221، القاهرة 1966.

(2) المرجع السابق.

(3) قصة الحضارة، ديورانت، ص 43، الترجمة العربية، ج2.

طينية تحمل صورا شيطانية، يلبسها الإنسان أو يضعها في منزله أو مقبرته، لإخافة هذه القوى الشريرة وطردها؛ ويغلّب المؤرخون الرأي القائل بأن توصل القرطاجيين إلى هذا التقليد، كان نتيجة اتصالهم التجاري والحضاري البري والبحري مع إفريقيا الزنجية، وهذا يعطي قرطاج صفة الدولة الإفريقية، لا جغرافيا فقط، وإنما ثقافيا أيضا.

8) عندما دمر الرومان قرطاج بالتعاون مع عملائهم بالمغرب -وتدمير قرطاج جريمة إنسانية حضارية وكارثة مغربية- تمكن عقلاء البربر والأصلاء منهم، من إنقاذ مكتبة قرطاج من التدمير، هذه المكتبة التي صارت من نصيب البربر، استكمالا واستمرارا لأداء الوظيفة الحضارية والثقافية والفكرية (الشرقية) التي كانت تقوم بها قرطاج، والتصدي للمؤامرة الرومانية المتمثلة في قطع المغرب عن أصوله المشرقية، ليتم ربطه نهائيا بأوروبا سياسيا، وثقافيا، وحضاريا، أي لتتم رومنته بالكامل. وبقي البربر يمارسون الثقافة الشرقية المتمثلة في البونيقية، ويعبدون آلهتهم وآلهة قرطاج[1]. كما استمرت جامعة قرطاج رغم تحويل هذه المدينة إلى عاصمة الإدارة الاستعمارية الرومانية بالمغرب، تشع إشعاعات حضارية شرقية، الأمر الذي جعل كاتبا نوميديا "كأبوليوس" (125 - 180م) يشعر وهو في قرطاج أنه يقيم في بلده بل وفي بيته»[2].

فهذه العناصر الثمانية التي أعرضها على الكاتب المحترم (ابن الحكيم) دليل قاطع على أن دولة قرطاج كانت دولة مغربية، جنوب بحر متوسطية، إفريقية. ومن هنا أخلص إلى أن الردّ الفعال على مقولة الرئيس جيسكار ديستان لدى زيارته للجزائر، ليس في سرد أسماء (مسينيسا ويوبا الأول، ومسيبسا، فقط)، وإنما بالتأكيد على عمقنا الحضاري الشرقي، وعلى انتمائنا إلى أعرق حضارة عرفتها

(1) رشيد الناضوري، ص 286.

(2) موسوعة يونيفرساليس، م2، ص 181 (فرنسي).

البشرية، وإلى الأصل السامي الذي كان المعلم الأول للإنسان، ألم يبتكر أجدادنا الكنعانيون الكتابة سنة 1850 ق.م، هذه الكتابة التي طورها القرطاجيون -أي نحن- ونشروها في أروبا والعالم فيما بين 850 و750 ق.م[1]. إن الرد الفعال على تلك المقولة هو أنه في الوقت الذي كان فيه الساميون أجدادنا يمارسون حضارات راقية، كانت فيه أروبا لازالت مغطاة بالجليد، أي في طي العدم بما فيها فرنسا.

إنني أتفق معكم عندما تقولون: «فنحن في أشد الحاجة إلى إعادة النظر في تاريخنا»، أو فيما كتب من تاريخنا، إن التوجيه الخفي لكتابة تاريخنا الذي بدأه المؤرخون الرومان وأكمله المؤرخون الفرنسيون، هو المتسبب في إسدال ستار من التعتيم على الزعيم النوميدي سيفاكس الذي لم أجد له أثرا في مقالكم. "سيفاكس" زوج حسناء عصرها (صفان بعل) ومعناها بالبونيقية (صفاء الله) وهي عبارة عربية كما ترى. "سيفاكس" الذي استشهد والسيف في يده دفاعا عن قرطاج، المملكة المغربية الإفريقية، ضد روما الأروبية الغربية المستعمرة، ومن الغريب أن "أبوليوس" الكاتب النوميدي (الجزائري) الذي ولد في مدينة "مداوروش" سنة 125م، قد اكتشف بحسه الوطني، اضطهاد ذكرى "سيفاكس" من طرف المؤرخين الرومان، فأعاد لها الاعتبار في كتبه، متجاهلا شقيقه "ماسينيسا"؛ الأمر الذي جعل الحكام الرومان يضطهدون "أبوليوس" ويحاكمونه. ولا أبالغ إذا قلت بأن "أبوليوس" هو في مستوى "هوميروس" و"اسخيلوس"، اليونانيين و"فيرجيل" اللاتيني. وملحمته "الحمار الذهبي" سماها النقاد الأروبيون بـ "الإلياذة الأفلاطونية". لكن المؤرخين الرومان، أسدلوا على هذا الكاتب ستارا من التعتيم فورثنا ذلك عنهم.

ألم يطرح الأستاذ (ابن الحكيم) على نفسه السؤال التالي: لماذا بعد قرون طويلة من الإسلام والتعريب عاد الأتراك أتراكا، والفرس فرسا، رغم أن الأمتين

(1) حضارة العرب ومراحل تطورها عبر العصور، أحمد سوسة، بغداد 1979.

التركية والفارسية تقعان على أطراف الجزيرة العربية، بينما تعرب البربر في نصف قرن فقط، واستمروا عربا حتى الآن، رغم بعد المسافة بين الجزيرة العربية والمغرب العربي؟ الجواب عندي، هو أن البربر ساميون، وأن كل الحضارات السامية، مثل المصرية القديمة، والقرطاجية، إنجازات شارك فيها البربر، ولهذا فعندما جاء العرب وجد البربر فيهم إخوانا لهم يعودون معهم إلى أصل واحد، فكوّنوا معهم هذا التجمع العربي الكبير المسمى بالأمة العربية، وهذا هو الذي عناه الشيخ البشير الإبراهيمي بقوله: «... وكأن الأمم التي كانت تغطي هذه الأرض (الشمال الإفريقي) قبل الاتصال بالعرب كانت مهيأة للاتصال بالعرب، أو كأن وشائج من القربى كانت مخبوءة في الزمن، فظهرت لوقتها، وكانت نائمة في التاريخ فتنبهت لحينها».

إذن فتصنيف قرطاج في صف المحتل والمستعمر هو من خلق مؤرخي الاستعمار الروماني، ثبته فيما بعد مؤرخو الاستعمار الفرنسي، ليقطعونا عن جذورنا الحضارية السامية الشرقية قبل الإسلام، والعربية بعد الإسلام، وليسهل لهم تحقيق رومنة نوميديا في العصر الروماني، وفرنسة الجزائر في العهد الفرنسي، وجعلها تدور بلا جذور، في ظل الفرنكفونية، بعد الاستقلال.

المسألة البربرية:

أما المسألة الثانية التي أود مناقشة الأستاذ (ابن الحكيم) فيها فهي المسألة البربرية، وأنا أناقش هذا الموضوع بلا عقدة، لأني من الذين يقال عنهم بربر، من الشاوية، من منطقة الأوراس النمامشة، التي أنجبت سائر زعماء البربر: من يوغرطا وتاكفاريناس، وحتى "كسيلة" و"الكاهنة". فتسمية "كسيلة" الأصلية شاوية، اسمه الحقيقي في رأيي (آكسل) وهذه الكلمة تعني في اللهجة الشاوية النمر، بل إن سائر المفكرين ابتداءً من "أبوليوس" النوميدي الأصيل، حتى

"تيرتوليان" و"فيليكس" و"أوغسطين" المترومنين، كلهم من مدينة مداوروش التي تقع في منطقة الشاوية. هؤلاء الشاوية، الذين يصرون، والآن أكثر من أي وقت مضى، ألا يوصفوا إلا بصفة عربي.

يذكر الأستاذ (ابن الحكيم) أحيانا عبارة "البربر الأقحاح" وأحيانا يذكر كلمة "الأمازيغ" وأحبّ أن أؤكد أن البربر، عرب في أصولهم، عرب في لهجاتهم، عرب في مشاعرهم. وأنا أرفض كشاوي أن أوصف بالبربري، وأصرّ ألا أوصف إلا بالعربي المسلم. بل إن التجمعات البربرية من صحراء سيوة في مصر وحتى المحيط الأطلسي، يتّخذون أسماء إما جغرافية وإما مهنية (كالشاوية، وبني مزاب...). أما كلمة "أمازيغ" فهي كلمة لا وجود لها إلا بالقاموس العربي، فكلمة (الأمازر) تعني: الأقوياء أشداء القلوب، وقد أورد لسان العرب بيتين من الشعر للأخفش، وردت فيهما هذه الكلمة، قال:

إليك ابنة الأعيار خافي بسالةَ الـ رجالِ وأصلالُ الرجال أقاصِرُهُ
ولا تذهبَنْ عيناكِ في كلِّ شرمح طوالٍ فإنّ الأقصرينَ أمــازِرُهُ[1]

فكلمة أمازيغ كلمة عربية أصيلة.

البربر عرب كما قلت. سائر النسابة البربر الذين ذكرهم حتى ابن خلدون في تاريخه، ينسبون قبائلهم إلى أصول عربية. المؤرخون العرب، يؤكدون ذلك، بل إن المؤرخين وعلماء اللغة الأروبيين "النزهاء طبعا" يؤكدون ذلك أيضا.

"باسيه" الفرنسي يقدر عدد اللهجات البربرية بخمسة آلاف لهجة، ويقول: «بأنها كلها مضروبة بالطابع العربي»[2].

مؤرخو مادة بربر بموسوعة "يونيفرساليس Universalis" الفرنسية يقولون: «أن اللغة البربرية في استعمالها الحالي، هي امتداد لصيغ اللغة العربية»[3]، كما

(1) لسان العرب، ابن منظور، ج7، ص 20.
(2) ص 171 موسوعة يونيفرساليس، ج3.
(3) المرجع السابق.

يؤكدون أيضا: «بأن الآداب البربرية الهزيلة الشفوية البحتة، تتكون من أساطير من الحيوانات، ومن قصص خرافية وأغان تقليدية أو مرتجلة، والواضح فيها كلها أنها مستمدة من المشرق العربي»[1].

المؤرخ الأمريكي "وليام لانغر" يقول: «وتتصل اللغة المصرية القديمة واللغات السامية، ولغات البربر بأصل واحد»[2].

"غوستاف لوبون" الفرنسي، يقول: أن لغة البربر العريقة في القدم يحتمل أن تكون مشتقة من الفينيقية»[3].

"روسلر" الألماني، يقول:« إن اللغة النوميدية لغة سامية، انفصلت عن اللغات السامية في الشرق، في مرحلة مغرقة في القدم، ثم تطورت بعد ذلك في اتجاه خاص جعلها تبدو مختلفة عن باقي اللغات السامية، واعتبر "روسلر" كثيرا من الجوانب الصوتية والصرفية والمعجمية في اللغة النوميدية القديمة، عبارة عن تغيرات حدثت بعد انفصالها عن الأصل القديم المشترك. وقد أوضح "روسلر" اشتقاق كثير من الكلمات النوميدية على أساس المقارنة باللغات السامية بالمشرق[4].

عالم اللغات القديمة الأمريكي "غرينبرغ" والأستاذ بجامعة أنديانا الأمريكية يشير إلى الكثير من هذه الصفات المشتركة في البنية اللغوية والنحوية بين البربرية والعربية في كتابة "لغات إفريقيا"[5].

الدراسات المعجمية التي قمت بها أسفرت عن أن جل الكلمات البربرية إن لم تكن كلها، لها وجود في قاموس اللغة العربية، وأنا أجيد العربية والبربرية (الشاوية)[6].

---

(1) المرجع السابق.

(2) الموسوعة التاريخية، وليام لانغر، الترجمة العربية، ج1، ص 45.

(3) حضارة العرب، غ. لوبون، الترجمة العربية، ط2، ص 301.

(4) مجلة الشرق، (الطبعة الألمانية) مجلد (1964)، ص 199 - 216.

(5) غرينبيرغ، لغات إفريقيا، جامعة إنديانا، 1966 (انكليزي).

(6) راجع البحث «الأصول العربية للبربر».

السعيد الزاهري، نشر سنة 1934 مقالا بمجلة المقتطف المصرية، عنوانه (هل البربر عرب؟) أكّد فيه الأصل العربي للبربر، وللغة البربرية، التي سماها لغة الضاد، كالعربية، لوجود حرف الضاد بها[1].

قال ابن الحكيم: «وكما أن الأوروبيين درجوا في العصر الوسيط على تعجيم الأسماء العربية حتى أصبح القارئ لا يعرف أن "أفسيان" هو ابن سيناء، وأن "أفيرويس" هو ابن رشد، فكذلك نجد أن تعريب الأسماء البربرية من بعض المؤلفين، جعل الناس يظنون أن القبائل والسلالات الملكية ورجال الفكر، والقادة العسكريين، الذين يحملون أسماء عربية، أصل هؤلاء جميعا عرب جاءوا من وراء البحر الأحمر، بينما هم بربر أقحاح، فأمثال هذه الأخطاء تشوه الرؤيا إلى الماضي تماما وتحدث أسوأ الأثر في السلوك».

لا أدري لماذا هذا النبش في الماضي وفي هذه الظروف بالذات؟ ولا أتصور أنه من الموضوعية أن نقارن بين تعامل الأوروبيين مع الأسماء العربية، وتعامل العرب مع الأسماء البربرية، لأن المسافة التي تفصل -في الأصول- بين العرب والبربر معدومة بينما لا يوجد أي تقارب في الأصول بين العرب والأوروبيين. ثم إن الإسلام الذي يجمع بين البربر والعرب ينعدم وجوده في العلاقة الأوروبية العربية. إذن فالتشبيه الذي قام به الأستاذ ابن الحكيم في غير محله. ولا أدري هل الأستاذ يتفق معي في أن البربر عندما اعتنقوا الإسلام، صاروا يطلقون على أبنائهم، بل وعلى أنفسهم، وباختيارهم، أسماء إسلامية، ولا أقول عربية: كأحمد ومحمد، وعمر، وخالد، وياسر، وعمار، وغيرها. لم يحدثنا التاريخ أن العرب كانوا يفرضون على البربر أن يتسمّوا أو يسمّوا أبناءهم بأسماء عربية. أما عن تسميات القبائل البربرية، فإنها تسميات أقل ما يقال فيها أنها تسميات متوافقة أو متفقة في أصلها مع المخارج الصوتية للنطق العربي،

(1) مجلة المقتطف المصرية، مايو 1934.

إن لم تكن أسماء عربية في أصولها، وهو الأرجح. والذي يؤكد ذلك، ووفقا لرواية المؤرخين الرومان، أن البربر في عهد يوغرطا وتاكفاريناس كانوا يسمون بالهضاب "بالمزالة"، وبالجنوب "بالجدالة"، والتسميتان عربيتان كما ترون، وقد عرفتا قبل الفتح الإسلامي، بأكثر من سبعة قرون. ومما يؤكد ذلك أن اسم (العربي لا يوجد إلا عند البربر، وهذا تيمنا منهم باسم (محمد العربي). وعندما صنف الفرنسيون في بداية هذا القرن الأسر الجزائرية في الحالة المدنية، وطلبوا من الجزائريين اقتراح أسماء لأسرهم، اختار كثير من القبايل الاسم (عربي) كلقب لعائلاتهم. من قال إن المؤرخين العرب هم الذين تعمدوا تغيير أسماء القبائل البربرية؟ لماذا لا نفرض أن هذه الأسماء هي نفسها التي كانت متداولة قبل الفتح الإسلامي، مثل تداول مزالة وجدالة؟ أو أن النسابة البربر أنفسهم هم الذين قاموا بتحويرها. كلها افتراضات محتملة.

لقد أشار (ابن الحكيم) في مقالة للشيخ ابن باديس، «كان يردف اسمه بوصف الصنهاجي، ولعله أراد بذلك أن يعرب عن جزائريته». إن ابن خلدون الذي شكك في الأصل العربي لبعض القبائل البربرية، أكّد الأصل العربي لصنهاجة عندما قال في تاريخه: «ولا خلاف بين النسابة العرب أن شعوب البربر الذين قدمنا ذكرهم كلهم من البربر، إلّا صنهاجة وكتامة فإن بين نسابة العرب خلافا، والمشهور أنهم من اليمنية، وعندي أنهم من إخوانهم (أي من العرب) والله أعلم»[1]؛ والأمير الزيري الصنهاجي، أبو الفتح المنصور، يؤكد عروبة ويمنية صنهاجة عندما يقول: «إن أبي وجدي أخذا الناس بالسيف قهرا، وأنا لا آخذهم إلا بالإحسان، وما أنا في هذا الملك ممن يولّى بكتاب ويعزل بكتاب، لأنني ورثته عن آبائي وأجدادي وورثوه عن آبائهم وأجدادهم حمير»[2].

(1) تاريخ ابن خلدون، ج6، ص 343، ابن الأثير، ج7، ص 121.
(2) ابن عذارى، ج1، ص 343، ابن الأثير، ج7، ص 121.

فابن باديس إذن عندما كان يوقع بالصنهاجي لم يكن يعني أنه بربري، بل كان مقتنعا وهو المطلع على التاريخ في أصوله الحقيقية، أنه كصنهاجي يعتبر عربيا عاربا لا مستعربا. ثم إن فكر ابن باديس في كثير من القضايا أكمله الشيخ البشير الإبراهيمي، لأن الأول توفي قبل الحرب العالمية الثانية، هذه الحرب التي أحدثت هزة ثقافية وفكرية بالعالم، ونجم عنها تحديد الكثير من المفاهيم بالساحة الجزائرية والعربية، كانت مبهمة في الماضي. والإبراهيمي الذي امتد به العمر إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية بعقدين كاملين، والذي أنتج جل إنتاجه الأدبي والفكري في هذين العقدين، يعتبر أدق من ابن باديس في تناول "العروبة" والمسألة البربرية. خاصة وأن الإبراهيمي كان أديبا واسع الثقافة، بينما كان ابن باديس مصلحا دينيا أكثر منه أديبا. ثم إن الإبراهيمي وابن باديس وغيرهما أشخاصغير معصومين، نأخذ من أقوالهما ما يصلح لنا نحن الذين نعيش في الثمانينيات من قرننا، ونترك ما كان صالحا لزمنهما فحسب. ألم يقل الرسول صلوات الله عليه وسلم ما معناه: «خذوا عني أمور دينكم أما أمور دنياكم فأنتم أدرى بها».

وفي نهاية الأربعينيات أوجد الوالي العام الفرنسي بالجزائر "شاتينيون" خطة لتدمير الحركة الوطنية من الداخل، وذلك بإثارة النعرة البربرية، وتصدّى "لشاتينيون" ومن مخبإ في "سالومبييه" بالعاصمة، ديدوش مراد "القبائلي" بشعار (البربر عرب). وانعكس هذا على كثير من المقالات والقصائد التي نشرت في الصحافة الوطنية. ولنستمع إلى قول الشاعر عيسى حمو النوري (المزابي) وهو يفتخر بالأصل العربي للبربر في قصيدة مدح فيها الشيخ بيوض، ونشرت بالبصائر عام 1951:

للشرق آيُ من جمـــال خالـــدِ ... تعنو لها في العالَـم الأقطــابُ
من رائعات الشّرق بيّوضُ الذي ... نسلَ الشمالُ وأنجبتْ ميـــزابُ

والعبقرية من فضائـــــل نبْتـــه إن أرجعت لأصولها الأعشـابُ
ودمُ العروبة في العروق مراجـل تغلي، وتُومض تحتها الأنسـاب
أكذبْ بما قال المعمّـر ضلّـــة إن المعمّر ساحـــــــر كــذّاب

البعد العربي للجزائر:

الملاحظة الثالثة التي أود تقديمها للأستاذ الفاضل (ابن الحكيم) تدور حول البعد العربي للجزائر: أرضا وشعبا وأفرادا، ليسمح لي الأستاذ أن أصارحه أن هذا البعد باهت اللون في مقاله، وكما تكلمت في المسألة البربرية بلا عقدة. فأنا أتكلم في المسألة العربية وفي الإسلام بلا عقدة أيضا.

أولا: لأنني من الذين يقال عنهم بربر، ولا يمكن أن يتهمني أحد بأني متعصب للعرب.

ثانيا: أنا خريج معهد عبد الحميد بن باديس بقسنطينة، التابع لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين الذي أعتبره أول مؤسسة تعليمية وطنية أسست على التقوى والعمل الصالح وطنيا بالأربعينيات. ولهذا فإني أتكلم عن الإسلام بلا عقدة.

العروبة والإسلام يعتبران وجهي عملة الهوية الوطنية الجزائرية، ولا ثالث لهما، والقول بأن الجزائري مسلم فقط أمر محفوف بالمخاطر، لأن الإسلام دين وليس هوية، والدولة الفرنسية الآن في إحصائياتها الرسمية تقول بأن الإسلام يعتبر الدين الثاني بعد المسيحية الكاثوليكية بفرنسا، ويعد المسلمون الفرنسيون الآن بالملايين. ولا نستطيع أبدا أن نرفض إسلام هؤلاء لأنهم مواطنون في أمة ليست عضوا في المؤتمر الإسلامي، أو في جامعة الدول العربية؛ **ثم إن الفرنسيين طوال استعمارهم لبلادنا لم ينكروا علينا صفة مسلم. بل كانت هذه الصفة مثبتة في بطاقة تعريف الجزائري إلى جانب صفة فرنسي.**

ولكنهم أنكروا علينا صفة عربي، بل كانوا لا يتطرقون لصفة عربي إلا إذا أرادوا تحقير الجزائري، فيطلقون عبارات كـ «العربي القذر» و«بيكو ترافاي أراب».

لا أنكر أبدا أن الإسلام أدى دور الحامي للهوية العربية الجزائرية، وأن الفرنسيين تآمروا عليه، أي على الإسلام بالجزائر، لا لأنه دين فقط، وإنما لأنه القلعة التي حمت بأسوارها المنيعة هوية الجزائر.

لقد ذكرتم في مقالكم بأن الميثاق قال: «إن الجزائر مرتبطة بالوطن العربي»، بينما الذي أثبته الميثاق في صفحة 145 أن «الجزائر جزء لا يتجزأ من الوطن العربي». ولاشك فإنكم تتفقون معي بأن عبارة «الجزائر مرتبطة بالوطن العربي» أضعف من «الجزائر جزء لا يتجزأ من الوطن العربي».

لقد تعقبتم في مقالكم الحجم الكمّي للجيوش العربية الفاتحة للمغرب، وقارنتموه بالحجم الكمّي للقبائل البربرية، لتظهروا -بالاستنتاج غير المنصوص عليه طبعا- بأن الدم البربري هو الغالب في التركيبة الدموية لشعوب المغرب العربي. ولنستعرض سويا ما قلتموه في مقالكم: «ومن المعروف أن الجيوش ومن بعدها القبائل، أتت من الجزيرة العربية ومن صعيد مصر وغيرها، فاستقرت في المغرب؛ وقد توالى هذا المدد السكاني العربي عدة مرات وخلال عدة قرون، لكنه يتعذر تقدير العدد تقديرا صحيحا. على أننا إذا أخذنا بعين الاعتبار أن مناطق شاسعة بقيت تنطق البربرية قبل أن تتعرب، طوال قرون، بل يستفاد من بعض الدراسات المتوفرة اليوم، وفق ذكريات بعض الأشخاص المسنين، أنها بقيت على هذه الحال حتى بداية هذا القرن، فلا يسعنا إلا أن نستنتج بأن هذا المدد السكاني لم يكن كبيرا».

إن هذا الطرح يعتمد في رأيي على النظرية العرقية لتحديد هوية الشعوب، وبغض النظر عن الأصل العربي للبربر الذي أؤمن به، فإن أربعة عشر قرنا كافية،

وكافية جدا، لكي يصير سكان المغرب العربي كافة عربا، سواء أكانوا ناطقين بالعربية وهم الأغلبية، أو البربرية وهم الأقلية، ولا أجد أبلغ وأعمق من قول الشيخ البشير الإبراهيمي حين يقول:

«كل هذه العوامل صيرت هذا الشمال (الإفريقي) عربيا قارّ العروبة. على الأسس الثابتة من دين عربي، ولغة عربية، وكتابة عربية، ومنازع عربية. وجاءت الجغرافيا الطبيعية فوصلت هذا الشمال بمنابت العروبة، من جزيرة العرب، وجاء الزمن بثلاثة عشر قرنا تشهد سنوها وأيامها بأنها فرغت من عملها، وتم التّمام، ووقع الختم، وأن عروبة هذا الوطن جرت في مجاريها طبيعية مناسبة لم يشبها إكراه، ولم يشنها عنف، ولم يؤثر فيها عامل دخيل، ولم تقم على تحيل أو استغفال، وإنما هي الروح عرفت الروح، والفطرة سايرت الفطرة، والعقل أعدى العقل. وكأن الأمم التي تغطي هذه الأرض قبل الاتصال بالعرب، كانت مهيأة للاتصال بالعرب. أو كأن وشائج من القربى كانت مخبوءة في الزمن. فظهرت لوقتها، وكانت نائمة في التاريخ فتنبهت لحينها»[1].

ويقول العلامة البشير الإبراهيمي: **«ينكر الاستعمار عروبة الشمال الإفريقي بالقول، ويَعمل لمحوها بالفعل، وهو في جميع أعماله يرمي إلى توهين العربية بالبربرية، وقتل الموجود بالمعدوم، ليتمّ له ما يريد من محو واستئصال لهما معًا؛ وإنما يتعمد العربيةَ بالحرب لأنها عماد العروبة، وممسكة الدين أن يزول، ولأن لها كتابة، ومع الكتابة العلم؛ وأدَبا، ومع الأدب التاريخ، ومع كل ذلك البقاءُ والخلود»**[2].

والشيخ الإبراهيمي يرى أن الصفة التي تطلق على البربري هي "عربي" يقول: **«من أباطيل الاستعمار وتهافته، أنه يسمي السوداني المتجنِّس بالجنسية**

(1) عيون البصائر، ج2، ص 477 – 478.

(2) عيون البصائر، ج2، ص 477 – 478.

الفرنسية ليومه أو لساعته – فرنسيًّا؛ ويُلحقهُ بنسبه، ويُساويه به في حقوقه ومميزاته؛ ثم ينكر على البربري –مثلا– أن يكون عربيًّا، بعد ما مرت عليه في الاستعراب ثلاثة عشر قرنًا وزيادة، وبعد أن درج أكثرُ من ثلاثين جيلا من أجداده على الاستعراب، لا يعرفون إلا العربية لغةً يتكلمون بها ويتأدّبون ويتعبّدون؛ فليت شعري: أيهما أقرب إلى الواقع: آلبربري المستعرب، أم السوداني المتفرنس؟ وأيهما أنفذ؟ أحكم الله، أم حكم الاستعمار؟»[1].

وعندما تنتقلون للحديث عن العروبة في الوطن العربي نسمع منكم تحليلا لا نتفق معه، مثل قولكم: «ومما ساعد على انتشار الأفكار القومية احتلال الإنكليز والفرنسيين جزءا كبيرا من الشرق الأدنى. ودسائسهم لدى الأمراء والقبائل العربية، من أجل إضعاف الإمبراطورية العثمانية واضمحلال نفوذ الخلافة الإسلامية». وكما أفهم من هذا النص، فإن فكرة القومية العربية في رأيكم من خلق الاستعماريين: الفرنسي والانكليزي، أوجداها لإضعاف الخلافة العثمانية. والواقع أن سقوط الخلافة العثمانية يعود إلى عدة أسباب، أهمها طغيان الوطنية التركية على الفكر الإسلامي، ذي الطابع الأممي. انعكس على اللغة، ففرض السلاطين اللغة التركية كلغة رسمية بدل العربية لغة القرآن والإسلام. وانعكس على الحكم فتسلطت طبقة تركية أرستقراطية على الإدارة في سائر أقاليم الخلافة. وهذا ولّد ردود فعل قومية بهذه الأقاليم. في هذا الإطار توضع آراء عبد الرحمن الكواكبي، الذي ورد ذكره في مقالكم، التي فصلها في كتابه "أم القرى" الذي ألفه في نهاية القرن الماضي. حيث بيّن فيه أن خلاص الخلافة العثمانية من الانهيار، يكمن في ضرورة استلام العرب لزعامة هذه الخلافة، «وذلك بإقامة خليفة عربي قرشي مستجمع للشرائط في مكة»، كما يقول:

---

(1) عيون البصائر، ج2، ص 479.

وهذا الرأي لا يرتكز على تعصب للعرق العربي، وإنما يعتبر إقرارا بأن العرب المسلمين يملكون أقوى أداة لتوحيد المسلمين وهي اللغة العربية، والثقافة العربية، التي تتفق على قبولها سائر الشعوب الإسلامية، لأنها لغة الدين، ولغة القرآن الكريم.

بل إن جمال الدين الأفغاني نفسه كان يعيب على الخلافة العثمانية أنها لم تعتمد العربية كلغة رسمية للخلافة، وإنما رسّمت اللغة التركية.

إن تاريخ القومية العربية يرجع إلى محمد علي في بداية القرن الماضي، فقد أدرك هذا -قبل الكواكبي- أن خلاص الخلافة الإسلامية هو تجميع سائر العرب في دولة واحدة ناطقة بالعربية، فإذا اتحد العرب اتحد المسلمون: «فالبارون الرحالة الفرنسي "دوبوا كونت Baron De Bois Lecomte" يروي أن إبراهيم باشا (ابن محمد علي) كان لا يخفي نواياه لإحياء الوعي القومي العربي، وتأسيس الكيان العربي الموحد». والرحالة الأمريكي "جورج أنطونيوس George Antonios" يروي: «أن مدرسة كلوة بيه التي أسسها محمد علي بمصر، تلقت تعليمات بترسيخ حقيقة الوعي القومي العربي»[1].

واستطاع محمد علي وابنه تجميع خمسة بلدان عربية تحت حكم دولة القاهرة وهي «مصر، والسودان، وسورية، وفلسطين، والحجاز»، وعند ذاك أحست الدول العظمى الأربع في ذلك العصر (بريطانيا، وفرنسا، وروسيا القيصرية، وتركيا العثمانية) بخطر هذه الدولة الفتية على مصالحها، فاتفقت على منع مشروع محمد علي الوحدوي، وخنقه في المهد. «**ففي 27/11/1840 وتحت تهديد مدافع الأسطول البريطاني بقيادة الأميرال "نابييه Napier"، وبمباركة الدول العظمى الأربع، أجبر محمد علي على التوقيع على معاهدة تنص على: أولا: عودة محمد علي إلى حدود باشاليك مصر، والتخلي عن الحجاز وسورية وفلسطين. وثانيا: عدم**

(1) التاريخ الحديث للبلدان العربية، ص 109 - 111، موسكو (بالانكليزية).

وقوف محمد علي مستقبلا ضد مصالح الدول الأربع العظمى في هذه البلدان»[1].

إذن فقد كانت ولازالت الدول الاستعمارية ضد الوحدة العربية، وضد لمّ شمل شعوبها، في دولة واحدة، لأن الوحدة العربية تتعارض جذريا مع المصالح الإمبريالية والصهيونية في المنطقة وفي العالم.

وعندما يتحدث الأستاذ (ابن الحكيم) عن الوطن العربي يقول: «وقد رأينا كيف أن الجغرافيا والتاريخ (!!!) جعلا من العالم العربي أمما لها خصائصها(!!!) وغم هذه الخصائص، فلا يجوز أن نتهمها بالنزعة الفرعونية، أو البربرية، أو الخصوصية الفينيقية، أو الكلدانية، والأشورية..».

لعله لأول مرة تصبح الجغرافيا والتاريخ مع التجزئة، وليست مع الوحدة في الوطن العربي.

ولاشك أن الأستاذ ابن الحكيم يعلم أن المصريين قد تخلوا عن فرعونيتهم على يد جمال عبد الناصر، وصاروا يطلقون على قطرهم الشعب المصري بدل الأمة المصرية، رغم وجود الأهرامات والأقصر وطيبة وأسوان وفيلة والموميات وغيرها. وأنهم صاروا يعتبرون تراث مصر الفرعونية تراثا عربيا قديما؛ وأن الفينيقية قد تخلى عنها السوريون أو بعض السوريين، وصاروا منذ منتصف الخمسينيات يطلقون على اسم سورية "الشعب السوري" بدل الأمة السورية، وأن "الحزب القومي السوري" الذي كان ينادي بالفينيقية، قد حلّ نفسه وتحول إلى اسم (الحزب القومي الاجتماعي) بلبنان، يدعو إلى الوحدة العربية. وصار دعاة الانفصال الفينيقي يقرون بأن التراث الفينيقي هو جزء من الحضارة العربية القديمة. أما الكلدانية أو الأشورية، فلم أسمع بأنهما استعملتا كحركة انفصالية مميزة، بل إن المؤرخين العراقيين وعلى رأسهم الدكتور أحمد سوسة، يعتبرون أن تراث الرافدين هو لبنات في صرح الحضارة العربية القديمة. بقيت في الساحة

---

(1) المرجع السابق، ص 119.

الآن النزعة البربرية التي يبدو أنها ظهرت حديثة بالجزائر، ويبدو أنه لابد من أن تمر سنوات، بل وعقود، قبل أن يتراجع دعاتها إلى العقل والمنطق.

ويستمر ابن الحكيم في عرض أفكاره فيقول: «يمكن القول بأن وجود الخصوصيات الوطنية، وتنوع الأحداث التي أفضت إلى أمم مختلفة، وأحيانا إلى تأسيس دول أممية (غير مفهوم)، لا يبرران إيجاد نوع من التعارض بين هذه الأمم القائمة (أي العربية) اليوم، وبين الأمة العربية..».

الأستاذ ابن الحكيم يرى في هذا النص بأن في الوطن العربي الآن أربعا وعشرين أمة، لأن الأمة عنده ترادف الدولة. ونستطيع وفقا لهذا الرأي أن نقول الأمة الجيبوتية، والأمة اليمنية الشمالية، والأمة اليمنية الجنوبية، والأمة الأبوظبيية، إلى غير ذلك من السلسلة الطويلة للأمم العربية... في الوقت الذي نرى فيه البلدان العربية صاحبة العلاقة ترفض أن تصف أقطارها بالأمة، بل وتصر على تسميتها بالشعب، تاركة تسمية الأمة، للأمة العربية وحدها فقط.

والأستاذ ابن الحكيم يقول بأن وجود أمم عربية لا يتعارض مع مفهوم الأمة العربية. ووفقا لمعارفي المتواضعة فإن: (شعب + شعب + شعب = أمة) وأن (أمة + أمة + أمة = أممية) وهذا يعتبر من ألف.. باء.. تاء المصطلحات السياسية المتعارف عليها بالعالم.

فإذا سلمنا كجزائريين للأستاذ ابن الحكيم بوجود أربع وعشرين (24) أمة بالوطن العربي، فلابد أن نتقدم بطلب رسمي لجامعة الدول العربية، نطالب فيه بتعديل ميثاقها والدعوة إلى (أممية عربية) بدل (أمة عربية).

أما عن الجزائر، فالميثاق واضح، المشروع التمهيدي الذي ناقشه الشعب قال «الجزائر أمة..» وعندما كشف النقاش الشعبي عن وجود قسم كبير من الجزائريين إن لم تكن أغلبية تقول، بأن الجزائر شعب وليست أمة، وأن هذا الشعب جزء من الأمة العربية، جاءت الصيغة النهائية للميثاق على النحو التالي: (الجزائر أمة وشعب).

الأستاذ (ابن الحكيم) يعيب على المفكرين العرب «بأنهم لا يتحدثون عن العروبة إلا بأسلوب غنائي...». في رأيي المتواضع قبل أن تتحقق الوحدة العربية، لابد أن نشحن أبناءنا بالإيمان بالوحدة العربية من خلال برامج التربية والتعليم، والإعلام. كما ينبغي على شعرائنا وكتّابنا أن يقوموا بحفز همم الجماهير العربية من أجل تحقيق الوحدة العربية. وهذا يكون بمخاطبة العقل والعاطفة معا.

إن الأحداث الكبرى بتاريخ الأمم جاءت نتيجة لأحلام كبيرة. ألم يكن استقلال الجزائر قبل نوفمبر 1954 مجرد حلم؟ ألم ينظر للمنادين باستقلال الجزائر عن طريق الكفاح المسلح على أنهم حالمون؟ لقد حلمت الأمم التي عانت من التجزئة بوحدتها، وتغنى كتابها وشعراؤها بهذه الوحدة قبل تحقيقها. في القرن السابع عشر كان عدد الدول الألمانية 360 دولة، وفي القرن الثامن عشر تقلص هذا العدد إلى 240 دولة، وفي 1815 صار عدد هذه الدول 38 دولة، وفي 1871 عندما حقق بيسمارك وحدة الأمة الألمانية، كان عددها 25 دولة، وهو رقم أكبر من رقم الدول العربية الآن. واستمر الكتاب والشعراء والمفكرون الألمان طوال هذه القرون الثلاثة يحلمون بالوحدة الألمانية، ويتغنون بها، من أمثال "فيخته J. Fichte" و"موريس أرندت M. Arndt" و"ماكس نوردو" وغيرهم. ولنستمع إلى "فيخته" وهو يحلم ويتغنى: «إن الألمان الآن في حالة أشلاء في وادي الأموات: عظام بائسة، مبعثرة في كل الجهات، ولكن ستجمع تلك الأشلاء وستبعث فيها الحياة، وسنجعلها أمة ناهضة تنبض فيها روح القوة والنشاط».

ويلتقي **"فيخته"** بمواطن من عشرات هذه الدول الألمانية المبعثرة؛ من بروسية، ويجري معه الحوار التالي:

- هل أنت ألماني؟

ويجيب الرجل:

- كلا أنا لست ألمانيا، بل أنا بروسي، وأفتخر ببروسيتي، ولا أرضى عنها بديلا، فيرد عليه فيخته قائلا:

- إصغ جيدا إلى ما سأقول الآن: إن الفوارق بين أهالي بروسيا وبين سائر الألمان، ما هي إلا فوارق عارضة وسطحية، ناتجة عن الأحداث الاعتباطية التي أوجدتها الصدف. وأما الفوارق التي تميز الألمان عن سائر الشعوب الأروبية، فإنها أساسية وقائمة على الطبيعة، فإن اللغة التي يشترك فيها جميع الألمان تميزهم عن جميع الأمم الأخرى، تميزهم جوهريا».

أما عن البعد الإسلامي للقومية العربية فأنا أتفق مع الأستاذ (ابن الحكيم)، ورأيي أن المشاكل التي يعاني منها حزب البعث متأتية -في كثير منها- من تخليه عن البعد الإسلامي للقومية العربية. وهذا الرأي قلته لبعض الأصدقاء المسيحيين العرب. فقد قلت لهم مرارا: «أن محمدا هو الذي أوجد كيان العروبة وحقق أبعادها الحضارية، وجاء بدين جعل من شتاتها وحدة، ومن ضعفها قوة، واستبعاد الإسلام عن القومية العربية هو استبعاد لمقوم أساسي لهذه الفكرة».

إن القومية العربية -بلا غنائية- تحقيق وحدة الأمة العربية، تحقيق الولايات العربية المتحدة، في امتداد جغرافي عرضه سبعة آلاف كيلومتر، من رأس أبيض على ساحل المحيط الأطلسي بموريطانيا، وحتى رأس حد على ساحل عمان بالمحيط الهندي شرقا، ومساحته أحد عشر مليون كيلومتر مربع؛ وبسواحل طولها خمسة عشر ألف كيلومتر، تقع على محيطين هما: المحيط الهندي، والمحيط الأطلسي، وعلى أربعة بحار دافئة وهي: البحر المتوسط، والبحر الأحمر، وبحر عمان، والخليج العربي. وبإمكانيات اقتصادية خيالية؛ تضم ثلاثة من أطول ستة أنهر بالعالم. وإذا لم تتحقق هذه الوحدة، فإننا سنبقى أقزاما تحت أقدام الإمبريالية والصهيونية والدول العظمى، لأننا نعيش في عصر العمالقة: عصر العملاق الأمريكي، والعملاق الياباني، والعملاق الأوروبي الذي يجمع

شتاته الآن. والعملاق الصيني، والعملاق الهندي الناشئين. ويا ويح العرب إن بقوا أربعا وعشرين دولة أو أربعا وعشرين أمة، فإنهم سيستمرون مجرد بئر خام للنفط، ومجرد سلسلة طويلة من أرقام حسابات جارية ميتة في مصارف الدول الرأسمالية، ينطبق عليهم قول شاعرهم:

كالعيس في البيداء تموتُ من الظَّما والماءُ فوق ظهورهـا محمـول

إن الوحدة الإسلامية تمر عبر الوحدة العربية، وتوحيد أربع وعشرين دولة عربية مسلمة في كيان سياسي واحد، يضم مائتين وخمسين مليون مسلم، مرحلة حاسمة، في الطريق المؤدي للوحدة الإسلامية. فالجزائري الوطني في حدود وطنه الصغير، الوحدوي القومي في وطنه العربي الكبير، المسلم في وطنه الإسلامي، يعيش في ثلاث حلقات تضفي هذه للأخرى، ولا تتعارض أي منها مع أختها. **والشيخ البشير الإبراهيمي عندما يتحدث عن "المنازع العربية" فإنه يوافق وبحماس وبغنائية على الطموح القومي للمغرب العربي.**

مسألة الثقافة الشعبية:

الملاحظة الرابعة تدور حول مفهوم الثقافة الشعبية في مقال الأستاذ (ابن الحكيم). الثقافة في بلدنا لابد أن تحمل اسم الثقافة الوطنية. والقول بوجود ثقافة شعبية، وثقافة غير شعبية أمر محفوف بالألغام، لأنه قد يسقطنا في فخ اعتبار كل ثقافة مرتكزة على العربية الفصحى، ثقافة غير شعبية. إلا أن ثقافتنا الوطنية لابد وأن ترتكز على تراثنا الشعبي، أو فنوننا الشعبية، وإلا أصبحت هذه الثقافة تدور في فلك ضبابي عاجي يفتقد إلى أرضية اجتماعية شعبية. (فابن الحكيم) عندما يقول: «لكي نحافظ على وحدة الجزائر ومستقبلها، ولكي لا نحرج أحدا ببلادنا، ينبغي أن نقضي على الشك من جهة، وعلى الحقد من جهة ثانية، ولا يجدر بنا أن نحتقر أو نتجاهل مختلف جوانب الثقافة الشعبية»، ثم يقول في مكان آخر: «لماذا يطالبنا بعضهم أن نكون -نحن الجزائريين- متماثلين على منوال واحد، بينما لا نجد هذا التماثل في معظم

البلدان العربية». يجب أن يكون واضحا أن المرفوض ليس الفنون الشعبية، ليس تنوع فنوننا وآدابنا، لأن في التنوع غنى، وفي اللاتنوع فقر وبؤس، وإنما المرفوض هو أن يتحول شعار الثقافة الشعبية إلى قميص عثمان لضرب وحدتنا الوطنية، وضرب عملية التعريب التي اتخذت أبعادها الجادة منذ المؤتمر الرابع لحزبنا، هذه العملية التي تستهدف استرداد شخصيتنا الوطنية من هذا الاغتراب الطويل.

إن الأمر العاجل ليس في (توفر مراكز للدراسات البربرية بجامعاتنا). وإنما في ضرورة التعجيل بإقامة مركز وطني للفنون الشعبية، له فروع في سائر الولايات، يقوم بجمع التراث الشعبي، بما فيه ما يسمى بالتراث البربري، ووضعه بين أيدي الدارسين.

آن الأوان، لكي نقوم بنقد ذاتي لسائر الأخطاء التي ارتكبناها، والتي أسفرت عن انفجار الأزمة الثقافية في 1979، عندما خرج أبناؤنا وبناتنا في مظاهرات يهتفون بشعار «التاريخ إلى المزبلة»، وعن الحركة الفوضوية التي انفجرت في سنتي 1980 و1981 بتيزي وزو، لا أن نصر على سلامة هذه الأخطاء ووجوب استمرارها تحكم الساحة الثقافية، حتى بعد انفجار هاتين الأزمتين.

إن الجزائر متخلفة عن سائر الأقطار العربية الأخرى في عملية الحفاظ على التراث الشعبي، فكثير من البلدان العربية لها "مراكز وطنية للفنون الشعبية".

أما نحن فليس لدينا حتى الآن مركز وطني للفنون الشعبية يقوم بجمع كنوز فنوننا الشعبية وإنقاذنا من النسيان، الذي يتهددنا من جراء غزو أجهزة الراديو، والتلفزة، والكاسيت، والأسطوانة، بل والفيديو لبيوت أسر مجتمعنا، وحتى الريفية منها.

إنني لا أبالغ إذا قلت بأن "رصد الوجدان" الجزائري، أو المصري، أو السوري، أو التونسي، ومنذ قرون، محفوظ في الفنون الشعبية، وأنه لكي نقيم صرح ثقافة وطنية لابد من جمع هذه الفنون والآداب الشفوية في مكتبات على

مستوى كل ولاية. ثم نضعها بين أيدي الباحثين والمؤلفين والفنانين يستلهمون كنوزها. إن تسجيل أحداث ثورة نوفمبر، وحروب المقاومة لم يتم لا بالأدب الفصيح، ولا بالأدب المعبر عنه بالفرنسية، وإنما تمّ بالشعر الملحون، ملاحم كاملة يقدر عدد أبياتها بالآلاف يأكلها الآن النسيان. من الذي منعنا من جمعها؟ لقد منعنا أنفسنا. إنه مجرد تقصير نتحمل مسؤوليته كلنا، ومسؤول عنه بالدرجة الأولى الأجهزة الرسمية للثقافة في بلادنا.

إن رأيي المتواضع، هو أن الذي أوصل السفينة الوطنية الجزائرية إلى شاطئ النجاة في 5 يوليو 1962، هو وضوح الرؤيا، هو خط وطني خال من أي غموض أو إبهام. ويرتكز هذا الخط على عنصرين اثنين:

أولا: الفكر السياسي الذي أوجدته مدرسة حزب الشعب الجزائري، والمتمثل فيما يلي: «إن خلاص الجزائر في استقلالها الذي لا يتحقق إلا بالكفاح المسلح».

ثانيا: الفكر الثقافي والديني لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، والمتمثل فيما يلي: «الجزائر عربية الهوية، عربية اللسان، إسلامية العقيدة». أما أن يقال: «بأن الجزائر عربية وليست عربية.. أو بربرية وليست بربرية.. أو مزيج من الأمازيغية والإسلام والعروبة». فهو أسلوب لا يؤدي إلى نتيجة، ولا يؤدي في اعتقادي إلا إلى طريق مسدود.

وفي الختام أوجه شكري الحار إلى الأستاذ (ابن الحكيم) الذي فتح باب هذا الحوار، ومكنني من المشاركة فيه.

دور الشعر الجزائري
في بث الوعي القومي

محاضرة ألقاها المؤلف في الندوة الفكرية، عن دور الأدب في بث الوعي القومي، والدعوة إلى الوحدة العربية، والتي عقدت تحت إشراف (مركز دراسات الوحدة العربية) الذي يقع مقره في بيروت، واتحاد الكتاب العرب وذلك في بغداد 28 - 29 نيسان (نيسان) 1980.

إن العمل من أجل الوحدة العربية يعتبر أشرف عمل يقوم به عربي، لأننا ننتمي إلى أمة واحدة، تتكلم لغة واحدة، وتدين بدين واحد (في الغالبية العظمى من أبنائها)، وتعيش على امتداد جغرافي واحد؛ صهره الوجود العربي في بوتقة الثقافة العربية منذ آلاف السنين، وحتى من قبل الفتح الإسلامي بكثير.

والإمبريالية الدولية تعمل بشراسة على منع الأقطار العربية من التوحد خاصة بعد تفجر النفط في الوطن العربي. فاستراتيجيتها تتمثل في منع هذه الوحدة، لأن الوطن العربي في نظر المفكرين الاستراتيجيين للغرب، باحتياطيه الضخم من النفط، وبوفوراته الهائلة من البيترودولارات، وبطاقته الاستهلاكية الكبيرة المتزايدة المعتمدة على الاستيراد، يلعب دورا حاسما في منع تفكك الأنظمة الرأسمالية الغربية؛ ومن أجل المد في عمر الرأسمالية بصورة عامة، وبأوروبا الغربية على الخصوص.

وفي تصوري سوف تخف حدة معارضة الغرب للوحدة العربية في القرن المقبل، عندما تنفذ حقول النفط أو توشك على النفاذ، وعندما بتمكن من استيعاب أفراد الطبقة العربية، المودعة للبترودولارات العربية، في إطار النسيج الاقتصادي بل والاجتماعي للمجتمعات الغربية.

ولهذا فإنني أعيد ما سبق أن قلته، من أن أشرف رجال وأنبلهم، هم الذين يعملون من أجل توحيد شعوب الأمة العربية ضمن إطار سياسي واحد، أي ضمن دولة واحدة، وبمضامين اجتماعية واقتصادية تقدمية. وتوحيد الأمة العربية لا يتناقض مع توحيد العالم الإسلامي. لأن محمدا صلوات الله عليه وسلم، وحد القبائل العربية وخلق منها قوة واحدة متراصّة، ثم اتجه شرقا وغربا في فتوحات الإسلام. ووحدة العالم الإسلامي تمر بالضرورة والحتمية عبر الوحدة العربية، كما أن تجريد الوحدة العربية من البعد الإسلامي عمل غير حكيم وغير واقعي وغير ممكن.

إذا استعرضنا أدب الجزائر، خلال القرن الجاري، وخاصة الشعر منه، وجدنا الشعراء والكتّاب يلحون على العروبة وعلى الإسلام الذي أدى دور حامي العروبة بأقطار المغرب العربي. ولا أبالغ إذا قلت، أن البعد العربي في الأدب الجزائري الحديث وخاصة قبل 1962، كان أكثر وضوحا في الأدب الجزائري، منه في أدب أي قطر آخر من أقطار المغرب العربي. ولعل السبب في ذلك راجع إلى الحرمان الذي كان يحسه الجزائري قبل الاستقلال من ممارسة عروبته بالجزائر. فالجزائري كان يعتبر فرنسيا، والجزائر كانت تعتبر جزءًا من فرنسا، واللغة العربية كانت تعامل معاملة لغة أجنبية طوال قرن وثلث قرن.

والوعي القومي بالجزائر وبأقطار المغرب العربي عموما، امتزج بالإسلام لأن الفرنسيين عندما احتلوا الجزائر في 1830، وقرروا ضمها للبلاد الفرنسية، وجدوا أن أكبر عقبة تقف في طريق التفرنس تتمثل في الدين. وسلط الفرنسيون على الجزائر حملات تبشيرية واسعة فاضطهدوا المسجد وحولوا أوقافه إلى ممتلكات فرنسية، وشجعوا رجال الطرق الصوفية المشعوذين. وكان المسجد طوال فترة الاحتلال، يقوم بدور المحافظ على عروبة الجزائر، بتعليم اللغة العربية وعلومها وبث الوعي القومي. قال سكرتير الجنرال بوجو -أكبر قائد عسكري فرنسي من قادة الاحتلال، في القرن الماضي- قال: «في خلال عشرين سنة لن يكون للجزائر إله غير المسيح. أما العرب فلن يكونوا ملكا لفرنسا إلا إذا أصبحوا جميعا مسيحيين».

فعبد الحميد ابن باديس -زعيم الحركة الإصلاحية بالجزائر- يحدد هوية الشعب الجزائري بأنه مسلم عربي من نسل العروبة، والذي يريد أن يجعله يخرج عن إطار الإسلام والعروبة، ويدمجه في جنس آخر كالجنس الفرنسي، فهو يطلب أمرا مستحيلا.. ويختتم ابن باديس هذا النشيد الذي استمر الشعب الجزائري أكثر من نصف قرن يردده - بالحياة للجزائر وللعرب:

شعبُ الجزائـــــر مسلـــم وإلى العروبة ينتســـــب
من قال حاد عن أصلـــــه أو قال مـــات فقـــد كـــذب
أو رام إدماجـــــا لــــه رام المحـــال من الطلــــب
نحن الأولى عــرف الزّمـــانُ قديمنـــا الجـــمّ الحســـب
ومعيـــن ذاك المجـــد في نســـل العروبـــة ما نضـــب
هذا لكـــم عهـــدي بـــه حتى أوسَّـــدَ بالتُّـــرَب
فــإذا هلكـــتُ فصيحـــتي تحيا الجزائــــر والعــرَب

والسعيد الزاهري[1] يشيد في 1934 بجمعية العلماء، التي كانت مهمتها نشر المدارس الأهلية لتعليم العربية، ومحاربة أدعياء الدين المتعاملين مع الإدارة الاستعمارية، فيحيّي فيها العروبة والدين الصحيح معا:

حيّ العروبة في (جمعية العلماء) وحيّي ويحك فيها الدّين والشّيما
تدعو إلى الله عن علم وبيّنـــــة لا كالذين إلى جهل دُعُوا وعمـى

والوعي القومي اتخذ في تاريخ الجزائر أشكالا عديدة كإحياء تراث الأجداد وأمجادهم، وتربية الأبناء على هذا التراث حتى لا ينسونه فتسهل مهمة الاستعمار في تجريدهم من شخصيتهم العربية. يقول اللقاني السائح[2] في العشرينيات:

بني وطني هل من خطيب مدرّب يحرّك أرواحا بمقولة الصـّادي
يطالب حقا ضاع مذ ضاع أهله وينشرُ للأبناء تاريخ أجـــداد

ومحمد بن دويدة[3] يستعرض باكيا من خلال القهر الاستعماري بالجزائر، أمجاد العرب وآثارهم الأدبية، يوم أن كانت الدنيا تستمد من الخلافة في بغداد

(1) الزاهيري محمد السعيد، ولد في ليانة بالشرق الجزائري عام 1890، وتوفي عام 1956، ونشر في كبرى المجلات الأدبية العربية في العشرينيات والثلاثينيات.
(2) ولد في نفطة بتونس عام 1895.
(3) ولد في الطّهير بالشرق الجزائري عام 1905.

نور العلم والمعرفة، ودور الفنون والآداب ويبكي الشاعر وهو يتذكر هذه الأمجاد، كما بكى الشعراء من قبله، أحبّاءهم وهم يقفون على رسم منازلهم:

وقفتُ برسم العُرْب وقفة خاشـع وقلتُ: ضياعا ما نظمتُم من الـدّر

يقول: انظروا ما شيدت يدُ علمهم على الرّغم مما غيّرته يـد الدّهـر

ويندب بدر العلم إذ كان ساطعـا ببغداد نبراس الحقائـق والفخـر

ويبكي ويستبكي فيرسل أبحـرا من الدمع حتى فاض دمعي على صدري

ومحمد العيد آل خليفة[1] في 1936 يفخر بحضارة العرب التي كانت تشع على البشرية قبل ظهور الحضارة اليونانية والرومانية. ثم يتأمل واقع أمته، ويتساءل هل سيعود للعرب عصر ازدهارهم، الذي لم يحافظ عليه الأحفاد؟

إن للعرب في الحضـارة قدما قدمـا للورى عليهـا استنـاد

كم وعوا في الحجاز من قبل روما وأثينا، من حكمـة، وأفـادوا

أيها المشرقون في ظلـم التـا ريـخ هل عصركـم علينا يعـاد

كلما شدتـم على الأرض مـن مجـد قديم، أضاعه الأحفـاد

كما يفخر محمد العيد في قصيدة أخرى بفصاحة لغة العرب وسماحة دينهم، وكيف ازدهرت الدنيا بفضل الإشعاع الحضاري العربي الإسلامي. ففي ميدان البطولة أنجبت الأمة العربية (عليا وخالدا وعمرا وغيرهم)، كما أنجبت في ميدان الفكر (الغزالي وابن خلدون، وابن حيان). فالعرب نشروا العدل، بينما نجد الغربيين الآن ينشرون الخراب والظلم:

ألسنا من الأجناس أفصحهم فما وأسمحهم دينا وأصلحهـم أبـا

بنا درّت الدنيا عليهـم بخيرهـا واخصب منها كل ما كان أجدبـا

ولدنا وأنجبنا، ففزنـا عليهـم ومن ولد الصيد المناجيد أنجبـا

---

(1) ولد بعين البيضاء بالشرق الجزائري عام 1904، وتوفي عام 1979. من أشهر شعراء الجزائر. له ديوان مطبوع كتب عنه الأستاذان، صالح الخرفي وأبو القاسم سعد الله.

فهل أنجبوا فيها (عليّا وخالـــدا) و(عمرا ومعنا وابن قيس ومصعبا)
وهل انجبوا مثل (الغزالي) باحثـا ومثل (ابن خلدون) خبيـرا مدربـا
وهل أنجبوا مثل (ابن حيان جابرا) وهل جربوا من قبل من كان جربـا
وهل نشروا في الكون عدلا ورحمة كأجدادنـــا أم صيّروه مخربـــا

ومحمد العيد في النشيد الذي ألفه للمدارس العربية الحرة في عهد الاستعمار، يصف سياسة الاندماج، التي كانت تهدف فرنسا بواسطتها، إلى إذابة الشعب الجزائري العربي في الأمة الفرنسية، يصفها بالحمق. ويؤكد أن شعبا يدين بدين محمد لا يمكن أن يقضى عليه.

إن الـــذي يبغـــــي اندمـــــا جــــك في ســـواك لأحمــــق
لا يمّحي شعــــــب، بشـــــا رات الرّســـــــول مطـــوّق

وحمزة بوكوشة[1] يحس في 1935، بغربة في بلده، الذي صارت لغة الضاد أجنبية به فيتألم لذلك:

يا بلبل الشرق ما أشجاك أشجاني قم ناج قلبي بتغريـــد وتحنـــان
فإنّ مثلي كئيب حلّ في شـــرك وأنت مثلي غريب بين أوطـــان

والهادي السنوسي[2] يتّجه ببصره إلى السماء في 1928، فيشاهد الهلال الذي يذكّره بأمجاد العرب، ويستوحي منه أمله في أن تخرج أمة العرب من التخلف والاستعباد:

هلالك يا فخر العروبـــة لم يـــزل كما كان لكن خانه الطعن والضرب
هلال، إذا ما الحول حال تجددت لنا فيـــه آمـــال يحقّقهـــا الذّبّ
إذا كان سعـد للعروبـــة طالعـــا فإنا وإن غـــارت طوالعنـــا عـــرب

(1) ولد في واد سوف. من رجال حركة الإصلاح.
(2) ولد في ليانة عام 1902. مؤلف كتاب (شعراء الجزائر). سعد المقصود هو سعد زغلول الزعيم المصري.

وتوقف السلطات الفرنسية تعليم العربية بالمدارس الرسمية بالجزائر، ويتنادى رجال الإصلاح، ويطلبون من الشعب بناء المدارس وتمويلها بإمكانياته لتعلم لغته لأبنائه، حتى لا يتحقق هدف الاستعمار في القضاء على العربية والعروبة بالجزائر. وتفتح النوادي لتوعية الشعب توعية ثقافية عربية، ويؤسس (نادي الترقي) بالجزائر العاصمة، الذي لعب دورا عظيما في محاربة سياسة الاندماج، ومقاومة تجنس الجزائريين بالجنسية الفرنسية. ومن هذا النادي انطلقت فكرة تأسيس جمعية العلماء[1] التي بنت المدارس العربية الحرة. ويتغنى الهادي السنوسي بهذا النادي، الذي أعقب فتحه نواد أخرى في العديد من المدن الجزائرية، يكمل المدارس الحرة، ويقوم بدور ثقافي وتربوي للشباب. ويصيح في الشباب الجزائري أن يرتاده، لأنه ينشر اللغة العربية ويحيي ذكرى الأجداد:

ناد الشبيبة وادعُها لـ (النـادي)   إن النـــوادي شرعــة الوراد
ناد سيذكـــره الرواة بمالـــه   من نعمة تترى على الأحفـــاد
ويسجّل التاريخ من أوصافـــه   عزم المجدّ، وهمة الأمجـــاد
ويهزّ من أعطافه ما هـــزّ مــن   آباء فتيتة، لســانُ الضـــاد

ويصف محمد العيد نادي الترقي[2] بأنه صوت العروبة:

وناد به صوت العروبة يعتلـــي   وكهف به نشء (البليدة) يحتمي
رفعتم به صوت العروبة عاليــا   وعدتم على الإسلام فيه بأنعـــم

ويؤسس أول معهد للتعليم الثانوي العربي الحر في قسنطينة بعد الحرب العالمية الثانية، وهو معهد عبد الحميد بن باديس الذي يؤدي دورا (إشعاعيا

(1) جمعية العلماء المسلمين: تأسست عام 1931 تحت رئاسة عبد الحميد بن باديس، الذي خلفه بعد وفاته الشيخ محمد البشير الإبراهيمي. جمعت الأموال من الشعب وبنت عشرات المدارس الحرة لتعليم العربية.

(2) نادي الترقي تأسس عام 1926 بالجزائر العاصمة.

وطنيا وثقافيا عربيا هائلا)، ويتسابق الشعراء للتغني به، وسرد تأثيره في الحركة الوطنية، وفي الحفاظ على لغة الضاد.

فمفدي زكريا[1] يعتبر المعهد، محط آمال الشعب، حيث يضم بين جدرانه حياة شعب الجزائر كله، عندما يرعى الشخصية العربية في أبنائه:

يا دارُ، أنت على التقوى مؤسسة   مبناك بالطهر مرصوص ومشدود
دار ابن باديس في سرتا يظلّلها   نصر، ألا إنّ نصر الله موعود
ما بين جدرانها تحيا الجزائر، لا   من فوق جدرانها تتلى التهاجيد

وفي عام 1922 يمدح **الأمين العمودي** الأمير خالد -حفيد الأمير عبد القادر- عندما قررت السلطة الاستعمارية نفسه إلى مدينة بسكرة في الصحراء، نتيجة لمواقفه الوطني التي تمثلت في تأسيسه لحركة وطنية بعد الحرب العالمية الأولى. فالأمير خالد يعتبر عن جدارة، أول من وضع الأسس للحركة الوطنية السياسية بالجزائر. ويشير الشاعر إلى هذه المواقف التي رددتها أقطار الوطن العربي، وكيف استبشرت الأمة بهذا التيار الوطني الذي يقوده الأمير خالد بشجاعة:

وتباشرت بك أمة، علمت بمـــا   أوليتها من سابـــق الإحســـان
واهتزت الأرجاء مـن أقطارنــا   طربا فعمّ الخيــر كل مكـــان
يا خالـدا أبقيـت ذكـرا خالـــدا   يفنى الزمان وليس هـــو بفـــان

ويهز نبأ لجوء البطل المغربي عبد الكريم خطابي إلى مصر في الأربعينيات الشاعر **عبد الكريم عقون**[2]، فينظم قصيدة بعنوان **(تحية عبد الكريم الخطابي)**

---

(1) ولد في بني يزقن جنوب الجزائر عام 1908، له ديوان شعر. توفي قبل سنوات. مؤلف النشيد الوطني الجزائري.

(2) جمعية العلماء المسلمين: تأسست عام 1931 تحت رئاسة عبد الحميد بن باديس، الذي خلفه بعد وفاته الشيخ محمد البشير الإبراهيمي. جمعت الأموال من الشعب وبنت عشرات المدارس الحرة لتعليم العربية.

يعبر من خلالها عما تركه نبأ قبول شعب مصر العربي استضافة البطل المغربي، الأمر الذي يؤكد أن أمة العرب واحدة في حقيقتها وآمالها وتطلعاتها، ثم يشير بطريق التلميح إلى أن لغة عبد الكريم الخطابي -الذي حمل السلاح ضد الاستعمارين الفرنسي والإسباني بالمغرب الأقصى- هي اللغة الوحيدة التي فهمها الاستعمار وقد نشر الشاعر قصيدته في صحيفة البصائر الجزائرية عام 1947، يقول:

قد انفلت الضرغام من عنت الأسر — وحن إلى أسـد هنالك في مصـر
كذا العـرب جسـم إن يـذق أذى — تداعت له الأعضاء بالسهر والضّر
وكل ديار العرب دارك فلتكـن — قريرا بعطف النيل منشرح الصـدر
وعلمتنا كيف النضـال الذي بـه — نحطم أغلال الطغاة ذوي الغـدر
فكن لبني العرب الميامين قائـدا — وجدد عهود العرب نسل بني فهـر
ألا فلتعش (للرّيف) والعرب حاميا — فإنك رمز للمكـارم والفخـر

وفي 1949 يحيي ذكرى شكيب أرسلان الشاعر عبد الكريم العقون، ويعتبر وفاته خسارة للعرب والمسلمين قاطبة:

بني العرب والإسلامُ في كل موطن — عـزاءً جميـلا أن تـوفّى أرسـلان
أ(لبنان) لا تجـزع لخطبـك إننـا — بنو العرب في الخطب الملم لإخوان
فها هـو ذا شعـب الجزائـر رافعـا — تعازيه يحدوها عويـل وإرنـان
لقد غاب من كان للعـرب حاميـا — فتبا نعاني الهمّ، والقلب أسـوان

ويمدح الشاعر عيسى حمو النوري عام 1951 الشيخ بيوض الزعيم والمصلح الديني (المزابي) -الميزابيون فئة (بربرية) بالجزائر- فيقول بأن دم العروبة يتدفق في شرايين الشيخ بيوض عربيا أصيلا، رغم افتراءات المستعمرين الذين حاولوا ويحاولون إظهار البربر بأنهم جنس غير العرب، فينسبونهم إلى أصول أروبية غربية، بينما أصولهم مشرقية عربية. يقول الشاعر:

للشرق آي من جمـــال خالـــد تعنو لها في العالم الأقطـــاب
من رائعات الشرق بيـوضُ الذي نسل الشمال وأنجبت (ميـزاب)
والعبقرية من فضائـــل نبتـــة إن أرجعت لأصولها الأعشاب
ودم العروبة في العروق مراجـــل تغلي وتومض تحتها الأنسـاب
أكذب بما قال المعمّـــر ضلّـةً إن المعمـــر ساحـــر كـذاب

ويحيي الشاعر صالح الخرفي[1] آثار رفاة الأمير عبد القادر، عندما قررت القيادة الثورية بالجزائر، إعادته من دمشق إلى أرض الوطن، فيبرز الشاعر نسبه الهاشمي، ويعلن عودة الجزائر إلى صف الوطن العربي بعد أن كانت تابعة لفرنسا.

عد إلينا فدتك نفـــــس أبيـــه أرضك اليوم أصبحت عربيـــه
لك مثوى بين القلوب الوفيـــــه حررت أرضها بكأس المنيـــه
وسقتها من الدمـــاء السخيـــه هل لنا منك طلعـة (هاشميـــه)
بعد مرّ النوى وطول الغيـــاب

وحث سنة 1948 الربيع بوشامة العرب على الموت بعزة بدل العيش بذلة، فلا هناء وفلسطين يعتدى عليها:

أيها العرب أمـــة المجـد والعلـ ياء ماذا ترجون غير التفـــاني
إنه المـــــوت في الكرامـــة الـ ـعزّ أو العيش في الشقا والهوان
كيف ترضون عيش أمن وخيــر وفلسطين في الجحيـم تعـاني

(1) صالح الخرفي: ولد بالقرارة جنوب الجزائر عام 1932، له عدة دواوين مطبوعة، وتأليف في النقد وتاريخ الأدب الجزائري. وهو ميزابي أي بربري.

ويتغنى الشاعر بوشامة ببجاية فيلح على عروبتها قائلا:

يا ساحل المجد هيا اسمع لإنشـادي | في حسنك المجتلى بوركت من واد
واهزج معي بأغاني الخلد مذكّـرا | أيامك العزّ في دنيا (ابن حمـاد)
لا شيء أحلى من الأشعـار يلهمها | مثقف من بني الإسلام والضـاد
دمتم بناة العلا عربـا جهابـذة | وعشتم للفدا يا فتيـة الوادي

وتندلع ثورة الجزائر فينطلق شعراء الجزائر والأقطار العربية، معتبرين بطولاتها إحياء للبطولات العربية كبطولة عنترة بن شداد، وخالد بن الوليد، وعمر بن الخطاب، وسعد بن أبي وقاص. وها هو مفدي زكريا ينشد:

إن كنتم تجـار حـرب إنّ من | أجدادنا من باع فيهـا واشترى
فرسان حومتها؟ سلوا صهواتهـا | كم أسرجت بـ(ابن الوليد وعنترا)
سنشنهـا (عمريـة) (سعديـة) | سنثيـر رملتهـا قتاما أغبـرا

وفي 1961 ينشد مفدي زكريا في نفس المعنى، فيلح على الهوية العربية لثورة أول تشرين الثاني (نوفمبر) فيقول:

والشعب أسرع للشهادة عندمـا | ناداه (عقبة) للفداء و(حيـدر)
وتكلم الرشاش جل جلالـه | فاهتزت الدنيا وضج المنبـر
والذكريات وإن تقـادم عهدهـا | في أمّـة أشباههـا تتكسـر

وما انفكّ الشعراء يتغنون بأمجاد (أمة الضاد)، فالشاعر **أحمد سحنون**[1] في 1947 يفتخر بأمة الضاد التي ستنال مرادها، وبأبناء الضاد الذين سينتصرون:

هات نشئا صالحا يبني العـلا | ويفك الضاد من أسر الأعـادي
لا تقل شمس بني الضاد اختفت | وطوت أيامهم سـود عـواد
لا تضق ذرعا، ولا تهلك أسـى | أمة الضاد، ستحـظى بالمـراد

(1) الشيخ أحمد سحنون: من رجال الإصلاح. له ديوان شعر. من أقطاب جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. مؤسس حركة الدعوة الإسلامية بعد الاستقلال.

وإذا كان الطابع العام للأدب الجزائري والشعر الجزائري هو بث الوعي القومي من ذكر الأمجاد العربية، واستعراض تطلعات شعوب الأمة العربية نحو المصير الواحد المشترك، بث ذلك بصورة عامة، فإن هذا الشعر لم يهمل التحدث عن الوحدة العربية. **فبلقاسم خمار**[1] يطالب بأن يستمر النضال حتى تتحقق الوحدة العربية الكبرى:

لا بشرى لي، زحفا مواكبا، وصمتا يا ضجيج
حتى يوحدنا الكفاح من المحيط إلى الخليج
وهناك يهتز النشيد ويملأ الأفق الأريـــــج

ومفدي زكريا يقول بأن المحن والمعاناة هي التي تفرض الوحدة:

تلك العروبة إن تثر أعصابها ... وهن الزمان حيالها وتضعضعا
الضاد في الأجيال خلد مجدها ... والجرح وحد في هواها المنزعا

ويعيش مفدي زكريا مأساة فشل أول تجربة وحدوية، وحدة سورية ومصر، ويكتب قصيدة تعتبر من أجمل ما قيل، عنوانها (عيد وحدتي)، فهو يتألم لفشل هذه التجربة وحلول التناحر والشقاق محلها. فالتخلي عن هذه الوحدة معناه انحراف سفينة أمتنا نحو مسار سيء وخطير.

قد تراءى الشقاق حطمت كاساتي ... على مبسمـــي وأحرقــت دنّــي
قد رأيت السفين يجرفها أليـــم ... لسوء المصيــر أغرقـت سفنــي

ثم يعبر عن عمق حزنه الذي يقول إنه سيبقى ملازما له، وسوف لا يحل محله الفرح إلا إذا تحققت الوحدة، فغناء الشاعر لا يحلو إلا في أفراح الوحدة:

ودع الـــروح للبلابــل تشــدو ... وابعث الشعب للخـلاص يهنـي
فرحتي (وحدتي) وشعري طيري ... بسـوى عيـد وحـدتي لا أغـنــي

---

(1) من مواليد بسكرة بالجنوب الجزائري.

استعرضنا شعر أربعة عشر شاعرا، ينتمون إلى أجيال مختلفة، أكبرهم سنا ولد عام 1890، وأصغرهم ولد عام 1932، استشهد اثنان منهم في أثناء ثورة تشرين الثاني (نوفمبر) وهما:

(الأمين العمودي شهيد عام 1957، وعبد الكريم العقون تم إعدامه من طرف السلطات الاستعمارية في 13/ 5/ 1959).

خمسة منهم أمازيغ (بربر) وهم (عبد الحميد بن باديس، ومفدي زكريا، وعيسى حمّو النوري، وصالح الخرفي، والربيع بوشامة). عبروا جميعا عن عروبة الأمازيغ.

ومجموعة الشعر التي عرضتها بإيجاز، تقدم بوضوح فكرة عن الرسالة القومية التي أدّاها الشعر على الخصوص في نشر الوعي القومي بالجزائر.

فقد أدّى الأدباء والشعراء الجزائريون رسالتهم في هذا الميدان، حيث استمروا يمدّون الرأي العام الجزائري بأنباء الوطن العربي، رغم الستار الحديدي الذي فرضته السلطة الاستعمارية على الجزائر، ويعرضون أمامه مآثر الحضارة العربية وأمجاد العرب بصورة عامة، حتى لا ينسى أصله وأجداده، حيث عملت الإدارة الاستعمارية منذ دخولها الجزائر، عام 1830، على جعل الجزائريين ينسون ماضيهم العربي، وينصرفون عن الثقافة العربية، أي من أجل أن تفقد الجزائر ذاكرتها العربية.

وكان هؤلاء الأدباء والشعراء يشيعون أخبار الوطن العربي، وينشرونها بين أبناء الجزائر، متحدّين بذلك السلطات الاستعمارية التي كانت تحاصر النوادي العربية، وتمنع دخول الصحافة، والكتب العربية، وتطارد معلم العربية وتضيّق عليه الخناق، وتدرج اسمه في قائمة المهددين للأمن بصورة دائمة ومن بين هؤلاء الشعراء، شعراء أمازيغ (بربر) تغنوا بالعروبة وهم يعتبرون أنفسهم عربا ويعتبرون الأمازيغ (البربر) عربا.

ونظرا لمنع الإدارة الفرنسية تعليم العربية في المدارس الفرنسية، ومحاربة فتح مدارس حرة لتعليمها، فإن الأدب المعبر عنه بالعربية بقي في إطار ضيق ولا يعدو الشعر والمقالة، كما بقي الأدب المعبر عنه بالفرنسية محصورا في طبقة ضيقة جدا، لم ينفذ إلى وجدان الشعب الذي استمر في غالبيته العظمى يجهل الفرنسية.

وأدى الزجل الشعبي دوره الكبير في التعبير عن خلجات وجدان المواطن الجزائري، وتطور مشاعره، ومرافقة تطور الصراع بين الشخصية الجزائرية والشخصية الفرنسية الغازية. ولم يهمل الزجل الشعبي دوره في بث الوعي القومي، فأداه بأمانة وزخم. فزجال من قرية برج الغدير ينشد زجلا في الأربعينيات، يعبر عن أمنيته المتمثلة في زواجه بمن يحب، وإقامته في مدينة سطيف، وهذا في تصوره لا يتم إلا في ظل دولة عربية. يقول:

والله لاوْ تْصيرْ الدّوله عربيّــــــــــه
من وليدات عْياضْ غير اللّي نَبْغيـــه
نتْزوّجْ خيـــره صاحْبَــةَ الملْيانيَّـــا
ونَسْكُنْ وَسْطْ سْطيفْ والقَلْبَ نْزَهّيه

وزجال آخر من جنود جيش التحرير، ينظم قصيدة طويلة بعنوان (قداش نفكر) يقول فيها مخاطبا فرنسا، بأن العملاء خدعوك فأوهموك أن الجزائر ملك لك، بينما هي في الحقيقة (دولة عربية).

افرنســـــــا يخليـــــك
الكوميّـــة زرّوا بيــــــــك
الجزايـــــر مـــا هـــي ليــك
راهـــي دولــــة عربيـــــة

وهذا زجال آخر من قبيلة (أولاد سيدي عبيد) بالشرق الجزائري، يستعرض بطولات جنود التحرير فيصفهم بأنهم (أولاد العربية).

كي ثـــاروا أولاد العربيـــــة
قصـــــدوا قتـــال الـــروم
سكنوا في جبال الظهريـــــة
ويـــــن يـــدور الحـــــوم
جـت الطيـــارة المخليـــــه
وكـــــان اطبلهـــا يـــزوم
وتبـــارك في هـــا الجنديـــة
ومـــول القلـــــب يقـــوم
أبطــــال أولاد العربيـــــة
ومن حاضـــــر مـــنَ القـــوم

ملاحـــق

- النزعة البربرية في الانتخابات الرئاسية الجزائرية
- ما ينتظره الشعب
- هل تنجح الأكاديمية البربرية بفرنسا في ترويض الأوراس الأشم؟
- لائحة رفض من المجلس التاريخي للولاية الأولى
- بيان تأييد من الرئيس أحمد بن بله
- ثالوثية الهوية الوطنية تتعارض مع بيان أول نوفمبر
- لائحة رفض من المجلس التاريخي الموسع
- رسالة من بجاية: لا للنزعة البربرية
- رأي الأستاذ محمد البصري في المسألة البربرية
- إلغاء المؤتمر الأمازيغي (البربري) الشعوبي وسُعار الصحف الفرنسية الصادرة في الجزائر
- لهجة تقاضي لغة !
- رأي المستشرق جاك بيرك في المسألة البربرية
- بيان لجنة المساندة للمفهوم السليم للمسألة الأمازيغية والهوية الوطنية
- كيف يفسر البربريون ثلاثية الهوية الوطنية
- كيف طبق قانون تعميم اللغة الفرنسية في فرنسا
- حوادث تيزي وزو 1980 في الصحافة الأوروبية

النزعة البربرية
في الانتخابات الرئاسية الجزائرية(*)

تقدم السعيد سعدي زعيم التيار البربري للانتخابات الرئاسية الجزائرية، وعمل على إخفاء عدائه للعربية، لكن المواطنين ذكّروه بها عبر الإذاعة. ولا أنسى ما قالته له سيدتان من مدينتي تبسة ومليانة. لقد تحدث في حملته بالعربية، وكان يبرز لمصوري التلفزة وهو يقرأ سورة الفاتحة على قبور الشهداء. لكن شعب الجزائر العربي المسلم أدرك أن كل هذا مجرد مساحيق سيغسلها صاحبها بمجرد انتهاء الحملة.

وكان الخاسر الكبير في الانتخابات هو مرشح النزعة البربرية، الذي لم يحصل سوى على أصوات القبائل في ولايتين (بجاية، وتيزي وزو) على أساس جهوي. بينما نجد البربر في الولايات الأخرى حجبوا عنه أصواتهم. فالشاوية البربر في ولاياتهم الأربع (باتنة، تبسة، أم البواقي، وخنشلة)؛ وبنو ميزاب في ولايتهم (غرداية) وهم من البربر أيضا، أعطوا النور الدين بوكروح العربي أكثر مما أعطوا للسعيد سعدي البربريست. ولا أتكلم عن اليمين زروال، ومحفوظ نحناح، فقد حصدا الأصوات في كل الولايات ماعدا بالولايتين القبائليتين المذكورتين اللتين احتكرهما البربريست.

(*) نشرت في جريدة "الشرق الأوسط" اللندنية عدد 23/ 11/ 1995، وأسبوعية "الشروق العربي" عدد 238، 28/ 11/ 1995.

الخلاصة:

أولا: إن الشعب الجزائري في الولايات الست والأربعين تصرف على أنه عربي مسلم في هذه الانتخابات، بما فيه الفئات البربرية التسع الأخرى. ولم تشذ سوى الفئة البربرية العاشرة المضللة من طرف تلاميذ الآباء البيض المستعمرين الجدد التي تصرفت كفئة قبائلية لا كفئة بربرية (أمازيغية). وأن النزعة البربرية لا وجود لها في الجزائر العربية المسلمة. وقد بدأت أصوات القبائل الوطنيين ترتفع منادية بتصفية هذه الظاهرة الجهوية المقيتة. فالأستاذ عبد السلام بلعيد عبّر عن ذلك بشجاعة في حديث أعطاه لجريدة الخبر في عددها الصادر يوم 19 نوفمبر 1995، وهو يعقب على الانتخابات. كما أن سكان ولايات الشمال القسنطيني (جيجل، قسنطينة، ميلة، وسكيكدة) تصرفوا بلا جهوية فأعطوا أصواتهم لنحناح الذي هو من وسط الجزائر، أكثر مما أعطوها لبوكروح الذي هو من الشمال القسنطيني.

ثانيا: لقد أعطى الشعب أصواته لزروال كرجل الساعة الذي يملك القدرة على وقف نهر الدم بالجزائر، بالرغم من أن عمره كرجل سياسة لم يتجاوز عشرين شهرا، وما الأصوات الناعقة التي تثار الآن تعقيبا على الانتخابات لإظهارها على أنها تصفية للظاهرة الإسلامية، إلا نشازا مؤسّسا من القوى الدولية، التي ترى أن الجزائر عملاق ينبغي تركه منشغلا بهمومه الداخلية، قبل إيجاد حل نهائي لقضية الشرق الأوسط، وأن الدم لابد أن يستمر في التدفق. ولا أريد أن أطيل في هذا الموضوع لأنني رجل ثقافة أترأس جمعية ثقافية.

ما ينتظره الشعب (*)

أولا: إن البربر عرب عاربة، وأن البربرية لهجة للعربية القديمة (السامية)، بطل استعمالها بالمشرق ماعدا حضر موت باليمن التي لازالت تستعمل بها، وبالمغرب العربي ومصر. وأن لهجات تلمسان ووهران وبسكرة وقسنطينة وعنابة وجيجل والقاهرة وتونس هي لهجات للعربية الحديثة، لغة قريش والقرآن الكريم.

ثانيا: إن النزعة البربرية هي من خلق الاستعمار الفرنسي القديم بواسطة الظهير البربري بالمغرب سنة 1930 الذي أفشله رؤساء العشائر البربربة؛ وبواسطة مؤامرة 1949 التي أفشلها حزب الشعب الجزائري. ومن خلق الاستعمار الفرنسي الجديد عندما أسس الأكاديمية البربرية في باريس سنة 1967، من أجل هدف واحد وهو الإبقاء على هيمنة اللغة الفرنسية في الجزائر والمغرب العربي. وذلك بإيجاد ضرة للغة العربية. وآخر ما أنجزته الأكاديمية البربرية عقد مؤتمر في فرنسا عن البربرية في شهر سبتمبر 1995، بتمويل فرنسي، شارك فيه مائة باحث من سائر أقطار المغرب العربي. ومن الغريب أن يكتب صحفي مغربي معروف على أنه عروبي، في جريدة "الاتحاد الاشتراكي" المغربية، (عدد 27 سبتمبر 1995)، عن هذا المؤتمر كلاما غريبا يغطي عورته الشعوبية. وأحب أن أوضح للإخوة المغاربة أن النزعة البربرية أخطر على المغرب منها على الجزائر، لأن نسبة البربر إلى سكان المغرب (60 ٪)، بينما نسبتهم بالجزائر أقل من (20 ٪)، ولأن الفئة البربرية التي تنتشر فيها النزعة البربرية وهم القبائل تعتبر أكثر ناحية مستفيدة من التنمية الوطنية؛ بينما البربر بالمغرب يمثلون النواحي الفقيرة،

(*) خلاصة مقال نشر بـ "الشروق العربي" الجزائرية عدد 12/12/1995 و"الشرق الأوسط" اللندنية عدد 6226.

سكان البيوت القصديرية، والخطر كل الخطر أن يلبس الصراع الاجتماعي هذا (الثوب البربري)، ويتحول الصراع بين فقراء وأغنياء، إلى صراع بين عرب أثرياء وبربر فقراء. والفرنسيون الآن لا يثيرون النزعة البربرية بالمغرب لأنه منضبط بالنادي الفرنكفوني، ولكن سيأتي الوقت الذي سيثيرونها فيه وعندها ستكون الطامة الكبرى.

ثالثا: لقد أصدر الرئيس اليمين زروال أخطر قرار في تاريخ الجزائر، لم يصدر مثله أي حاكم جزائري طوال أربعة عشر قرنا، وهو تأسيس المحافظة السامية للأمازيغية، التي يأمل البيربريست أن يحققوا بها تدمير الوحدة الوطنية. إنهم يقولون الآن إنها تقر بأن اللهجة الأمازيغية في نفس حجم العربية، عندما يفسرون عبارة: (الهوية الجزائرية تتكون من الإسلام ومن الأمازيغية ومن العربية) بأن وزن العربية في وزن الأمازيغية، وكما يقال بالإنجليزية (فيفتي - فيفتي). وينبغي ألا ينسى الرئيس زروال أنه من أمازيغ الشاوية الذين يؤمنون حتى العظم بعروبة الجزائر كل الجزائر. كما ينتظر الشعب الذي انتخبه أن يحرر هويته من استعمار هيمنة اللغة الفرنسية على دولته الذي لازال قائما، بالرغم من مرور ثلاثة عقود على استقلاله، الذي تحققت خلالها (الجزائر الفرنسية) رسميا. الشعب ينتظر من رئيسه أن يلغي تجميد قانون تعميم استعمال اللغة العربية. وأن يأمر بتأسيس مجمع اللغة العربية الذي صدر في حقه قانون سنة 1986، والذي لازال مقبورا في أدراج الدولة بسبب تآمر أعداء العربية من البربرو-فرنكوفيل الذين يسيطرون على مفاتيح الإدارة. إن جسد الجزائر ترسبت فيه عروق من الصديد خلفها الاستعمار الفرنسي القديم والجديد، والطاقة الوحيدة القادرة على صهر هذه العروق وإزالتها هو التعريب. لقد كانت هذه الحقائق كلها تغلي في أعماق نفسي طوال هذه السنة، وتجنبت إثارتها حتى لا أتهم بالتشويش على مهمة الرئيس الانتقالية، أما الآن فإنني آخذ حريتي.

إن الشعب ينتظر من رئيسه المنتخب، أن يحترم إرادته فيعود، إلى استشارته باستفتاء، في المسألة الأمازيغية، وفي عبارة: «تتكون الهوية الجزائرية من الإسلام والأمازيغية والعربية» والتي تجعل اللهجة الأمازيغية (القبائلية) بالحرف اللاتيني في مستوى واحد مع اللغة العربية؛ هذه العبارة التي صارت آية قرآنية تردد على كل لسان. كان له عذر عندما كان رئيس دولة مسؤولا أمام إدارة، أما الآن فإنه رئيس جمهورية منتخب مسؤول أمام الشعب الذي انتخبه، وأهم ما ينبغي فعله أن يحافظ على الوحدة الوطنية، ولا وحدة وطنية بلا وحدة لغوية. فالموسوعة الفرنسية (يونيفرساليس) في مجلدها السابع تقول: «إن الوحدة اللغوية لفرنسا مرتبطة بوحدتها السياسية». وفي حديث أدلى به وزير الثقافة الفرنسي لقناة التلفزة الفرنسية الأولى يوم 15/ 11/ 1995 قال: «إن فرنسا ترفض تعدد الثقافات بها، لأن ذلك يعتبر خطرا على وحدة الأمة الفرنسية».

رابعا: أرجو من سيادة الرئيس أن يفعل مثلما فعل الهواري بومدين قائد جيش التحرير العظيم، الذي كانت أبواب مكتبه بالمرادية مفتوحة المنافذ، وكان يحيط به أناس لا يخفون عليه أي شيء. ولا بأس يا سيادة الرئيس أن أقول لك، ما سبق أن قلته للرئيس بن جديد سنة 1988، ونشرته الصحافة في ذلك الوقت، فقد قلت: «إن أخطر شيء على الرجل الأول للبلاد أن يحاط بأناس لا يقولون له إلا ما يحبّ ويحبّون أن يسمع».

خامسا: إن المصريين لم يفكروا أبدا في العودة إلى اللغة الفرعونية، رغم كونها مسجلة على آثار أعظم حضارة عرفتها البشرية في قاراتها الخمس، كما أنهم لم يتبنوا عبارة: (تتكون الهوية المصرية من الإسلام والفرعونية والعربية). بل إنهم سموا دولتهم (جمهورية مصر العربية) ولو يقولوا جمهورية مصر المصرية، بالرغم من أن كلمة مصر ومصرية عمرها سبعة آلاف سنة، بينما نجد

عمر كلمة جزائر وجزائرية أقل من خمسة قرون، بل إن المغرب الذي يوجد فيه أكبر تجمع بربري لم يغير هويته ولازال يقول إنها عربية مسلمة.

كلمة أخيرة أود أن أسرّ بها إلى شعبنا العربي المسلم، فقد تلقيت منذ الحصة المتلفزة التي سجلت لي عن الأمازيغية في بداية 1995 ولم تذع، عدة تهديدات بالقتل. مثلما حدث لي في بداية الثمانينيات عندما رددت على البربريست إثر ما يسمى بالربيع البربري، فهددت وكسرت سيارتي عدة مرات، وإذا حدث أن قتلت فسيكون قاتلي (فرنكوفيلي بربريست)، وأحب أن أوضح لهؤلاء أن والدتي الحاجة زينب أنجبت ولدين: عثمان وسليمان، فسليمان مات شهيدا وهو في سن الزهور كجندي في جيش التحرير، من أجل تحرير أرض الجزائر من الاستعمار القديم، وعثمان مستعد أن يموت شهيدا من أجل تحرير هوية الجزائر من الاستعمار الفرنسي الجديد.

هل تنجح الأكاديمية البربرية بفرنسا في ترويض الأوراس الأشمّ (*)

بقلم الدكتور عثمان سعدي
رئيس الجمعية الجزائرية للدفاع عن اللغة العربية

وهكذا قررت قيادة الأكاديمية البربرية في فرنسا برئاسة (سليم شاكر) ترويض الأوراس الأشمّ. ونزل علينا نحن أبناء (أوراس - النمامشة)، هذا النبأ نزول الصاعقة. فقد بثت التلفزة نبأ مفاده، أن مؤتمرا للأمازيغية سيعقد بعاصمة الأوراس باتنة، في نهاية مايو 1996.

ولقد تمكنت هذه الأكاديمية التي أنشأتها أجهزة استخبارات الاستعمار الفرنسي الجديد في باريس سنة 1967، من ترويض جرجرة، عندما أقامت ملتقى (إيعكوران)[2] سنة 1980. ومنذ ذلك التاريخ وهي تحاول عن طريق عملائها في الجزائر ترويض الشاوية: أرسلوا إلى تبسة وفدا من تيزي وزو، فاستقبلهم أبطال النمامشة بأن كسروا لهم زجاج سياراتهم، وطردوهم، وحذروهم من العودة؛ فلم يعودوا إلى مضارب أكبر قبيلة بربرية بالجزائر وهي قبلية النمامشة، التي أنجبت العربي التبسي، والأزهر شريط، وساعي، وعمر البوقصي، والوردي قتال، والرائد جدي، والرائد عثمان سعدي بن الحاج، وغيرهم من شاوية النمامشة، الذين يؤمنون بأن هوية الجزائر مبنية على ثنائية العروبة والإسلام، وأنها أبعد ما تكون عن الثالوث. فثلاثية الهوية الجديدة (الإسلام والعروبة والأمازيغية) مخالفة لسائر دساتير الجزائر، بما فيها دستور 1989 الذي نعيش تحت ظله. وأن هذه الدساتير لا تقر إلا ثنائية الهوية المتمثلة في (العروبة والإسلام). وما الأمازيغية في ذهن كل

(*) مقال نشر بـ "الشروق العربي" عدد 26/ 03/ 1996.

(1) أحمد بن نعمان: فرنسا والأطروحة البربرية في الجزائر، ص 167.

شاوي، أو قبائلي لم تشوهه سموم الآباء البيض، إلا عنصر في تاريخنا، وتراثنا الثقافي؛ إنها أمازيغية يوسف بن تاشفين المرابطي، وابن تومرت الموحّدي، وعبد الحميد بن باديس الصنهاجي، والعربي التبسي النموشي، والشيخ الزّموشي الحركاتي، وأحمد السرحاني، ومحمد الغسيري، والشيخ عمر دردور الأوراسيين. وليست ضرة لغوية للغة القرآن الكريم مثلما يريدها عملاء الأكاديمية البربرية في فرنسا. إنها مثل المصرية في مصر التي يصرّ قادتها على ثنائية الهوية المصرية (العروبة والإسلام).

لقد حاولت قبل سنوات هذه الأكاديمية ترويض الأوراس عن طريق إرسال وكيلها سنة 1991، الذي توجه إلى باتنة على رأس مجموعة من شباب تيزي وزو المغرَّر بهم، في عشرات الحافلات، واستقبلهم أبناء أبطال الأوراس الأشمّ على أطراف باتنة، بحجارة هذه الجبال، الذي يحمل كل حجر منها أثرا من دماء شهداء أول نوفمبر، فشتتوا جمعهم، ومنعوهم من تلويث تراب باتنة بأقدامهم الملطخة، وهوائها بآرائهم الشعوبية، المعادية للعروبة والإسلام وللوحدة الوطنية.

لقد عقد أول مؤتمر للأمازيغية بفرنسا في سبتمبر 1995، كتبت عنه وعن سمومه، ضمن دراسة مطولة عن المسألة الأمازيغية، نشرت في جريدة "الشرق الأوسط" اللندنية، و"الشروق العربي" أعداد (238 و239 و240). وبعد هزيمة (البربريزم) من خلال هزيمة مرشحها، بالانتخابات الرئاسية يوم 16 نوفمبر الماضي، في ولايات الشاوية الأربع، حيث تفوق عليه نور الدين بوكروح -(يراجع مقالي بصحيفة الشروق العربي عدد 28 نوفمبر 1996)- قررت قيادة الأكاديمية البربرية معالجة هذه الهزيمة، بعقد مؤتمرها الثاني في باتنة يوم 31 مايو المقبل، ويقال أن عدد المشاركين في هذا المؤتمر سيكون ألفي (2000) مؤتمر أو متآمر. من مختلف العواصم الفرنكفونية.

هل سيُتيح أبطال الأوراس الأشمّ الفرصة لأعداء الوحدة الوطنية، أن يعقدوا مؤامرتهم هذه، في عاصمة أوراسنا العظيم؟ فتُلوّث ذكرى مصطفى بن بولعيد العظيم.

لائحة رفض
من المجلس التاريخي للولاية الأولى

نحن أعضاء المجلس التاريخي للولاية الأولى -أوراس النمامشة- وأمناء الولايات الإدارية لكل من (باتنة، تبسة، خنشلة، أم البواقي، سطيف، برج بوعريريج) ومندوبو النواحي للمجاهدين لولاية باتنة، المجتمعون في مقر الأمانة الولائية للمنظمة الوطنية للمجاهدين، شارع ابن باديس، يومي السبت والأحد 11 و12 ذو القعدة 1416 هـ، الموافق لـ30 و31 مارس 1996م.

وبعد النقاش الواسع والتحليل المستفيض، حول أسباب ودوافع وأهداف الحركة الأمازيغية، وقضية عقد المهرجان أو المؤتمر العالمي حول الأمازيغية في باتنة، عاصمة الولاية الأولى التاريخية، وفي هذا الوقت بالذات.

ودعوة ما يقارب ألفين من دعاة الأمازيغية، لحضور هذا المؤتمر، وتخصيص الملايير من أموال الشعب التي كنا نود أن تنفق في صالحه، وليس لتغطية تكاليف هذا المهرجان أو المؤتمر، الذي يخفي من ورائه مشروعا تخريبيا يهدد البلاد في وحدتها الوطنية، ويحارب اللغة العربية والإسلام نيابة عن فرنسا، ضمن مشروع تآمري على وحدة الشعب التاريخية واللغوية، تحت إشراف المكتب العالمي للأمازيغية، وتكوين جمعيات وطنية ومحلية تحظى بالدعم المطلق المادي والسياسي، ولا يمثل أصحابها إلا أنفسهم.

وقد سبق لعدد كبير من الجمعيات التاريخية والثقافية، والمنظمات والاتحادات الطلابية، أن قدمت بيانات شديدة اللهجة، قوية الحجة، إلى رئاسة الدولة، والحكومة، في شأن خطر الحركة الأمازيغية، مثلا: بيان 21 نوفمبر 1994، وبيان 16 ماي 1995، والرسالة الموجهة لرئيس الحكومة في 15 جانفي 1995، وددنا لو أنها أخذت بعين الاعتبار.

وبعد تأكّدنا من الدوافع والأهداف الخطيرة لهذه الحركة المشبوهة، التي تسعى إلى زرع وتغذية الفتنة اللغوية، قصد إيجاد طرف ثالث في الصراع اللغوي، لتكريس هيمنة اللغة الفرنسية، والمساس باستقرار الأمة.

فإننا نؤكد، باسم سكان ومجاهدي الولاية الأولى التاريخية- أوراس النمامشة- ما يلي:

1 - الرفض القطعي لعقد هذا المؤتمر أو المهرجان العالمي في مدينة باتنة، عاصمة الأوراس، في هذا التاريخ، أو غيره فيما بعد.

2 - التصدي لهذه الحركة الأمازيغية ومقاومتها في منطقة الأوراس، بكل الوسائل الممكنة، على مستوى الولايات الإدارية؛ مع دعوة مختلف الجمعيات والمنظمات والاتحادات إلى التصدي لها ومقاومتها دون هوادة، ومناشدة جميع ولايات القطر الجزائري، إلى القيام بنفس الدور، لحماية الشعب الجزائري، في وحدته الوطنية واللغوية والدينية والتاريخية، وسيادة دولته الفتية.

3 - نتمسك باحترام اللهجات البربرية كتراث شعبي مشترك، عبر العصور، واعتبارها رافدا للغة العربية، ونرفض تحويل هذا التراث، إلى مشروع تخريبي، تحت تسيير المحافظة السامية للأمازيغية، بإشراف المكتب العالمي للأمازيغية.

4 - التأكيد على أنه لا يمكن بأي حال من الأحوال، أن تفرض لغة أخرى على الشعب الجزائري، إلا باستشارته عن طريق الاستفتاء، تجنبا للمس بثوابته ووحدته، واحتراما لسيادته، لاسيما في القضايا المصيرية.

عن المجلس التاريخي للولاية الأولى وأمناء الولايات الإدارية ومجاهديها ومندوبي النواحي لولاية باتنة.

الموقعون على اللائحة:

- العقيد الحاج لخضر عبيد	رئيس المجلس التاريخي للولاية الأولى
- محمد الهادي مسعوداني	الأمين الولائي للمجاهدين، باتنة
- العقيد عثمان سعدي	عضو المجلس التاريخي، تبسة
- أحمد زمولي	عضو المجلس التاريخي، تبسة
- حفظ الله أحمد	الأمين الولائي للمجاهدين، تبسة
- محمد الهادي رزايمية	عضو المجلس التاريخي، خنشلة
- الطاهر بوشارب	عضو الأمانة الولائية للمجاهدين، خنشلة
- عباسي بوزيد	الأمين الولائي للمجاهدين، خنشلة
- ملاح محمد الصالح م/ عمار	عضو المجلس التاريخي، باتنة
- الرائدة مصطفى مراردة	عضو المجلس التاريخي، باتنة
- محمد الشريف عايسي (جارالله)	عضو المجلس التاريخي، باتنة
- مصطفى بن عبيد م/ مسعود	عضو الأمانة الولائية للمجاهدين، باتنة
- عمار معرّف	الأمين الولائي للمجاهدين، أم البواقي
- مختار فيلالي	عضو الأمانة الولائية للمجاهدين، باتنة
- محمد بزيان	عضو الأمانة الولائية للمجاهدين، باتنة
- العربي مومن	مجاهد، باتنة
- عبد الحميد غنام	مجاهد، باتنة
- الحاج السعيد بن أحمد	عضو الأمانة الولائية للمجاهدين، ب.عريريج
- أحمد برّق	عضو الأمانة الولائية للمجاهدين، باتنة
- بلقاسم بوشارب	عضو الأمانة الولائية للمجاهدين، سطيف
- بخوش الصديق	مندوب ناحية المجاهدين، أولاد سلام
- رابحي الصغير	مندوب ناحية المجاهدين، اشمول

- بن فيّالة محمد الصالح مندوب ناحية المجاهدين، ثنية العابد
- محفوظ حريقة مندوب ناحية المجاهدين، أولاد سي سليمان
- أحمد شلوى مندوب ناحية المجاهدين، راس العيون
- عبد المجيد بن عمر مندوب ناحية المجاهدين، مروانة
- محمد حقني مجاهد، باتنة
- عبد الرحمن عطية مجاهد، باتنة
- منصوري بلقاسم مندوب ناحية المجاهدين، أريس
- الواعي محمود رئيس جمعية أول نوفمبر، الأوراس
- عبد الحميد حارك مندوب ناحية المجاهدين، الجزائر
- عموري الدراجي مندوب ناحية المجاهدين، الشمرة
- عمار بلعقون عضو المجلس التاريخي، باتنة
- مشتّي الجمعي مندوب ناحية المجاهدين، عين التوتة
- محمد ثاري مندوب ناحية المجاهدين، بريكة
- قيدوم معجوج أمين قسمة المجاهدين، بريكة
- محمد جعرّة مندوب ناحية المجاهدين، تكوت
- بن دحمان صالح مندوب ناحية المجاهدين، باتنة
- حنفوسي الطاهر مندوب ناحية المجاهدين، عين جاسر
- موسى حجيرة عضو الأمانة الولائية للمجاهدين، باتنة
- خبرارة صالح مندوب ناحية المجاهدين، نقاوس

ملاحظة

- أيدتها ببيانات الولايات التاريخية: الخامسة، السادسة، القاعدة الشرقية.

بيان تأييد من الرئيس أحمد بن بله

اجتمعت الولاية الأولى (أوراس النمامشة) في مدينة باتنة، يومي 30 و31 مارس 1996، وأصدرت لائحة حول المسألة الأمازيغية تتفق مع تاريخنا، ومع بيان أول نوفمبر. ومنطقة هذه الولاية تضم (الشاوية) أكبر تجمع أمازيغي بالجزائر، وأكثرهم أصالة من الناحية الأمازيغية، ولا تستطيع أية فئة أخرى أن تزايد عليهم في هذا الميدان، ولهذا فإن هذه اللائحة تعبّر عن الأمازيغ الأحرار، الوطنيين، الذي لم تشوههم دسائس الاستعمار.

لقد استعمل الاستعمار الفرنسي القديم ورقة الأمازيغية في نهاية الأربعينيات من أجل تدمير حزب الشعب الذي أعد للثورة المسلحة. وتمكنا من إفشال مؤامرته، وطردنا من الحزب العناصر التي استعملها، فلجأت إلى الحزب الشيوعي، وبقيت خميرة (البربريزم) حية إلى ما بعد الاستقلال، فالتقطها الاستعمار الفرنسي الجديد، وأسس عليها الأكاديمية البربرية في جامعة (فانسان) بباريس سنة 1967، من أجل التآمر على هويتنا المتمثلة في الإسلام والعروبة، وذلك بتدمير الوحدة الوطنية، بواسطة خلق لغة وطنية ثانية تدخل في صراع مع العربية، حتى تبقى الفرنسية مهيمنة تلعب دور الحكم في هذا الصراع.

إن سائر الأمم الحية المتقدمة تعتمد على قاعدة: (لا وحدة وطنية بلا وحدة لغوية)، وتعدد اللغات يعني تعدد الأمم، ومثل يوغوسلافيا، والاتحاد السوفياتي شاهد على ذلك. ولهذا فإن لائحة (أوراس النمامشة) قدمت التناول السليم للمسألة الأمازيغية، وذلك باعتبار تراث اللهجات الأمازيغية رافدا للغة العربية وللثقافة العربية.

وبناءً على ذلك فإنني أؤيد بقوة هذه اللائحة، وأهنئ أمازيغ أوراس النمامشة الذين سموا فوق الغرائز العرقية، وقدموا لنا المفهوم الصحيح لهذه القضية، التي لوحت في السنوات الأخيرة بخطر تمزيق وحدتنا الوطنية، بل وجر بلادنا إلى حرب أهلية على أساس عرقي، على غرار ما يجري الآن في يوغوسلافيا.

فهنيئا لإخوتنا بالأوراس النمامشة، على هذا الموقف الوطني الذي لا يعتبر غريبا عنهم، ألم تنطلق ثورة أول نوفمبر من الأوراس؟

أحمد بن بله

الجزائر في 28 أفريل 1996

ثالوثية الهوية الوطنية
تتعارض مع بيان أول نوفمبر (*)

بقلم الدكتور عثمان سعدي
رئيس الجمعية الجزائرية للدفاع عن اللغة العربية

من ضمن تعديلات الدستور المقترحة في مذكرة رئاسة الجمهورية، ثالوثية الهوية الوطنية. وهي بدعة خطيرة في تاريخ الجزائر والحركة الوطنية. فهوية الجزائر الوطنية عوملت منذ أن ظهر كيان الدولة الجزائرية الحديثة على أساس ثنائي يتمثل في (العروبة والإسلام). هي كالعملة لها وجهان لا ثالث لهما. ومنذ ترسخ الإسلام في المغرب العربي، بنيت هويته على الإسلام والعروبة، فمنذ استقلال المغرب العربي عن الخلافة الأموية بعد وفاة الخليفة الأموي العادل (عمر بن عبد العزيز)، ثم عن الخلافة العباسية، حكم بواسطة أكثر من عشر أسر أمازيغية، ولازمت طوال هذه القرون المغرب الهوية الثنائية.

وقد بني بيان أول نوفمبر على هذا التراث، فحدد الهوية الجزائرية تحديدا ثنائيا يعتمد على (العروبة والإسلام). ومنذ إعلان الاستقلال سنة 1962 لم تخرج مواثيق الجزائر (ميثاق طرابلس، وميثاق الجزائر، والميثاق الوطني)؛ ودساتيرها، عن بيان أول نوفمبر، فارتكزت جميعها على ثنائية الهوية (العروبة والإسلام).

وإذا استعرضنا البلدان العربية وجدناها ترتكز على الثنائية في تعريف هويتها، فالمغرب الأقصى الذي يؤلف البربر ستين في المائة من سكانه يعتبر هويته عربية مسلمة. كما أن مصر لم تضف البعد الفرعوني لهويتها، ولم تضف سوريا أو لبنان البعد الفينيقي، ولم يضف العراق البعد الأشوري البابلي.

(*) نشرت في أسبوعية "الشروق العربي"، عدد 21/ 5/ 1996.

وقد عبر البربريست بوضوح عن عدم اكتفائهم بالتعريف الثلاثي للهوية، ويطالبون بترسيم اللغة الأمازيغية في الدستور. فجريدة (Liberté) في عددها الصادر يوم 6 مايو الجاري تفسر هذه الثلاثية بأن (عناصرها الثلاثة في مستوى واحد من القوة) أي أن اللغة العربية في مستوى واحد مع اللهجة الأمازيغية. وتنشر جريد (El Watan) في عددها الصادر في 13 مايو الجاري، تصريحا للناطق الرسمي للمحافظة السامية للأمازيغية يعبّر فيه عن «ضرورة أن يتضمن التعديل دخول اللغة الأمازيغية للدستور وتشريع وضعها دستوريا».

إنه في الوقت الذي يعمل فيه على إدخال الأمازيغية في الدستور، يبقى (قانون تعميم استعمال اللغة العربية) مجمدا، وتصفي العربية من الإدارة، ويبدأ في تنفيذ خطة لمحاصرة المعاهد المعربة بالجامعة بخلق معاهد موازية لها في نفس الاختصاص بالفرنسية، من أجل تصفيتها ببطء، بدل تعريب المعاهد العلمية والتكنولوجية؛ ويلوّح بإعداد خطة لضرب العربية في المدرسة الأساسية والثانوية. مما يشير إلى أن رفع شعار الأمازيغية ليس المقصود منه خدمة الأمازيغية، وإنما ضرب اللغة العربية، والعمل في خدمة الفرنسية وتأييد هيمنتها على الحياة الجزائرية.

إن لائحة الولاية التاريخية الأولى (أوراس النمامشة) الصادرة في 31 مارس 1996، وبيان أحمد بن بلا رئيس الجمهورية الأسبق المؤيد لها، وبيانات الولايات التاريخية السادسة، والخامسة، والقاعدة الشرقية، كلها تؤكد على ضرورة بقاء ثنائية الهوية، احتراما لبيان أول نوفمبر.

لائحة رفض

من المجلس التاريخي الموسع (*)

نحن رئيس وأعضاء المجلس التاريخي للولاية الأولى "الأوراس النمامشة، وأعضاء الأسرة الثورية بولاية باتنة، ومسؤولي وممثلي المنظمات، والجمعيات، والاتحادات الطلابية، والشخصيات التاريخية والعلمية والثقافية، والمجتمع المدني بصفة عامة، المجتمعين بمقر الأمانة الولائية للمجاهدين بباتنة، يوم الأربعاء فاتح ربيع الأول 1417 هـ الموافق لـ 17 جويلية 1996م والموقعين أدناه.

1 - بناءً على البيان الصادر في 21 نوفمبر 1994 عن لجنة الدفاع عن الوحدة الوطنية وثوابت الأمة، المنبثقة عن الأسرة الثورية والمنظمات والجمعيات والاتحادات الطلابية بولاية باتنة.

2 - بناءً على المراسلة الموجهة من لجنة الدفاع عن الوحدة الوطنية وثوابت الأمة، إلى السيد رئيس الحكومة في 15 جانفي 1995 والمتعلقة بالقضية الأمازيغية.

3 - بناءً على لائحة المجلس التاريخي للولاية الأولى، 31 مارس 1996، والمتعلقة برفض عقد مؤتمر الأمازيغية بباتنة.

4 - بناءً على البيان الصادر عن الندوة الجهوية للولاية الأولى التاريخية، المنعقدة بباتنة يومي 15/ 16 ماي 1996 في إطار التحضير للمؤتمر التاسع للمجاهدين والمتضمن رفض عقد مؤتمر الأمازيغية بباتنة.

5 - بناءً على مصادقة المؤتمر التاسع للمجاهدين، المنعقد بقصر الأمم

(*) تراجعت المحافظة السامية للأمازيغية، وأصدرت بيانا في 3/ 8/ 1996، أعلنت فيه إلغاء عقد ملتقى الأمازيغية بباتنة.

من 29 إلى 31 ماي 1996، على موقف الولاية الأولى، من قضية رفض عقد مؤتمر الأمازيغية بباتنة.

6 - بناءً على مساندة الولايتين التاريخيتين الخامسة والسادسة، والقاعدة الشرقية، وأسرة الثورة بولاية عين الدفلى، وجمعية محافظة وترقية التراث الثقافي لبلدية بجاية. والعديد من الأحزاب والجمعيات والشخصيات الوطنية، لموقف الولاية الأولى التاريخية الرافضة لعقد مؤتمر الأمازيغية بباتنة.

بناءً على ما سبق نسجّل ما يلي:

1 - نشيد بموقف الولايات التاريخية، وبعض الأحزاب والجمعيات والشخصيات التاريخية والعلمية، وكل المساندين والمؤيدين لموقف الولاية الأولى التاريخية، كما نشيد بما ورد في التوصيات الصادرة عن الملتقين الوطنيين المنعقدين بباتنة وهما: ملتقى التعريب، وملتقى المرحوم مولود قاسم نايت بلقاسم، وكذا توصيات المؤتمر الجهوي للاتحاد الوطني للنساء الجزائريات، والمتعلقة برفض عقد مؤتمر الأمازيغية بباتنة.

2 - نستنكر تصرفات المحافظة السامية للأمازيغية، التي تريد أن تتحدى موقف الأسرة الثورية، والمجتمع المدني، والشرائح الواسعة من أبناء الولاية الأولى التاريخية، وباقي الولايات والجمعيات والمنظمات، والمساندين من مختلف جهات الوطن، للموقف الرافض لعقد مؤتمر الأمازيغية في باتنة عاصمة الأوراس الأشم.

3 - إيمانا منا بالدفاع عن الوحدة الوطنية والحفاظ على الثوابت الوطنية، والتمسك بمبادئ وقيم ثورة أول نوفمبر 1954، وتحسبا لما يترتب عن المؤتمر المزمع عقده بباتنة من فتن، وإثارة للنعرات، فإننا نرفض رفضا قاطعا عقد هذا الملتقى في مكانه وزمانه، حتى لا تتحول باتنة، رمز الوحدة الوطنية، إلى حقل للتجارب السياسية، وقاعدة للمخططات التغريبية.

4 - مرّة أخرى، نؤكد أمام الله والتاريخ، وأمام الشعب الجزائري

وسلطات البلاد، أن الأوراس لا يتحمل العواقب، التي تنجم عن انعقاد هذا الملتقى في باتنة من 24 إلى 30 أوت 1996، أو في موعد آخر، ويبقى المصرون على عقده يتحملون وحدهم النتائج السلبية التي قد تنجم عنه، والتي نحن في غنى عنها.

عن الموقعين/ الأمانة الولائية للمجاهدين - باتنة

رسالة من مدينة بجاية

لا للنزعة البربرية (*)

تجري هذه الأيام في مدينة بجاية أحداث في غاية الغرابة، بجاية المدينة التاريخية بآدابها وتقاليدها ولغتها وأهلها.

ظهرت في السنوات الأخيرة عناصر مريبة تعمل على تشويه تراث بجاية العتيد باسم النزعة البربرية في القرن الخامس عشر الهجري، بعد أن امتزج البربر بالعرب المسلمين في القرن الأول الهجري، وصاروا يكوّنون أسرة واحدة، عقيدتها الإيمان بالله الواحد الأحد لاشريك له، ولغتها لغة القرآن الكريم، اللغة العربية التي قال عنها رسول الله ﷺ- بمناسبة سوء سلوك بعض المنافقين تجاه بلال الحبشي وصهيب الرومي وسلمان الفارسي رضي الله عنهم، لأنهم ليسوا عربا-: «ليست العربية بأحدكم من أب ولا أم وإنما هي اللسان فمن تكلّم العربية فهو عربي» صدق رسول الله ﷺ.

عاش أجدادنا نتيجة هذا التمازج في وئام تام في ظل التعاليم الإسلامية المجيدة، فأنشئوا حضارة مزدهرة في المغرب والأندلس شهد بعظمتها ويشهد العدو قبل الصديق، ثم وبدون استئذان، دخلت عناصر مشبوهة في ساحة حياتنا وهي تعمل على تنغيصها بما تنادي به من أفكار غريبة لا صلة لها بمجتمعنا وعقيدتنا وتاريخنا.

تنطلق أصوات تلكم العناصر المشبوهة من الادعاءات الآتية:

1 - العرب المسلمون كانوا مستعمرين ولم يكونوا فاتحين.

2 - اللغة العربية لغة القرآ لغة فرضت علينا، وليست لغتنا. والإسلام دين غريب عنا!

3 - اللغة الفرنسية والمفرنسون أقرب إلينا من اللغة العربية والعرب.

(*) الرسالة صادرة عن جمعية المحافظة وترقية التراث الثقافي لمدينة بجاية، وموقعة من رئيسها الأستاذ سيد أحمد الطرابلسي. نشرتها "الشروق العربي" في عدد 18/ 6/ 1996.

1) العرب المسلمون كانوا مستعمرين!!

لم يتفوه بهذا الكلام غير منظري الاستدمار الفرنسي ليبرروا استدمارهم بلادنا، إنهم ما فتئوا يرددون: «إننا وجدنا الجزائر مستدمرة سنة 1830 ولم نفعل أكثر من افتكاكها من استدمار كانت ترزح تحته».

هذا الادعاء باطل وذلك للاعتبارات الآتية:

أولا: إن العرب الفاتحين كانوا حاملين رسالة سماوية مهمتهم الأولى دعوة الناس إلى الإيمان بالله واحد لا شريك له، وأن محمدا بن عبد الله عبده ورسوله خاتم النبيين، دعوة الناس إلى التعاون على البر والتقوى، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ صدق الله العظيم.

يقول رسول الله ﷺ: «لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى».

ثانيا: عدد البربر المسلمين الذين كانوا في جيش طارق بن زياد البربري الأصل كان بنسبة الثلثين، مقابل ثلث من العرب. لو كان قصد العرب المسلمين استدمار المغرب كما يدعي المغرضون، لما سُمح لطارق بن زياد البربري تولي قيادة جيش المسلمين، مكون في أغلبيته من البربر، ولكنها العقيدة الإسلامية التي تسمو على كل اعتبار وتجعل المسؤولية في يد من يستحقها وجدير بها.

ثالثا: معظم الدول التي نشأت في المغرب منذ شروق شمس الإسلام على أرجائه إلى يومنا هذا، كانت ترأسها أسر غير عربية الأصل وإن كانت عربية اللسان، ابتداءًا من الرستميين ثم الحماديين، ثم الزيانيين، إلى غير ذلك من الدول التي تعاقبت على تسيير شؤون محربنا منذ الفتح الإسلامي.

2) اللغة العربية لغة القرآن لغة فرضت علينا وليست لغتنا والإسلام دين غريب عنا!!

أريد بادئ ذي بدء أن ألفت النظر إلى أن سكان منطقة القبائل على ما نعلم ونحن منهم، لم يفوضوا دعاة النزعة البربرية للتحدث باسمهم، أو تقرير مصيرهم، أو تحديد هويتهم، لأن مصيرهم مصير كل الجزائريين وهويتهم هوية كل الجزائريين. وهذه الهوية موجودة مع وجودنا على هذه الأرض تضرب بجذورها في التاريخ، نحن بربر عرّبنا الإسلام، واعتنقنا الإسلام طواعية، فتوطدت صلتنا برب الكون رب العالمين، واتخذنا الإسلام منهجا في الحياة فتحولنا إلى سادة بعد أن كنا عبيدا تحت قياصرة اللاتين، وتبنينا لغة القرآن اللغة العربية بكل فخر واعتزاز، أجدادنا الذين أقاموا صرح الحضارة العربية الإسلامية في ربوع المغرب وفي الأندلس لم يكونوا قاصرين أو بلهاء، وإنما كانوا راشدين واعين مدركين الفرصة التاريخية التي منحها إياهم الإسلام، فأخلصوا له وحملوا مشعله غربا وشرقا عاليا.

الثابت تاريخيا أننا قبل الإسلام لم نكن نملك لغة مكتوبة وإنما انتشرت بيننا في العهد القرطاجي اللغة البونيقية ثم عرفنا اللاتينية في العهد الروماني، إلا أنها لم تتوغل في سواد شعبنا مثل البونيقية، بل انحصرت في الفئة العميلة للرومان.

3) اللغة الفرنسية والفرنسيين أقرب إلينا من اللغة العربية والعرب!!

هذا الكلام ليس غريبا من أناس جعلوا قبلتهم باريس، كلما لجأوا إليها وما أكثر لجوءهم، استقبلهم رؤساء فرنسا بالأحضان مثل ما فعل ميتران وزوجته بمعطوب الوناس، فاستقبلوه استقبال الوصي للقاصر أو المتبوع للتابع، فأغدقوا عليه العطايا والجوائز، لا لشيء إلا لأنه يمجد اللغة الفرنسية

والفرنسيين، ويحارب اللغة العربية والإسلام. ألم يصرح في التلفزة الفرنسية: «لو عممت اللغة الفرنسية منذ سنة 1962 في الجزائر لما كانت اليوم قضية اسمها (تمازيغت)».

نستنتج من هذا التصريح ما يلي:

الدعوة إلى الأمازيغية دعوة مشبوهة تخفي مقاصد غير التي توهم الناس بها، إذ ماذا يعني كتابة هذه اللهجة بأحرف لاتينية! بكل صراحة يعني إبقاء الحرف اللاتيني حيا في حياتنا، وبالتالي يعني بقاء اللغة الفرنسية مسيطرة على دواليب حياتنا، فتكون الأمازيغية المكتوبة بالأحرف اللاتينية عبارة عن لغة فرنسية بالوكالة قلبا وقالبا.

هذه الدعوة شبيهة بالدعوة إلى الحضارة المتوسطية لمحاربة حضارتنا العربية الإسلامية، حضارة متوسطية في الأسهم، وفرنسية في المعنى والقصد، دعوة إلى حضارة متوسطية في الظاهر ودعوة إلى الاندماج في فرنسا في حقيقة الأمر، أصحاب النزعة البربرية يريدون أن يمحوا تاريخنا العربي الإسلامي، الذي هو صفحات ناصعة في جبيننا، دول مستقلة معتزة بشخصيتها العربية الإسلامية ساهمت في تشييد أنبل وأعظم حضارة أخرجت للناس ألا وهي الحضارة العربية الإسلامية.

تريد النزعة البربرية أن تعيدنا إلى التبعية اللاتينية بعد أن حررنا الإسلام منها.

تريد النزعة البربرية أن تقضي على اللغة العربية لغتنا التي سجلنا بها أنصع صفحات تاريخنا المجيد، وتحل محلها لهجة صنعت في مخابر فرنسا الاستدمارية، مكتوبة بأحرف لاتينية لا تمتُّ بصلة إلى شخصيتنا ولا إلى أصالتنا.

لا، لا، كفى مهزلة. إن الظروف الصعبة التي تواجه شعبنا، والفراغ المتفشي في بعض القطاعات، لا ينبغي أن يتحول إلى مطية يركبها الانتهازيون

والاندماجيون، ليزرعوا الفتنة بيننا، تدعمهم قوى تغريبية في الداخل وقوى أجنبية في الخارج، تعمل للإجهاز على هويتنا ووحدتنا.

إن مقاصد أصحاب النزعة البربرية صارت معروفة لكل الشعب الجزائري بما تنطوي عليه من تضليل، ودعوة صريحة إلى الاندماج في فرنسا، وإلا كيف نفسر سلوك هذه الفئة التي لا تتعامل إلا باللغة الفرنسية وتمنع على أتباعها التحدث باللغة العربية لغة الجزائريين.

إن الأحزاب السياسية التغريبية داعية الاندماج، التي عجزت عن إقناع الشعب بترهاتها وسخافاتها، راحت تستعمل دعاة النزعة البربرية في محاولة يائسة لتحقيق مقاصدها الدنيئة في منطقة القبائل.

بجاية في 12 ذي الحجة 1416 هـ / 1996/4/30

رئيس جمعية محافظة وترقية التراث الثقافي

لمدينة بجاية سيد أحمد طرابلسي

رأي الأستاذ محمد البصري
في المسألة البربرية (*)

أنا من أصل بربري... ومع ذلك فإن تاريخي النضالي على مدى خمسين عاما قد ارتبط بالوطنية المغربية والقومية العربية.

لا توجد مسألة بربرية بالمعنى السياسي الحقيقي للكلمة - مثلما توجد مثلا مسألة كردية في العراق أو مسألة جنوب السودان، ناهيك عن المسألة الطائفية في لبنان. فالبربر مندمجون تماما في مجتمعهم بشمال إفريقيا بسبب الرابطة الإسلامية، وبسبب التزاوج المستمر، وبلا عقد عنصرية بين العرب والبربر، فوالدة الملك بربرية، وزوجته بربرية... والكثير من أسر المغرب تجب فيها الأب أو الأم من البربر...

إن المشكلة في نظري مشكلة مصالح اقتصادية - سياسية، ومشكلة ديمقراطية في المغرب. فالذين يثيرون المسألة البربرية مثلما هو الحال في الجزائر مثلا، يفعلون ذلك حفاظا على مصالحهم الاقتصادية والوظيفية في جهاز الدولة والإدارة الجزائرية. وهؤلاء هم بربر منطقة القبائل الذين تفرنسوا لغة منذ وقت طويل، ومن ثم مكنهم الاستعمار من شغل كثير من المواقع الثانوية في الإدارة والتجارة، وخاصة في العاصمة، التي تقع قرب منطقة القبائل. وحين حصلت الجزائر على الاستقلال كان هؤلاء هم الكوادر الوحيدة المدربة، فانتقلوا من المواقع الثانوية إلى المواقع الرئيسية الأولى التي أخلاها الأوروبيون في أجهزة الإدارة والخدمات والإنتاج. ومع اشتداد موجة التعريب في الجزائر بات هؤلاء يشعرون بالخطر على مصالحهم المكتسبة فرفعوا شعار الثقافة البربرية حينا

(*) أحد السياسيين المغاربة المعروفين مغربيا وعربيا، والمناضلين في سبيل توحيد شعوب الأمة العربية وتحريرها من الاستعمار والاستبداد.

وشعار الثقافة الجزائرية حينا آخر في مواجهة التعريب والثقافة العربية... أما في المغرب فلا تعدو المسألة أن تكون جزءا من اللعبة السياسية "فرّق تسد". وقد وجدت بعض القيادات المغربية ذات الأصول البربرية والتي ليس لها قبول شعبي -إما لغياب تاريخ نضالي لها أو لغياب برنامج سياسي اجتماعي تقدمي لها- وجدت أن وسيلتها للوصول إلى السلطة أو المشاركة فيها هي أن تستغل هذه النعرة العنصرية... ولا ينجح هذا الاستغلال إلا في أكثر مناطق المغرب تخلفا، وهي منطقة الأطلس. ولكن هذا الحزب لو نزل إلى الدار البيضاء، ونصفها على الأقل من أصول بربرية، فلا فرصة أمامه في النجاح. فبربر المدن لا يستجيبون لمثل هذه الدعوات العنصرية المتخلفة...».

في الواقع أن من يدعو إلى الثقافة البربرية في مواجهة الثقافة العربية، ينتهي موضوعيا إلى الدعوة إلى الثقافة الفرنسية، حتى عن غير قصد. فحيث أن البربرية لغة غير مكتوبة ولا يوجود لها تراث مكتوب، فإن المناهض للعروبة والعربية سينتهي حتما إلى الأخذ بأحد اللغات العصرية الأخرى. ولما كانت الفرنسية هي الأقرب والأقوى، وهي المتاحة على أي الأحوال، فإن هؤلاء الدعاة سيأخذون بها... من هنا ليس صدفة أن فرنسا هي المشجعة الأولى والرئيسية لحركة الثقافة البربرية. فهي تدرك أن الذين ينجذبون إلى هذه الدعوة سينتهون موضوعيا في مجرى فرنسا والثقافة الفرنسية. وإذا كان لي كبربري أن أختار لغة وثقافة غير بربرية، فالعربية هي اختياري، وهي اللغة الوطنية، وهي لغة الإسلام، وهي وسيلتي إلى تراث العرب والمسلمين، ووسيلتي إلى مستقبل قومي عربي مشترك مع بقية الشعوب العربية..».

إلغاء المؤتمر الأمازيغي (البربري) الشعوبي وسُعار الصحف الفرنسية الصادرة في الجزائر (*)

بقلم الدكتور عثمان سعدي
رئيس الجمعية الجزائرية للدفاع عن اللغة العربية

لقد تابع قراء العربية قضية المؤتمر الأمازيغي الشعوبي، الذي تقرر عقده في مدينة باتنة، عاصمة الأوراس الأشم، بهدف جر أكبر تجمع أمازيغي وهم (الشاوية)، إلى النزعة البربرية الشعوبية، التي تهدف إلى شق الشعب الجزائري إلى شعبين: شعب بربري يتكلم البربرية، وشعب عربي يتكلم العربية، لكي تبقى اللغة الفرنسية مهيمنة على الجزائر، وإلى الأبد، كلغة مشتركة بين الشعبين. وسبق أن بينت أن هذه النزعة بقيت محصورة في فئة بربرية وهي فئة القبائل، بينما بقيت الفئات البربرية التسع الأخرى بعيدة عن التأثر بها، وكيف أن المخططين لهذه النزعة بالأكاديمية البربرية بفرنسا، رأوا أنه ما لم تخرج من بلاد القبائل إلى الفئات الأخرى، ستبقى قضية جهوية سيكشف القبائل أنفسهم زيفها واستعماريتها، فيتخلون عنها. ورأوا أنه لابد من إدخال هذه النزعة إلى بلاد الشاوية، فعملوا منذ 1980، على تحقيق ذلك. وفي سنة 1991 توجه زعيم الحزب الجهوي (السعيد سعدي) إلى مدينة باتنة على رأس خمسين حافلة محملة بأعضاء الحركة البربرية في (تيزي وزو) وهو يقول: «لقد قررت التوجه إلى باتنة لفتح الأوراس وبلاد الشاوية للحركة البربرية». واستقبله أبناء الأوراس بالحجارة على أطراف باتنة، وهم يقولون له: «إياك وأن تعود هنا مرة أخرى، فنحن عرب مسلمون». والسعيد سعدي هو الذي يقول في كتابه الأخير الذي طبعته له هذه السنة دار (Flamarion) في باريس: «من ليس بربريا ليس جزائريا (Ce qui n'est pas Berbere n'est pas un Algérien).

(*) نشر في "المجاهد الأسبوعي" عدد 1884 . 10/ 9/ 1996.

وتحرك المجاهدون الشاوية: نشرت مقالا في أسبوعية (الشروق العربي) عدد 26/ 3/ 1996 تحت عنوان (هل تنجح الأكاديمية البربرية بفرنسا في ترويض الأوراس الأشم؟) (رفعت المحافظة السامية للأمازيغية دعوى ضدي على هذا المقال في شهر يونيو)؛ واجتمع واحد وأربعون من ضباط جيش التحرير الوطني، للولاية الأولى التاريخية للثورة، والذين أتوا من ست ولايات (محافظات) إدارية، في مدينة باتنة يومي 30 و31 آذار (مارس) 1996، وأصدروا لائحة يرفضون فيها عقد المؤتمر بمدينتهم «لأنه مؤتمر عرقي هدفه إثارة فتنة لغوية بالبلاد». واطلع المجاهد الكبير أحمد بن بله على اللائحة، فأصدر يوم 28/ 4/ 1996 بيانا أيّد فيه لائحة الولاية الأولى، وثمن فيه موقف الشاوية «الذين سموا فوق الغرائز العرقية، كما طلب من الشعب تأييد المفهوم الوطني للمسألة الأمازيغية الذي حدده الشاوية الأبطال في لائحتهم». (شنت الصحف الفرنسية اليومية الخمس الصادرة في الجزائر حملة وقحة على أحمد بن بلا، في أكثر من عشرة أعداد في شهور يونيو ويوليو وأغسطس). واستجاب الشعب الجزائري العربي المسلم، فأيدت الولايات التاريخية للثورة: السادسة والخامسة والثانية والقاعدة الشرقية، لائحة الرفض البربرية، واضطرت المحافظة السامية للأمازيغية إلى تأجيل المؤتمر الذي كان سيعقد في مايو.

في شهر مايو 1996 عقدت المنظمة الوطنية للمجاهدين مؤتمرها، واتخذت قرارا يتماشى مع قرار الولاية الأولى التاريخية حول مسألة الأمازيغية، لكن تبين أن المحافظة السامية لم ترعو، فقررت عقد مؤتمرها في باتنة في 26 أغسطس 1996. واجتمعت الولاية الأولى التاريخية مرة أخرى في مدينة باتنة، وأصدرت لائحة رفض ثانية، يوم 17/ 7/ 1996 تصر فيه على عدم انعقاد المؤتمر، وتحمل المحافظة السامية للأمازيغية النتائج الوخيمة التي ستترتب على انعقاده في باتنة. واضطرت هذه إلى إلغاء هذا المؤتمر المشبوه، تحت ضغط السلطات العليا للبلاد.

ومع بداية أغسطس انطلقت الصحافة الفرنسية الصادرة في الجزائر في حملة مسعورة ضد عروبة الجزائر، علما بأن صدور هذه الصحف غير قانوني ويتعارض مع قانون الإعلام، الذي يحصر صدور الصحف بالجزائر في اللغة العربية. وتمول هذه الصحف التي يملكها القطاع الخاص بإعلانات القطاع العام الذي يحجبها عن الصحف الصادرة بالعربية. وتصنف هذه الصحف كل من يدافع عن اللغة العربية والتعريب ضد الفرنكفونية، أو ضد ربيبتها الأمازيغية (البربرية)، بالأصولي إذا كان ملتحيا، وبالبعثي إذا كان غير ملتح.

وقد تابعت بعناية منذ مدة، وبخاصة منذ بداية أغسطس، الصحف الفرنسية الخمس الصادرة بالجزائر وهي:

(Le Matin, Autentique, l'opinion, Liberté, El Watan)

فوجدت أنها تضرب كعادتها على وتر واحد، وهو معاداتها للبعد العربي للجزائر، تمشيا مع مفهوم الاستعمار الفرنسي، الذي لم ينكر على الجزائري إسلامه، وإنما أنكر عليه عروبته. كان الجزائري قبل الاستقلال يحمل بطاقة تعريف مكتوبا عليها (فرنسي مسلم). وهذه بعض غرائب ما كتبته هذه الصحف:

- لابد من تعليم البربرية كالعربية، وعلى قدم المساواة.
- البربرية هي اللغة الأم الأولى.
- العربية كاللاتينية ميتة، ولابد من استبدالها بالدارجة، والحرف العربي حرف بدائي، ولابد من التلتين اقتداءً بأتاتورك.
- لابد أن تعترف الدولة بالهوية البربرية للشعب الجزائري.
- لابد من تعميم البربرية على سائر مؤسسات الدولة.
- تأسيس المحافظة السامية للأمازيغية يعني نهاية للتيار العربي الإسلامي.
- لابد من إخراج الأمازيغية (البربرية) من (الغيتو Ghetto) القبائلي، ونشرها بين الفئات البربرية الأخرى وبخاصة الشاوية. (Liberté عدد 3/ 8/ 1996)، والغيتو معناها الحارة اليهودية. وأنا أرى أن وصف بلاد القبائل الغالية بالحارة

اليهودية جريمة في حق الأبطال القبائل، من أمثال المقراني والشيخ حداد قائدي ثورة 1871، والشيخ الفضيل الورتلاني، ومولود قاسم نايت بلقاسم. ولابد أن يكتشف إخواننا القبائل زيف النزعة البربرية ويعيدون بلادهم إلى الصف الوطني، وسيكون ذلك قريبا إن شاء الله. ولقد بدأت بوادر الصحوة القبائلية تطفو، فقد أصدرت جمعية المحافظة على ثقافة بجاية بيانا أيّدت فيه لائحة الأوراس، وهاجمت فيه النزعة البربرية.

- «الأوراس بلد الكاهنة وليس بلد البعثيين»، والبربريست يطالبون بأن ينصب تمثال للكاهنة الوثنية -التي حاربت الإسلام- في ساحة الشهداء بالعاصمة. ولم يطالبوا بنصب تمثال (لالة فاطمة نسومر) التي حاربت الاستعمار الفرنسي في بلاد القبائل، وماتت شهيدة، كمرابطة لإحدى الزوايا الطرقية. بالجزائر يعطى اسم الكاهنة لبناتها، وتعتبر بطلة وشهيدة لأنها حاربت الإسلام وماتت على وثنيتها، وهي تحارب الجيش الفاتح بقيادة الحسان بن النعمان، واستبدل اسم الأوراس من (أوراس النمامشة) وهي تسمية ثورة أول نوفمبر له، بـ (أوراس الكاهنة) وتأسست جمعية تحمل هذا الاسم، تتمتع بالدعم الكبير، ويغدق عليها المال والمقرات في باتنة وفي العاصمة بلا حساب، في الوقت الذي تضطهد فيه (الجمعية الجزائرية للدفاع عن اللغة العربية) وتجرد من مقرها. ولقد قلت لهم تعليقا على هذا الطلب: ما رأيكم لو طلبت جماعة في الحجاز بإعادة الاعتبار لأبي لهب، ونصب تمثال له في أكبر ساحة بجدة أو بالرياض، وإلغاء سورة (أبي لهب)، كيف سيكون رد الفعل هناك؟ سيكون طبعا بالسيف والنطع.

- تزعم أن الحاج الأخضر قائد الولاية الأولى يؤيد عقد المؤتمر في باتنة (Authentique عدد 4/ 8/ 1996)، بينما الحاج الأخضر هو الذي قابل رئيس الجمهورية في أفريل الماضي، وسلمه لائحة الرفض وحثه على عدم عقده في باتنة.

- التحضير لفاتح المغرب العربي (عقبة بن نافع).

- التذكير بالدعوى التي رفعتها ضدي المحافظة السامية للأمازيغية في شهر يونيو الماضي، في سائر هذه الصحف، وفي أكثر من خمسة عشر عددا، والهجوم علي.

- «الإظهار بأن الذي يرفض انعقاد المؤتمر هم النمامشة وليس الأوراسيين». علما بأن النمامشة تعتبر أكبر قبيلة بربرية وبأن الأوراس والنمامشة تجمع طبيعي وبشري واحد، أكدته الثورة عندما سمت الولاية الأولى لها بـ (ولاية أوراس النمامشة)، وبأن الذي رفض انعقاد المؤتمر هم الشاوية المتواجدون في ثماني ولايات إدارية، بينما النمامشة متواجدون في ولايتين.

- «إظهار الرئيس أحمد بن بلّا بأن بيانه محصور في رفض انعقاد المؤتمر»، والحقيقة أن البيان يؤيد بقوة المفهوم الوطني للمسألة الأمازيغية الذي حدده الشاوية في لائحة الرفض، التي ترفض المؤتمر والأمازيغية الشعوبية، ويهيب بالشعب الجزائري أن يتبنى هذا المفهوم.

- بيان البربريست ابن البطل عميروش: نشرت الصحافة الفرنسية المذكورة بيانا لابن العقيد البطل عميروش، يهاجم فيه رفاق أبيه في الأوراس، ويصفهم بنفس الأوصاف التي كان يصفهم بها الاستعمار وأبواقه «كعصابات القتلة، والذباحين». ومن الغريب أنه يصفهم بالجهويين لأنهم يرفضون الجهوية التي جر هذا وجماعته بلاد القبائل إليها، أن تنتقل إلى بلاد الشاوية.

ولي قصة مع نور الدين آيت حمودة (ابن عميروش) هذا، ذكرتها في كتابي (التعريب في الجزائر) الذي صدر سنة 1993، صفحة 197 كما يلي: «عندما توجهت سنة 1991 إلى مدينة تيزي وزو على رأس وفد من الجمعية الجزائرية للدفاع عن اللغة العربية، لتنصيب فرع الجمعية، استقبلنا بعدد هام من الشبان (البربريست) بقيادة ابن الشهيد البطل عميروش، معلنين معارضتهم للجمعية

ولأهدافها، وأفهمتهم (أن هدف جمعيتنا ليس ضد أي لغة، بما فيها الفرنسية كلغة، وإنما هدفها محاربة هيمنة الفرنسية على حساب وضع العربية بالجزائر). فأجابني ابن عميروش بما يلي: «إننا نكافح هنا لتحقيق هدف واحد وهو محاربة هيمنة اللغة العربية». وأجبته على الفور: «أتستطيع الإجابة على السؤال التالي: ما هي اللغة التي صدرت بها الأوامر لقتل والدك الشهيد؟». ولم يجب على السؤال. أنظروا أيها القراء الكرام إلى الأضرار الرهيبة التي ألحقها (البربريست) ببلادنا في عقود الاستقلال الثلاثة، فقد تمكنوا من مسخ حتى فكر ابن بطل من أبطال ثورتنا». وأنا على يقين أنه لو كان عميروش حيا لتبرّأ من هذا الابن العاق، فقد كان رحمه الله يمنع جنوده التحدث بالفرنسية.

وتقوم جريدة (El Watan)، في هذه الفترة بنشر دراسات فرنكوفيلية، ففي يوم 5 أغسطس نشرت مقالا تحت عنوان (الحياة الثقافية منذ الاستقلال) يدعو فيه كاتبه إلى التخلي عن الفصحى وتبني الدارجة، كما يعتبر قانون التعريب الذي جمد سنة 1992، والذي أصدر الرئيس زروال في يونيو الماضي أمرا برفع التجميد عنه، أنه قانون رجعي «لأنه يستجيب لتيارات أكثر محافظة بالمجتمع الجزائري».

تجنيد منظّر الفرنكفونية الكبير مصطفى لشرف: وقد استنجدت هذه الصحف الفرنسية الصادرة بالجزائر بمصطفى لشرف الذي يعرفه إخواننا عرب المشرق، فقد اعتقل مع أحمد بن بلّا في حادث الطائرة المشهور سنة 1956، وغنى العشرات من الشعراء والمغنين العرب الأسرى الخمسة، ففي دمشق مثلا خرج سكانها نساءً ورجالا وأطفالا، في مظاهرة عارمة احتجاجا على القرصنة الفرنسية، ووقف شاعر العربية الكبير محمد مهدي الجواهري في هذا الحشد ليلقي قصيدته المشهورة (جزر المغرب)، أي الجزائر، فيقول:

جزُر المغـــرب يـــا أسطـورةً تُلبس الأهــوالَ لونــا مُمتعــا
الأذى تدفــع عنـــــه بالرّدى طــاب أسلوبــا لهــا مبتدعــا

وقــع المـوت عليهـا فــرأى (هؤلـة) أخشــنَ منــه موقعــا
الهــداةُ الغــرُّ من لــون الدّمـا فجــروا للشمــس منها مطلعـا
خمسة... إن بطونــا حملــتْ ثقْلهــم ما عُقمــت أن تَضعــا
حَمُق الغــدر! أيّثنــي ساعــدًا عــن كفــاح فقدُ كف إصْبعَـا؟
خمسة... غصّت فرنسا بهــم نعــم عُقْبى خِســّةٍ مرتجعــا
جهل الصّنعــة نِكــس أبلـــه سرق الباب وعــاف المصنعـا

العرب الذين قالوا في المجاهدين الجزائريين هذا الكلام، يقول عنهم مصطفى لشرف أنهم ليسوا العمق الاستراتيجي للجزائر وللمغرب العربي، وإنما هم نقطة الضعف لها، «لأنهم صدّروا لها إسلاما غير إسلامها وعربية غير عربيتها، على حساب بربريتها - العربية».

اختارت شهر أغسطس (آب) 1996، أكبر جريدة فرنسية تصدر بالجزائر، إسمها (El Watan)، حصلت على جوائز دولية، لا لشيء إلا لأنها تصدر بالفرنسية في الجزائر، اختارت هذا الشهر لكي تنشر ست مقالات ضد انتماء الجزائر العربي، لمصطفى لشرف، تحت عنوان: (التحليق فوق مرحلة مهددة). نشرت على ست حلقات من 10 إلى 15 من الشهر المذكور، مساهمة منه ومن الجريدة في الحملة التي عرفها هذا الشهر، حول المسألة البربرية وحول إلغاء المؤتمر البربري. ولنستعرض هذيان هذا الكتاب:

- «بالبترودولارات الواردة يحدث اللّاستقرار بالجزائر، بواسطة عملاء مدسوسين باسم الثوابت الوطنية، تساعدهم قنوات تلفزة عربية، وصحف عربية تصدر بأوروبا». وينسى الكاتب، أن ملايين البترودولارات قدمتها الصناديق العربية للجزائر، بنت مشاريع تنموية شغلت آلاف من العمال الجزائريين، وساهمت في استقرار الأوضاع بالبلاد. إنه يعرّض بقناة (MBC)، ويعتبرها خطرا على الجزائريين، لا لشيء إلا لأنها تبث بالعربية، بينما نجد هذه القناة وغيرها من

القنوات العربية هي المتنفس الوحيد للجزائريين أمام غزو فضائي فرنسي، متمثل في أكثر من عشر قنوات موجهة للمغرب العربي حاملة معها الانحلال والفساد الخلقي. إنه يعرّض بجرائد (الشرق الأوسط) و(القدس) وغيرها التي لا تدخل السوق الجزائرية.

- إن أسّ مصائب الجزائر المدرسة المستوردة من التي أوجدت أسسها منذ زمن بعيد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، والتي وضعت بعد الاستقلال تحت وصاية البعث وعميلته الجبهة الإسلامية للإنقاذ، مشوهة بذلك هذا الامتداد الجغرافي البربري العربي. إن الذي أفسد المدرسة الجزائرية إيديولوجيات مشعوذة عقيمة، آتية من هناك (أي من المشرق)، والمسماة بالقومية العربية زاعمة قدرتها على الحلول محل الجزائرية ببعديها البربري والعربي، ففرضت تعريبا على حساب هوية الجزائر ولغاتها. ويتم هذا باسم العروبية الإيديولوجية، إنها كارثة المدرسة المعربة التي جردت الجزائر من ثقافتها...»، يريد هذا الكاتب أن تُبقي الجزائر المستقلة المدرسة الاستعمارية بلغتها الفرنسية مع تدريس الدارجة الجزائرية، والبربرية، يريد أن يتعلّم الجزائريون العربية لا بذاتها وإنما بواسطة الفرنسية كما تعلمها هو، أي كما يقول الجزائريون بطريقة (بيريز)، وهو مستشرق فرنسي علم لشرف اللغة العربية في مرحلة الاستعمار، ثم علمها هو فيما بعد بالمدارس الفرنسية بواسطة الفرنسية، وهو يحقد على جمعية العلماء المسلمين لأنها بنت عشرات المدارس، منتشرة في سائر المدن والقرى، بتبرعات الشعب، تعلم العربية بذاتها لأبناء الجزائر الذين كانوا فرنسيين محرومين من تعلم لغتهم، بحيث كان عدد تلاميذ هذه المدارس غداة الاستقلال أربعين ألف تلميذ وتلميذة، هم الذين كونوا أساس تعريب المدرسة الجزائرية. إن المؤرخين يعتبرون أن جمعية العلماء كانت بمثابة الضمير والروح للحركة الوطنية بالجزائر.

- «الجزائر لها خلفية طويلة من مقاومة الاستعمار تتناقض مع فكر البعث القاصر، ومع صادرات جامع الأزهر(...) إن الخطر آت من الثالوث المتمثل في الكيان الوهابي والأصولية والبعث(...) لابد من انكفاء المغرب التقليدي المتمثل في تونس والجزائر والمغرب». والكاتب يخرج ليبيا من المغرب لأنها خارج الفرنكفونية. لنلاحظ أن لشرف ينظر إلى أي نظام بالمشرق العربي سواء أكان لائكيا كنظامي البعث، أو محافظا إسلاميا كالنظام الوهابي، على أنه خطر على جزائرية الجزائريين ومغربية المغاربة، لأن عرب المشرق ساهموا بقوة في تعريب المدرسة الجزائرية.

سبق لمصطفى لشرف أن كتب سنة 1992 سلسلة من المقالات تحت عنوان: (الجزائر مريضة بدينها)، وقد رددت عليه بمقالين في جريدة "الشعب"، نشرا في كتابي المذكور أعلاه، في فصل تحت عنوان: (حوار مع الأستاذ مصطفى الأشرف حول الإسلام والعروبة والعربية (التعريب في الجزائر صفحة 229، الجزائر 1993). لقد وصف لشرف في هذه المقالات العروبة والقومية العربية بالهلالية التخريبية، ورددت عليه بمايلي: «ومن غير شك فإن حقد لشرف على بني هلال يعود إلى أنهم عربوا المغرب، وهو يمقت شيئا اسمه التعريب، وحتى الأدب الشعبي باللهجات البربرية تغنى بملحمة بني هلال، توجد بالقبائلية ملحمة الجازية، مفعمة بمشاعر الإعجاب والأخوة، ولا تتضمن أي حقد أو ضغينة على الهلاليين، أو على العرب، هذا الحقد الذي دسه الفرنسيون بعد سنة 1830 بين أقلية مفرنسة بالجزائر. وسيتملكك الذهول أيها القارئ الكريم عندما تعلم أن مصطفى لشرف ينتمي إلى بني هلال، وأن عثمان سعدي ينتمي إلى قبيلة النمامشة البربرية الشاوية، هذا يدافع عن العروبة والعربية والتعريب، وبني هلال فينصفهم، وذاك يهاجمهم ويشوّه سمعتهم، إنها لمفارقات غريبة في هذه الجزائر العجيبة!!!».

موقف الصحف الصادرة بالعربية:

كانت الجريدة الوحيدة اليومية المستقلة التي وقفت موقفا وطنيا من قضية مؤتمر الأمازيغية هي (العالم السياسي) ذات النفس العربي، (وقد صدر قرار بوقف سحبها من مطبعة القطاع العام، يوم 22/ 8/ 1996 بحجة عدم دفع ديونها للمطبعة، ويقول مدير الجريدة بأن العديد من الصحف لها ديون أكثر من ديونها ولم يتوقف سحبها). ومن المعلوم أن حوالي خمس عشرة صحيفة يومية وأسبوعية عربية أوقفت بسبب مالي أو سياسي منذ 1992، مقابل صحيفتين فرنسيتين. كما قام بنفس الدور أسبوعيتا (الشروق العربي) و(المجاهد الأسبوعي) المستقلتين، ويومية (السلام) الحكومية.

ففي جريدة "العالم السياسي"، عدد 5/ 8/ 1996، نشر رد منها على رسالة وردتها من أحد قادة حزب حسين آيت أحمد (جبهة القوى الاشتراكية)، حول المسألة الأمازيغية، ورد فيه مايلي: «وبخصوص الربط بين العربية والإسلام، فلسنا نحن الذين ربطنا بينهما، ولكن خالق الكون الله سبحانه وتعالى هو الذي ربط بين العربية والإسلام، حين اختارت مشيئته -التي لا يعترض مؤمن عليها- أن ينزل القرآن الكريم على نبيه العربي ﷺ بلسان عربي مبين، ولو أن الله أنزل القرآن بلغة (الزولو) لكنا كمسلمين نعترف وندافع عن لغة الزولو. تقولون يا سيد دمري أن العربية في دارها، هذا صحيح، وأضيف أن الأمازيغية كانت ولازالت في دارها. لكن من الذي أشعل الفتنة بعد 14 قرنا من التعايش والتآلف بين أبناء الدار الواحدة؟!. إن السيد دمري يتجاهل أنه في أوج الأزمة التي تعيشها بلادنا، ارتفعت مطالب تعديل الدستور، واعتماد الأمازيغية كلغة وطنية ورسمية، عن طريق الضغط بالإضرابات المدرسية. وهل تساءل السيد دمري عن نوعية الرائحة التي تفوح مما كتبته جريدة جزائرية ناطقة بالفرنسية، وتدعي الدفاع عن الأمازيغية مباشرة، بعد تأسيس المحافظة السامية للأمازيغية، قائلة: إن ذلك يعني نهاية الاتجاه العربية - الإسلامي».

وتنشر أسبوعية (الشروق العربي) رسالة لقارئ لها من عين التوتة بولاية باتنة، في عددها 13/ 8/ 1996، عنوانها (ولكنه الأوراس يا حزب فرنسا!!!)، ورد فيها: «وليكن في علم أتباع فرنسا في الجزائر، أن ألاعيبهم مكشوفة، وأوراقهم خاسرة، إنهم حاقدون على عروبة الجزائر، فالفتنة التي تزرعها الآن فرنسا بالجزائر مآلها الفشل».

رسالة سكان باتنة إلى رئيس الجمهورية: وخير ما نختم به هذا المقال، فقرات من الرسالة القيمة التي وجهها سكان مدينة باتنة إلى الرئيس اليمين زروال: «لقد ارتأينا يا سيادة الرئيس أن نلفت انتباهكم إلى مؤامرة الأمازيغية، التي تحركها أوساط مشبوهة، معروفة بمخططاتها الرامية إلى زرع بذور التفرقة وعدم الاستقرار. لقد عرف الشعب الجزائري كيف يحمي لغته العربية مدة 14 قرنا. كيف تفسرون يا سيادة الرئيس هذا الميلاد الخيالي المشبوه للأمازيغية في منطقة محدودة من وطننا الفسيح، الغني بمختلف اللهجات والتقاليد، وتدعي هذه الفئة الدفاع عن لهجة مزيج لا يستند إلى أي أساس لغوي أو علمي. إننا نندد بهذه الممارسات لهؤلاء الانعزاليين التي تعمل على ضرب اللغة العربية، بإيجاد بديل لها، إن الذي يؤسف له يا سيادة الرئيس، هو أن يكون الأوراس الأشم الذي احتضن الثورة التحريرية المباركة، التي كانت عامل توحيد للشعب الجزائري بأكمله، فانصهرت فيها سائر الأعراق، وجمعتها كلمة الله أكبر العربية الإسلامية، هذا الأوراس يراد له الآن أن يكون منطلق هذه الفتنة التفريقية. إن أهل الأوراس أبعد ما يكونون عن هذه الفكرة العنصرية، التي نشأت هناك بعيدا عنهم، وهم من ألد أعدائها، فأريد جرهم لها. إنه على امتداد الشمال الإفريقي، ومن النيل إلى المحيط، ترتفع الأصوات في منطقة واحدة مطالبة بالأمازيغية، لغايات مشبوهة، وبتواطئ من (الأكاديمية البربرية بباريز) المعروفة بعدائها الشديد للغة العربية، وبمناوراتها ضد استقلالنا. يا سيادة الرئيس، أليس من

واجبكم أن تخدموا بأفكاركم المستنيرة مستقبل الأجيال القادمة، مثلما خدمكم أسلافكم، وإلا كيف تسمحون بهذه الردة التي تعتبر مساسا خطيرا بوحدة هذه الأمة ومقوماتها. وفي الختام ندعو الله أن يوفقكم ويسدد خطاكم لمصلحة العباد والبلاد. مواطنون من ولاية باتنة».

الخلاصة:

أولا: نستخلص من هذا العرض أن دعاة النزعة البربرية الذين يمثلون بعض القبائل هزموا على أيدي أبناء أوراس النمامشة، الشاوية البربر الأصلاء، الذين لم تشوههم دسائس الاستعمار، والذين استمروا كما كانوا قبل 1830، مؤمنين بعروبتهم وإسلامهم. كما نستخلص من ذلك أيضا أن الرئيس المجاهد اليمين زروال قد بدأ يدرك هوية هذه النزعة المفرقة الشعوبية. ونحن نأمل أن يضع لها حدا نهائيا حفاظا على وحدة البلاد، وخاصة وهو ينتمي إلى الشاوية المؤمنين حتى العظم بعروبة وعربية الجزائر. ألم يتسببوا في إلغاء هذا المؤتمر المشبوه؟

ثانيا: إن الأصولية المهددة للجزائر في (الأصولية البربرية - الفرنكوفيلية Integrisme Berberiste Francophil)، التي ولدت بتبعيتها للاستعمار الفرنسي الجديد، رد فعل تمثل في التطرف الديني، وهذا هو الذي يفسّر لماذا خلقت فكرة الإخوان المسلمين في مصر، ووجدت لها أرضا خصبة بالجزائر، لسبب بسيط وهو أن دعاة الدولة الدينية والدولة المدنية في مصر يتكلمون لغة واحدة، وهي العربية، ويستشهدون بتراث العربية والإسلام لتعزيز موقف كل من الطرفين. بينما نجد دعاة الدولة المدنية بالجزائر يتكلمون الفرنسية ويحاربون العربية حتى في صورتها اللائكية كعربية البعث مثلا. ثم إن عدم السماح لحزب واحد قومي عربي بممارسة العمل السياسي بالجزائر، بينما نجد الشيوعية والفرنكفونية واللائكية لها عشرات الأحزاب، هو الذي ساهم

في احتكار الإسلاميين لأصوات الناخبين الذين يرفضون إعطاء أصواتهم للاوطنيين، كما تبين في الانتخابات الرئاسية الأخيرة حيث حصل دعاة الدولة المدنية الفرنكفيليون اللائكيون على تسعة في المائة من الأصوات فقط. أما في المشرق العربي فيتقاسم الإسلاميون والتيار القومي أصوات الناخبين. والتيار القومي محرم هنا في الجزائر. ولهذا نجد كاتبا كبيرا كمصطفى لشرف يقول بأن البعث هو الذي ولد الجبهة الإسلامية للإنقاذ، ولو أن كاتبا بالمشرق قال إن فكرة الإخوان المسلمين ولدها حزب البعث لاتهم بالجنون.

ثالثا: لأول مرة في التاريخ تريد أقلية أن تفرض لهجتها على الأغلبية. فالأكراد لم يطلبوا أن تفرض لغتهم على أطفال بغداد والبصرة والموصل العرب، وإنما طلبوا بأن يسمح لهم بتعلم لغتهم في منطقتهم، وسمح لهم بذلك. والبروتون في فرنسا لم يطلبوا من رئيس الجمهورية الفرنسي إصدار مرسوم يأمر بضرورة أن يتعلم أطفال باريس وليون ومارساي الفرنكوفونيين البروتانية. لكن في الجزائر كل الظواهر الشاذة جائزة، فالأقلية تريد أن تفرض لهجة ولايتين على سكان الولايات الست والأربعين الأخرى. ألا يعتبر هذا ظلما وقهرا وعدوانا من طرف هذه الأقلية (الفرنكوفيلية - البربريست) المتعجرفة، يسلط على الشعب الجزائري بعربه وشاوييه وميزابييه وطوارقه وزناتييه وشرشالييه وونشريسييه؟!!!.

لهجة تقاضي لغة !!!(*)

بقلم الدكتور عثمان سعدي
رئيس الجمعية الجزائرية للدفاع عن اللغة العربية

نعم أيها الجزائري، هذا هو واقع بلدنا المرير. هيئة لهجة أمازيغية تقاضي هيئة للغة العربية. يرفع رئيس المحافظة السامية للأمازيغية دعوى قضائية ضد رئيس الجمعية الجزائرية للدفاع عن اللغة العربية، على مقال نشره بأسبوعية "الشروق العربي"، (هاجم فيه المؤامرة الكبرى التي تعمل على إيجاد ضرّة للغة العربية، بهدف شق الشعب الجزائري إلى شعبين: شعب عربي يتكلم العربية، وشعب بربري يتكلم البربرية، حتى تبقى اللغة الفرنسية لغة مشتركة بين الشعبين، وتؤبد بذلك هيمنة اللغة الفرنسية على الحياة الجزائرية). كما رفعت دعوى ضد أسبوعية "الشروق العربي" لنشرها المقال، وعلى جريدة "السلام" لنشرها لائحة الرفض للمفهوم الاستعماري للمسألة الأمازيغية (البربرية).

ويبدو أن تيار (البربريست – الفرنكوفيل) المتنفذ يريد تكميم فم الجمعية الجزائرية للدفاع عن اللغة العربية، بإرهاب رئيسها وإرهاب الصحف التي تنشر له، حتى تستمر جريمة القضاء على اللغة العربية، سواء بطريق مباشر وذلك باستمرار خطيئة سريان مفعول مرسوم تجميد قانون تعميم استعمال اللغة العربية، التي تصفى في ظله منذ 1992 جسديا اللغة العربية بالإدارة، ويعاد وضع اللغة الفرنسية إلى ما كانت عليه قبل 1962 وحتى يبقى المجلس الأعلى للغة العربية مجمدا، مجلس المرحوم مولود قاسم نايت بلقاسم، الذي غادر الحياة وفي نفسه غصة من هذا التجميد؛ وحتى تستمر عملية خلق ضرّة من العدم للغة العربية، في صمت. ولا أدري لماذا تذكرت ما كتبه الشيخ البشير الإبراهيمي سنة 1950 بجريدة "البصائر"، وكأنه يتحدث عما نعيشه الآن، فقال:

(*) نشر بأسبوعية "الشروق العربي" عدد 6/ 8/ 1996.

«ينكر الاستعمار عروبة الشمال الإفريقي بالقول، ويَعمل لمحوها بالفعل، وهو في جميع أعماله يرمي إلى توهين العربية بالبربرية، وقتل الموجود بالمعدوم، ليتمّ له ما يريد من محو واستئصال لهما معًا؛ وإنما يتعمد العربيةَ بالحرب لأنها عماد العروبة، وممسكة الدين أن يزول، ولأن لها كتابة، ومع الكتابة العلم؛ وأدَبا، ومع الأدب التاريخ، ومع كل ذلك البقاءُ والخلود».

اضطهاد الجمعية الجزائرية للدفاع عن اللغة العربية:

آن الأوان لكي يطلع فيه أنصار اللغة العربية المهمشون بالحياة الرسمية الجزائرية، على ما عانته جمعية اللغة العربية، منذ تأسيسها سنة 1990. وأفتح فمي الآن لذكر بعض أحداث هذه المعاناة.

- حصلت جمعيتنا المناضلة على مقر لها داخل قصر الشعب، متمثلا في (الشاليه رقم 9). ومن اشتراكات أعضاء الجمعية، وتبرعات محبيها أثّثنا هذا المقر. ورحنا نعمل. فدشنا فروعا للجمعية في سبع وعشرين ولاية، وأصدرنا مجلة "الكلمة" الناطقة باسم الجمعية. ومع بداية 1992 بدأت الاضطهادات تطاردنا:

- كسر باب المقر ثلاث مرات وسرقت موجوداته، علما بأنه يقع بقصر الشعب، التابع للدولة، والمحروس بعدد كبير من رجال الأمن العلنيين والسريين.

- في شهر مايو 1992، عقد مجلس الجمعية اجتماعا له في مقره، وخرج أعضاء المجلس ليجدوا سياراتهم السبعة مكسورة الزجاج (الباربريز) دون أن تمس موجوداتها. وهي رسالة واضحة من أعداء اللغة العربية المتنفذين، موجهة إلى أعضاء الجمعية. وتم ذلك أيضا في حرم قصر الشعب، وتحت الحراسة المشددة له. وفي حالات السرقة والكسر قدمنا شكاوي إلى القسم الثامن لشرطة مدينة الجزائر، ولم نتلق حتى الآن ردا على شكوانا.

- وفي شهر مايو 1994 حدث سطو على مقر الجمعية، فنهبت ممتلكاته، من أثاث وآلات طابعة، وغيرها، وأعطي إلى جمعية (التبادل بين شباب العالم). ورفعنا الشكاوي تلو الشكاوي.

- أرسلنا رسالة إلى رئيس الدولة اليمين زروال بتاريخ 29 جويلية (تموز) 1994.

- بتاريخ 2/ 10/ 1994 وجهنا رسالة ثانية إلى السادة:

- السيد رئيس الدولة.

- السيد رئيس الحكومة.

- وزراء: الداخلية، والثقافة، والشباب والرياضة، ووالي مدينة الجزائر.

- في شهر نوفمبر 1994 استقبلني السيد رئيس الحكومة مقداد سيفي، ورويت له قصة السطو على المقر. ومن الغريب أنه استقبلني في نفس الشهر الذي استقبل فيه السيد فرحات مهني رئيس الحركة الثقافية البربرية، فأصدر رئيس الحكومة بيانا صحفيا باستقباله له، بينما لم يصدر بيانا باستقباله لي كرئيس لجمعية اللغة العربية. ومن الغريب أن فرحات مهني أهان بعجرفة الأقلية المتحكمة في رقاب الأغلبية، السيد مقداد سيفي، عندما أصدر بيانا كذّب فيه رئيس الحكومة، فقال: «لقد قال مقداد سيفي أنه استقبلني بطلب مني، والحقيقة أنه استقبلني بطلب منه هو». وهكذا تضطهد جمعية اللغة العربية، وتدلل جمعيات اللهجات الأمازيغية، فتغدق عليها المقرات والأموال بلا حساب.

- ولا زالت جمعيتنا تنتظر حتى الآن ردودا على شكاواها. الشكوى لله القادر على حماية لغة قرآنه...

- أوقفت عنا المساعدة المتواضعة التي كنا نتلقاها من وزارة الثقافة، واستهلكت مجلة الجمعية كل حسابنا الجاري، فتوقفت.

- وفي شهر جوان 1996 رفعت المحافظة السامية للأمازيغية التابعة لرئاسة الجمهورية دعوى على رئيس الجمعية. ومن الغريب أن الجريدة الفرنسية الصادرة بالجزائر (Liberté) نشرت في عددها الصادر يوم 15/ 4/ 1996 خبرا عن هذه الدعوى، مما يشير إلى أن ذلك طبخ خارج إطار رئاسة الجمهورية.

رأي المستشرق الفرنسي جاك بيرك (Jacques Berque) في المسألة البربرية (*)

يتناول هذا الحوار مع شيخ المستشرقين جاك بيرك (86 عام) عدة قضايا تتعلق بالأوضاع في الجزائر(...) فهو يعتقد أنه من الخطإ الاعتراف باللغة البربرية، كلغة رسمية ثانية إلى جانب العربية، في المغرب العربي.

لكن قبل أن نقف طويلا أمام أفكار (جاك بيرك)، نود أن نلفت الانتباه إلى أن هذه الأفكار تكتسب أهمية خاصة، لأسباب ثلاثة:

السبب الأول أن بيرك ليس غريبا عن البيئة الجزائرية، فقد ولد فيها وبالتحديد في مدينة فرندة بالغرب الجزائري عام 1910، حيث أمضى طفولته، ثم انتقل إلى العاصمة الجزائرية مع أسرته حتى بلغ عمره عشرين عاما، وكان طوال هذه السنوات قريبا من عامة الناس.

السبب الثاني هو أن بيرك كان من أوائل المستشرقين الذين اهتموا بمسألة البربر في المغرب العربي، ويجيد اللغة البربرية، وأعدّ أطروحة دكتوراه حول قبيلة سكساوة، وهي قبيلة بربرية بالمغرب الأقصى، ذكرها ابن خلدون في تاريخه، وكانت تسيطر على جانب كبير من المغرب في القرون الوسطى.

والسبب الثالث هو أنه كان متعاطفا مع الحركات الوطنية التي تطالب بالاستقلال في بلدان المغرب العربي، وحاول بحكم عمله كمراقب مدني في الإدارة الفرنسية هناك أن يخفف من حدة المواجهة الدموية التي كانت تنشب بين وقت وآخر، بين الوطنيين المغاربة وإدارة الاحتلال، كما كان من أوائل الفرنسيين الذي استقبلتهم قيادة الثورة الجزائرية بعد الاستقلال.

(*) حديث أجراه مراسل صحيفة "الأهرام" المصرية د/ سعيد اللّاوندي"، مع المستشرق الفرنسي جاك بيرك بتاريخ 18/ 6/ 1995.

● وسألت الأستاذ جاك بيرك عن رأيه في ما يدور من حديث حول ما يسمى بالصحوة البربرية في وسط القبائل بالجزائر، فأجاب يقول:

♦ البربر هم قبائل متوسطية قديمة، يرجع تاريخها في المنطقة إلى القرن الثاني عشر قبل المسيح، وكنت قد اهتممت بهم مثل كثير من المستشرقين. لكني وجهت اهتمامي وأبحاثي وجهة علمية أكاديمية لا سياسية، لأن الدوائر الاستعمارية كانت تبذل جهودا مضنية لغرس الفتن بين العرب من ناحية، والبربر من ناحية أخرى، في إطار سياسة الشقاق، التي كانت تمارسها بفرض ضرب وحدة هذه البلاد، كما أنها كانت أول من وضع فكرة العروبة، في مواجهة فكرة البربرية، وترجيح إحداها على الأخرى حسبما تقضي بذلك مصلحته.

وفي أثناء حرب التحرير الجزائرية كانت المفاجأة التي أذهلت الاستعمار الفرنسي، أن البربر وقفوا إلى جانب إخوانهم العرب في صفوف المقاومة، مطالبين بالاستقلال.

● لكن ألا تعتبر عودة البربر للمطالبة بحقوق سياسية خاصة بهم، انتصارا للمخطط الاستعماري القديم.

♦ لا أنكر أن هذا المخطط قد نجح إلى حد ما، لكن لا تنسى أن هناك عوامل عديدة قد تلعب في هذا الاتجاه، منها إخفاق الموجة التحريرية المصبوغة بالعروبة.

وفيما يتعلق بالمطلب الخاص باللغة، لا أعتقد أنه مطلب مشروع لأنه سيؤدي في النهاية إلى انقسام الولاء. وكنت قد وجهت اللوم إلى صديقي عبد الكريم غلاب صاحب جريدة "العلم" بالمغرب الأقصى الذي تقدم بمشروع يقضي بتدريس اللغة الأمازيغية (البربرية) في المدارس المغربية بطريقة إلزامية، وقلت له: «لست على حق في ذلك. إذ كيف تجبر أطفال مدينة فاس العربية على تعلم اللغة الأمازيغية، وذكرت له أن الحلّ الأمثل الذي أراه، هو نفس الحل

الذي أراه بالنسبة لبعض اللهجات الفرنسية في منطقتي الباسك أو بروتاني، إذ يمكن أن تكون هذه اللغات اختيارية لا إجبارية على الطالب في فرنسا.

ثم استطرد جاك بيرك يقول:

هذه النعرة الذاتية والإقليمية التي ترتفع في أوساط البربر وبخاصة (القبائل) اليوم هي إحدى النتائج الملموسة لحالة التأزم الصعبة التي تعيشها الجزائر، إلى جانب نتائج أخرى أشد خطرا منها وهي حالة التردي الحضاري والثقافي التي باتت واضحة في كل الميادين، وإلا فما معنى مسلسل القتل الذي راح ضحيته عشرات من خيرة المثقفين الجزائريين.

بيان لجنة المساندة للمفهوم السليم للمسألة الأمازيغية وللهوية الوطنية ببعديها العربي الإسلامي (*)

نحن رجال الفكر والثقافة الوطنيين، حملتنا الغيرة على وطننا في مواجهة ما يحاك ضده من الاستعمار الفرنسي الجديد، بهدف تدمير وحدتنا الوطنية، والقضاء على مرجعية بيان أول نوفمبر، في حياتنا الثقافية والسياسية والاجتماعية. وحيث أن القاعدة الأساسية للحياة الوطنية تنطلق من الثقافة، وأن الاستعمار الفرنسي الجديد يعمل منذ بداية العقد الثامن، عن طريق عملائه بالجزائر، من حركيي وقومية الفكر، من أجل ضرب الأساس الثقافي لمجتمعنا، لكي يسهل عليه السيطرة على مقدّرات بلادنا فيعود إلى استعماره من جديد بأساليب الألفية الثالثة من زمننا؛ فإننا نقرر كمثقفين بعيدين عن أي انتماء حزبي:

● تأسيس لجنة مساندة للمفهوم الوطني السليم للمسألة الأمازيغية، الذي انطلق من لائحة الولاية التاريخية الأولى لثورة أول نوفمبر (أوراس النمامشة)، بتاريخ 31 مارس 1996، لدى انعقادها في باتنة، والتي تؤكد فيها ما اعتبر دائما في تاريخ الجزائر، من أن الأمازيغية عنصر من تاريخنا، ومن أن اللهجات الأمازيغية ما هي إلا روافد للغة العربية وللثقافة العربية؛ والتي ترفض فيها عقد ما يسمى (بمؤتمر الأمازيغية) في باتنة عاصمة الأوراس الأشم، الذي يهدف إلى إثارة الفتنة اللغوية ببلادنا.

وقد سارع أحمد بن بله، أول رئيس لجمهورية الجزائر، بشجاعته المعهودة، ووطنيته الصافية، إلى إصدار بيان تأييد للائحة المذكورة بتاريخ 28 أفريل 1996، كما سارعت الولايات التاريخية السادسة والخامسة والقاعدة الشرقية إلى تأييدها.

(*) أسبوعية "الشروق العربي" عدد 24/ 9/ 1996.

والشاوية الذين لم تشوههم دسائس الاستعمار (مثلما ورد في بيان أحمد بن بله المذكور)، هم الذين يرسمون الآن الصورة الوطنية لتناول المسألة الأمازيغية.

• نؤيد المفهوم السليم للمسألة الأمازيغية لدى (الشاوية)، أكبر تجمع أمازيغي بالجزائر، وأكثرهم أصالة من الناحية الأمازيغية، لأن التراث التاريخي الأمازيغي جرت أحداثه في الإطار الجغرافي للشاوية. والذي يتمثل في أن لهجات الأمازيغية لهجات للغة العربية القديمة المسماة خطأ بالسامية، مثلما تعتبر لهجات تلمسان ووهران وجيجل وقسنطينة وغيرها لهجات للغة العربية الحديثة التي طورها القرآن الكريم والإسلام.

• نرفض أن تمس الهوية الوطنية التي حدد معالمها بيان أول نوفمبر في عنصرين لا ثالث لهما (الإسلام والعروبة). ونرفض بقوة ثلاثية الهوية الوطنية التي تقحم الأمازيغية التي تمثل عنصرا من تاريخنا السابق لدخول الإسلام، مثل الفينيقية بسوريا، والأشورية بالعراق، والفرعونية بمصر. كلها بما فيها البربرية عبارة عن لهجات للعربية القديمة التي سميت بالسامية خطأ. وما تراث اللهجات الأمازيغية سوى تراث شعبي، كتراث الملحون في اللهجات العربية الحديثة التي طورها الإسلام.

إن هذه الثلاثية تعتبر بدعة تستهدف تدمير وحدتنا الوطنية، وتحويل البلاد إلى يوغوسلافيا أخرى تمزقها حرب أهلية على أساس عرقي مقيت. مثلما ورد في رد اتحاد الكتّاب الجزائريين على مذكرة الرئاسة.

• ندين ما قامت به عناصر مشبوهة منذ 1980، فيما سمي (بملتقى إيعكوران)، من تشويه لتاريخنا، وذلك بتشويه عنصر الأمازيغية وتحويله إلى بؤرة للتآمر تحت توجيهات (الأكاديمية البربرية) بفرنسا التي أسستها دوائر الاستخبارات الفرنسية سنة 1967، التي انبثق عنها المؤتمر الدولي للأمازيغية بفرنسا في سبتمبر 1995 الذي أسس المكتب العالمي للأمازيغية.

لقد انبثقت عن ملتقى إيعكوران الحركة الثقافية البربرية، التي يعترف أقطابها بأن الذي خلق الهوية البربرية هم الآباء البيض الذين تجاوزوا مهمتهم الدينية، إلى مهمة التبشير بالاستعمار الفرنسي القديم، قبل 1962، والجديد بعد استقلال بلادنا. وقد تولد عن هذه الحركة إضراب مدارس ولايتي تيزي وزو وبجاية، الذي أتى بالمحافظة السامية للأمازيغية، التي اعتمدت الحرف الفرنسي في تدريس اللهجات الأمازيغية، وبرهنت بذلك أنها تابعة عمليا للأكاديمية البربرية بفرنسا.

• ندين بقوة برنامج عمل المحافظة السامية للأمازيغية لسنتي 1996 و1997، الذي يلغي باسم رئاسة الجمهورية خمسة عشر قرنا من الإسلام في بلادنا.

• نرفض رفضا قاطعا فرض تعليم لهجة ناحية من البلاد على سائر الجزائريين، لأنه لم يحدث في أي بلد بالعالم أن فرضت أقلية لهجتها أو لغتها على الأغلبية.

• نلفت انتباه الرئيس اليمين زروال، ابن الأوراس الأشم، إلى الخطة الصهيونية الخبيثة التي تستهدف القضاء على ما بقي من رابط بين أبناء الأمة العربية، والمتمثل في اللغة العربية، وذلك بخلق ضرات لها في الأقطار العربية، فقد قامت تحت جمعيات عالمية مشبوهة من أجل إحياء اللغة النوبية، واللغة القبطية، في السنوات الماضية. وانتبهت في هذه السنة السلطات المصرية إلى هذا الخطر، فقررت وقفه نهائيا، كما قامت بحل الجمعيات التي تعمل في هذا الميدان.

• نطالب السيد رئيس الجمهورية أن يستجيب للجماهير التي منحته أصواتها، فيقوم بـ:

أ) إلغاء المرسوم التشريعي (92 - 02) الصادر في 4 يوليو 1992، والمتعلق بتجميد قانون تعميم استعمال اللغة العربية.

ب) تطبيق قانون استعمال اللغة العربية رقم (91 - 05) الصادر في 16 يناير 1991، ورفع التجميد عن المجلس الأعلى للغة العربية ليقوم بمهمته في تطبيق هذا القانون.

ج) تأسيس مجمع اللغة العربية الجزائري الصادر في حقه قانون رقم (86 - 10) المؤرخ في 19/ 6/ 1986.

• نهيب برجال الثقافة والفكر الوطنيين أن يؤلفوا لجان مساندة في كل ولاية، ويحثوا المواطنين على الانضمام إليها، بعيدا عن كل انتماء حزبي، وذلك من أجل إنقاذ هويتنا الوطنية من المؤامرة الكبرى التي تحاك لتفجيرها وتدمير وحدتنا الوطنية، وجر بلادنا إلى حرب أهلية عرقية.

المثقفون الجزائريون بولاية الجزائر:

د. العربي الزبيري (رئيس منتدى الفكر العربي). محيوت محمد (عضو الأمانة الوطنية للمجاهدين). زروال محمد (الأمين العام المساعد لجمعية قدماء الضباط). التارزي رماضنة (إطار سابق بالمجلس الدستوري). عثمان سعدي (رئيس الجمعية الجزائرية للدفاع عن اللغة العربية). علي سراوي (صحفي). عبد العالي رزاقي (أستاذ بمعهد الإعلام). سعد بوعقبة (صحفي). أحمد حمدي (أستاذ بمعهد الإعلام). محمد عليش (أستاذ جامعي). كمال طاهري (أستاذ ثانوي). بوعزة بوضرسة (أستاذ جامعي). جمال قنان (أستاذ جامعي). عبد الحميد خمخوم (مدير مؤسسة تعليمية). زغيدي محمد الحسن (رئيس جمعية التراث الصحراوي). سلاطنية الأخضر (أستاذ ثانوي). د. فضيلة بوعمران (أستاذة بكلية الطب). عبد القادر فضيل. د. نصر الدين سعيدوني (أستاذ جامعي). الصادق بخوش (صحفي). باديس قدادرة (أستاذ). قويدر بوزيان (مفتش تربية). د. عبد العزيز حضري (مدير معهد تاريخ، جامعة وهران). عبد المجيد غالي (عضو

اتحاد الفنون الثقافية). عمر البرناوي (كاتب). العلمي محمد (معهد الإعلام). بومالة عبد القادر (أستاذ وفنان). د. عمار بوحوش (أستاذ جامعي). د. مولود عبد الحليم (أستاذ جامعي). جمال رمضان (أستاذ جامعي). سيد علي مسعود (أستاذ ثانوي). الأزهر بديدة (أستاذ جامعي). محمد تلمساني (أستاذ جامعي). مسعود كواتي (أستاذ جامعي). صالح مسعود (أستاذ جامعي). حرزالله بوزيد (أستاذ جامعي). عبد العزيز بوشفيرات (كاتب). عثمان بدري (أستاذ جامعي). عبد الله عثمانية (محامي). مصطفى نويصر (أستاذ جامعي). (ولازالت ترسل إلينا التوقيعات).

الجزائر في 5 سبتمبر 1996

كيف يفسر البربريون
ثلاثية الهوية الوطنية ؟!!(*)

بقلم الدكتور عثمان سعدي

رئيس الجمعية الجزائرية للدفاع عن اللغة العربية

لعل أخطر ما كتب عن إيديولوجية النزعة البربرية، الحديث الذي أدلى به السيد عز الدين الزعلاني، عضو المحافظة السامية للأمازيغية التابعة لرئاسة الجمهورية، لجريدة (Le Matin) عددي 2 و3 أكتوبر 1996. لقد حدد ما يبيته الاستعمار الجديد من تدمير لوحدتنا الوطنية، وذلك باعتبار الأمازيغية، التي ليس لها وجود، هي هوية الشعب الجزائري؛ وأن العربية، اللغة الدينية، مثلها مثل الإسلام والفرنسية، اكتسبت وفرضت على الأمة الجزائرية. ومعنى هذا أن كل مكتسب أو مفروض يمكن الاستغناء عنه، أو استبداله. أما الأمازيغية فهي وجود، والوجود غير قابل للاستغناء عنه، أو استبداله. ويرى أنه لابد من اعتماد وحدانية الهوية المرتكزة على الأمازيغية فقط. وإلى القراء الكرام ما ورد في هذا الحديث الإيديولوجي:

«● إن أرضية الوفاق تعالج في الحقيقة العربية كلغة دينية مقدسة، كشريك ثقافي لشعبنا، وكمحصل حضاري لأمتنا. إن هذا معناه تقدم رائع، لأنه حتى الآن، كانت العروبة مدركة من زاوية الإتنية. ونحن نأمل أن تسهر الحكومة على ترقيتها كلغة دينية ورسمية، وأن تحميها من استغلالها سياسيا بواسطة مشاريع الاختراق الإيديولوجي، والسيطرة الشرق أوسطية، بهدف المس بسيادتنا الوطنية.

(*) نشر بأسبوعية "الشروق العربي" عدد 5/ 11/ 1996.

• تعتبر أرضية الوفاق الإسلام واللغة العربية كمكاسب، كشركاء لشعبنا، تصرفان في فعل: تحصل Avoir، بينما نراها تصرف الأمازيغية في فعل وجد Etre، لأننا كلنا نحن الجزائريين منحدرون من الأمازيغ أسلافنا. فتحديد هوية الجزائر بالهوية الأمازيغية في الأرضية صحيح، إنه انتصار على أنفسنا.

• إذن فإن الأمازيغية ليست شريكا، إنها لم تقبل من شعبنا كما قبلت العربية، ولم تستقبل منه كما استقبل الإسلام، ولم تحتمل منه كما احتملت الفرنسية في العهد الاستعماري. إن الأمازيغية هي وجودنا.

• إن خطأ الأرضية لا يكمن في العمق، لكن يكمن في تناول مفهوم خاطئ يتمثل في الخلط بين الوجود Etre، والحصول Avoir، يكمن في الخلط بين الهوية الوطنية الواحدة والثابتة (أي الأمازيغية) العمود الفقري القاعدي، وبين عناصر الشخصية في مظاهرها الثقافية والحضارية.

• إن الأمازيغية ليست عنصرا وليست بعدا من بين عناصر أخرى. ينبغي وضع حد لهذه الهوية المتعددة ذات الهندسة المتنوعة، وضع حد لهذه الهوية ذات الطبيعة المطاطية، التي تعتبر شبحا نظريا شعبويا أبعد ما يكون عن الوفاقية. إن هويتنا أمازيغية فقط.

• إن الهوية الأمازيغية هي وجودنا، ذاكرتنا، امتدادنا التاريخي، استمراريتنا عبر العصور. إنها الخيط الذي يربط أطفالنا بماضيهم البعيد. إنه إذا كرس نص القانون الجذري (الدستور) الأمازيغية، وتعامل مع الإسلام كدين، واعترف بالطابع الوطني للغة الأمازيغية، فإن النقاش سيكون قد انتهى، لكن العمل الحقيقي سيبدأ.

• إن اللغة الأمازيغية لغة عالمية، فطابعها الهويي المربوط بالهوية الأمازيغية للجزائر، هو الذي يحدد معالمها. إنها ليست تابعة للمناطق الناطقة بالأمازيغية، إنها لغة كل الجزائريين الذين كلهم أمازيغ. لابد من تأسيس أكاديمية أمازيغية توكل لها مهمة التوحيد العلمي للهجات الأمازيغية.

• إن لرئيس الدولة فرصة فريدة في إعطاء وضع دستوري للغة مملكة ماسينيسا، جد دولتنا الوطنية. إن المطلوب هو تثبيت الهوية الأمازيغية ووضع دستوري للغة الأمازيغية. إن مسألة الهوية هي عقدة الأزمة، فالحركة الأمازيغية تطرح على الأمة مسألة التجذر في تاريخها.

• إن الجزائر عانت من عبودية طويلة عبر قرون، ولدت لديها فقدانا ضخما للذاكرة الجماعية نجم عنه مسخ للشخصية». انتهى نص الحديث.

الخلاصة:

أولا: لقد تعمدت أن أسهب في سرد هذا الحديث للقراء الكرام، لكي يكونوا صورة عما يفكر فيه البربريون. إنهم يبنون نظريتهم على العرقية، فالجزائريون كلهم، بما فيهم تسعون في المائة الناطقون بالعربية، أمازيغ. أي أن المقياس الذي يحدد على ضوئه الانتماء للأمازيغية هو الدم الأمازيغي الذي يجري في العروق، وليس في اللغة التي تردد على الألسنة. أما عرب الجزائر فليس من حقهم أن يقولوا نحن عرب، لأن ذلك يعتبر إتنية. بينما نجد فكرة العروبة مبنية على أساس ثقافي، اعتمادا على تحديدها من طرف سيد المرسلين عندما قال في حديث نبوي شريف: «ليست العربية فيكم بأب ولا بأم وإنما هي في اللسان، فمن تكلم العربية فهو عربي». فحتى الفرنسيون يبنون نظريتهم الانتمائية الوطنية على اللغة الفرنسية، التي عممت بفرنسا بواسطة قانون تعميم استعمال اللغة الفرنسية، سنة 1794. ولم يقل فرنسي واحد: «إن الفرنسيين سلت لأن اللغة السلتية هي التي كانت سائدة في عهد شارلوماني».

ثانيا: يزعم البربريون أن لغة الجدة دولة ماسينيسا كانت الأمازيغية وهو كذب. فلغة الدولة النوميدية كانت البونيقية القرطاجية، بشهادة إجماع المؤرخين عربا وأوروبيين، وبشهادة الكتابات الأثرية المنقوشة. والبونيقية

-اللغة العربية القديمة- هي التي كانت سائدة بالمغرب العربي لمدة تسعة عشر قرنا قبل ظهور الإسلام، وهي التي سهلت عملية انتشار اللغة العربية، كحلقة ربط بشمال إفريقيا بين العربية القديمة، والعربية الحديثة التي طوّرها الإسلام.

ثالثا: يرى البربريون أن العربية لغة دينية فقط، وأن الأمازيغية لغة عالمية. أي والله!!! وأنا من الذين يقال عنهم أمازيغ، وأتقن الشاوية، وهي أصفى لهجة أمازيغية، ولا أعلم أن الأمازيغية معتمدة في هيئة الأمم المتحدة!!!

رابعا: يستعمل البربريون أسلوب: خذ وطالب. نجحوا في إقحام الأمازيغية في الهوية التي عرفت منذ خمسة عشر قرنا بأنها ثنائية ترتكز على العروبة وعلى الإسلام. ويطالبون الآن بأن تحذف من تركيبة الهوية العروبة والإسلام لأنهما عنصران مكملان ليسا أساسيين كالأمازيغية، فهما مجرد شريكين للشعب الجزائري، والشراكة قابلة للفسخ أو للاستبدال. ويبدو أننا نحن الوطنيين نتفق مع فلاسفة النزعة الأمازيغية بأن «ثلاثية الهوية هندسة متنوعة مطاطية وشبح نظري»، ونحن نطالب بأن تبقى كما كانت دائما ثنائية.

خامسا: يعتبر البربريون بأن الجزائر عانت من عبودية عربية لخمسة عشر قرنا، مسخت شخصيتها، وقضت على ذاكرتها الجماعية، لأن الذاكرة عندهم تتوقف عند دخول الإسلام، فالمطلوب شطب الخمسة عشر قرنا الأخيرة من الإسلام والعروبة، ووضع حد لهذا المسخ والعبودية عن طريق العودة إلى الأمازيغية، ووقف التبعية اللغوية (الشرق أوسطية) التي تتعارض مع السيادة الوطنية. ويرون أن بقاء هيمنة اللغة الفرنسية على الحياة الجزائرية، واستمرار تجميد قانون اللغة العربية، تقوية للسيادة الوطنية. ورفع هذا التجميد عدوان على الجزائر. أي والله... هذا هو الذي يسود الصحافة الفرنسية، صحافة البربريست الفرنكوفيل، الصادرة في الجزائر، منذ أن بدأ المجلس الانتقالي يستعرض مشروع برفع التجميد عن قانون العربية.

سادسا: سعترف السيد الزعلاني والبربريون بأنه لا وجود للغة أمازيغية (بربرية)، وبأن الذي يوجد لهجات أمازيغية، ويطلب من الدولة أن تؤسس أكاديمية توكل إليها مهمة خلق لغة أمازيغية، وذلك «بتوحيد لهجاتها». أي والله... إن البربريست يطلبون من الدولة الجزائرية أن تقوم بخلق ضرة للعربية، تدخل في صراع معها، وذلك من أجل هدف واحد وهو الإبقاء على اللغة الفرنسية مهيمنة حكما بين الضرتين.

كيف طبق قانون تعميم اللغة الفرنسية في فرنسا ؟(*)

بثّت قناة التلفزة الفرنسية الخامسة منذ يوم الجمعة 11/ 10/ 1996، سلسلة من عشر حلقات عن تاريخ اللغة الفرنسية، وقد سجلت الحلقة الأولى لأهميتها، لأنها تتعلق بأول قانون يفرض اللغة الفرنسية على كل البلاد الفرنسية، وتمنيت لو أن التلفزة الجزائرية تقوم ببثها للجمهور الجزائري كما هي، أي باللغة الفرنسية، مع تقديم ترجمة لها بالعربية، لأن بثها يعتبر فضحا لعملاء الاستعمار الفرنسي الجديد في بلادنا، الذين تجمعوا في صحف فرنسية صادرة في الجزائر. والحلقات المذكورة مستمدة من كتاب صدر حديثا بفرنسا، عنوانه: (اللغة الفرنسية: تاريخ نضال. للكاتب كلود حجيج Le français: histoire d'un combat, par Claude HAGEGE) الذي قدّم هو الحصة مع الآنسة إيف لينغلارت، بمساهمة وزارة التربية الوطنية الفرنسية، ووزارة التعليم العالي، ووزارة الخارجية.

وقد رأيت أن أنشر خلاصة لهذه الحصة للقراء الوطنيين، أي لقراء العربية، عاملا بنصيحة الصديق العزيز السفير عبد العزيز بن حسين، وهو من أروع السفراء الذين خدموا الجزائر بثوابتها الوطنية، وذلك بنشر هذا هذا المقال باللغتين العربية والفرنسية، حتى يطلع عليه كل قارئ بالفرنسية ببلادنا، غير مرتبط بعمالة للاستعمار الفرنسي الجديد. وإلى القراء الكرام هذه الخلاصة التي ستتخللها فقرات باللغة الفرنسية.

(*) نشر بالمجاهد الأسبوعي في 19/ 11/ 1996 والعالم السياسي عدد 11، 1996.

قانون الثورة الفرنسية اللغوي (1794)

نص ما ورد في الحصة المتلفزة:

«إن تاريخ اللغة الفرنسية ممزوج بتاريخ الأمة الفرنسية، وباستعمال الفرنسية في مواجهة اللغات الجهوية الأربع: (السالت، والبروتون، والباسك، والألزاسية) التي كانت سائدة في نواحيها قبل 1794، ولم تبدأ الفرنسية في التمركز والتعميم إلا بعد تأسيس المدارس الابتدائية سنة 1790، التي عملت على مركزة الفرنسية وإلغاء الفيدرالية بلغاتها الجهوية، وتم بذلك لحم الأمة الفرنسية بواسطة اللغة في مواجهة اللغات الجهوية (Souder la nation par la langue face aux langues regionales)، وقد أنجزت هذا الهدف الثورة الفرنسية.

• في 27/ 1/ 1794 قدم النائب بارير (Barer Devieuzac) تقرير البرلمان الثورة، هاجم فيه اللغات الجهوية فقال: إن اللغة السلتية لغة الفيدرالية، والبروتانية لغة الحقد، والباسكية اللغة المضادة للثورة، والألزاسية لغة كره الجمهورية. وطالب بإلغائها وتعميم الفرنسية.

• في 28/ 5/ 1794 قدم لبرلمان الثورة الأب "هونري غريغوار L'Abehenri Gregoire" تقرير قال فيه: «لابد من إذابة سائر المواطنين في الكتلة الوطنية، وهذا لا يكون إلا بالهوية اللغوية، لأن لغتنا الفرنسية هي قلبنا (Notre langue est notre coeur).

• 20/ 7/ 1794 قدم النائب ميرلين دو وويه (Merlin De Douai) في عهد روبيسبيرا تقريرا إلى برلمان الثورة (La Convention)، قال فيه: «ينبغي أن تكون الفرنسية اللغة الوحيدة المستعملة، وينبغي على الجمهورية، الضامنة لحرية المواطن، أن تمنع استعمال أي لغة أخرى غير الفرنسية.

Le français seul doit être utilisée, la République garanté de la liberté du citoyen, doit interdire toute langue autre que la langue française.

وعلى إثر إلقاء هذا التقرير، صوت برلمان الثورة على مرسوم بتعميم اللغة الفرنسية ومنع اللغات الجهوية، نصت مادته الثالثة على مايلي: «إنه ابتداءً من تاريخ نشر هذا المرسوم، كل عقد عمومي، أو خاص، لابد أن يحرر بالفرنسية وحدها، ويمنع نشره بأية لغة جهوية. إن كل موظف أو محرر ضبط عام، كل عون حكومي، يقوم ابتداءً من هذا التاريخ، بتحرير أو تقديم أو توجيه أو توقيع محاضر، أو عقود، أو أعمال أخرى، بلغة أخرى غير اللغة الفرنسية، يقدم أمام محكمة الجنح بإقامته، ويعاقب بستة أشهر سجنا، وبالطرد من الوظيفة.

Tout fonctionnaire ou officier public, tout agent du gouvernement qui, a partir de la publication de la présente loi, dressera, écrira ou souscrira, dans l'exercice de ses fonctions, des procés verbaux, jugements, contrats, ou autres, par une langue autre que la langue française, sera traduit devant le tribunal correctionnel de sa résidence, condamne à six mois de prison et destitue

قانون حماية اللغة الفرنسية (1994)

وبمناسبة مرور قرنين على صدور قانون تعميم استعمال اللغة الفرنسية، صدر بفرنسا قانون لحماية اللغة الفرنسية من تسرب الكلمات الأنجليزية إليها، أعده وزير الثقافة آنذاك السيد جاك توبون (وزير العدل الحالي) وسمي هذا القانون (قانون لزوم الفرنسية). ونص القانون على ضرورة منع استخدام ألفاظ أو عبارات أجنبية، في كل الوثائق والمستندات، والإعلانات المسموعة والمرئية المعروضة على الجمهور، وكل مكاتبات الشركات العاملة على الأرض الفرنسية، وبوجه خاص فإن الإلزام باستخدام اللغة الفرنسية يلزم المحلات التجارية، والشرائط الدعائية التي تبث عبر الإذاعة والتلفزة. كما اشترط القانون على البلديات والمصالح الحكومية ألا تمول سوى المؤتمرات والندوات الدولية التي تكون فيها الفرنسية لغتها الأساسية، كما منع نشر أعمال أية مؤتمرات دولية شارك فيها باحثون أجانب، ما لم تكن مصحوبة بملخص مكتوب بالفرنسية.

وقد أثار هذا القانون نقاشا واسعا بفرنسا بين مؤيد ومعارض، وكانت جلسة الجمعية الوطنية التي نوقش فيها صاخبة، وصل الحال بالنائب الاشتراكي (ديديه ماتوس) المعارض للقانون، أن قال لتوبون في هذه الجلسة: «هل علينا أن نربط صورة اللغة الفرنسية بصورة جندي يحمل عصا غليظة؟ إن مشروعكم هو من نوع القانون الأمني، نتبين فيه ميلا إلى طرد الألفاظ الأجنبية، مثلما يتم طرد الأجانب الذين لا يتمتعون بوجود شرعي فوق الأراضي الفرنسية. هل ستبادرون، يا سيد توبون، إلى المطالبة بتكوين هيئة جمارك خاصة باللغة، ومفتشي جمارك للمفردات؟!!!». وبالرغم من هذا النقاش الحاد الذي دار بالبرلمان الفرنسي، فقد فاز هذا القانون بالأغلبية الساحقة للأصوات.

وما يجري الآن في منطقة البحيرات الكبرى بإفريقيا، هو في بعض مظاهره صراع بين الفرنكوفونية التي تتكلمها قبائل الهوتو، وقبائل التوتسي التي تتكلم الأنجليزية، وترى فرنسا الآن في زحف التوتسي على الزائير أكبر تهديد للفرنكوفونية، في أكبر بلد بإفريقيا السوداء. وبالرغم من اعتبار الدنيا كلها أن موبوتو أسوأ حاكم بإفريقيا، ولابد أن يزول، فإن فرنسا تدافع عنه خوفا من وقوع الزائير تحت نفوذ التوتسي الأنجلوفونيين.

وقد تضمن قانون "توبون" هذا مواد جزائية أشد من المواد الجزائية التي تضمنها قانون تعميم استعمال اللغة العربية عندنا، إذ تصل عقوبة القانون الفرنسي إلى عشرة آلاف فرنك فرنسي ثقيل، أي أكثر من ألفي دولار، لكل من يخالف أحكام هذا القانون. علما بأنه يعتبر مجرد قانون وقائي، في مواجهة مجرد تهديد من بعيد من طرف الألفاظ الأنجليزية، بينما يواجه قانوننا هيمنة كاملة على حياتنا من طرف الفرنسية، تهدد ثقافتنا الوطنية، وتلغي سيادتنا الوطنية.

وفي يوم الجمعة 15/ 11/ 1996، بثت القناة المذكورة آخر حلقة من هذا البرنامج تحت عنوان «اللغة الفرنسية: آخر المعارك» تكلمت فيه عن قانون لزوم

الفرنسية، المشهور بقانون توبون، وهي عبارة عن حديث مع الوزير جاك توبون الذي كان وزيرا للثقافة وكان له الفضل في صدور القانون سنة 1994 الذي صادق عليه البرلمان الفرنسي بجمعيته الوطنية، وبمجلس شيوخه، والذي يطبق الآن بصرامة.

وقد عين الرئيس شيراك السيد توبون وزيرا للعدل في حكومة آلان جوبييه لكي يضمن تطبيق هذا القانون.

الخلاصة:

أولا: لقد أنجز الفرنسيون مهامهم الوطنية كاملة إزاء لغتهم التي اعتبروها الإسمنت الذي لحم شتات الأمة الفرنسية قبل قرنين، فعمموها على حساب خمس لغات جهوية، في الوقت الذي ترتفع فيه أصوات ناعقة عملية، تطالب بأن ترسم لهجات للقضاء على وحدانية اللغة العربية، الذي عرفته بلادنا منذ أربعة عشر قرنا.

ثانيا: وبعد قرنين أصدر الفرنسيون قانونًا لحماية اللغة الفرنسية من مجرد تهديد الإنجليزية للغتهم، في الوقت الذي نقرأ فيه كتابات في هذه الأيام في صحافتهم الصادرة في الجزائر، لعملاء فرنكوفيليين يهاجمون قانوننا، ويسلطون حملة من الإرهاب على أعضاء المجلس الانتقالي الذين طالبوا منذ سنتين بتحرير قانون العربية. وقد سبق أن كتبت «أن الجزائر عرفت نوعين من الحركية والقومية، حركية والقومية العضلات قبل 1962، الذين حملوا السلاح مع الجيش الفرنسي ضد كفاح شعبهم، وانتهى بهم المطاف إلى أن يعيشوا هم وأولادهم مأساة إنسانية تتمثل في نبذ المجتمع الفرنسي لهم. وحركيو وقومية الفكر بعد 1962، الذين كانوا بمثابة الطابور الخامس للاستعمار الجديد، أوصلوا بلادنا -بتحكمهم في مقاليدها بلغتهم الفرنسية- إلى ما وصلت إليه، ولازالوا مصرّين على بقائهم في مواقعهم التآمرية، والفرق

بين حركيي وقومية العضلات، وحركيي وقومية الفكر، أن أولئك خانوا وطنهم عن جهل، فقد كانوا أميين، أما هؤلاء فهم يخونوه عن معرفة (عن كتابي "التعريب في الجزائر" الصادر سنة 1993).

ثالثا: ومن الغريب أن مجلة "إكسبريس L'express" الفرنسية في عددها الصادر في 10/ 2/ 1994 وصفت هؤلاء العملاء بهذه الصفة، أي بحركيي الفكر، وقالت عنهم: «لقد تبينت لنا حقيقة أن هؤلاء الفرنكوفونيين الجزائريين هم أقلية ضئيلة جدا ultraminoritaire مقطوعون عن الجماهير، ونحن نتساءل: أي مستقبل بالجزائر لحركيي الفكر هؤلاء!!! إن للمثقفين وللبورجوازية الفرنكوفونية حظ ضئيل في أن يجدوا مكانهم في هذه الجزائر القلقة التي تولد الآن، إن هؤلاء الضحايا المأساويين للتاريخ يستحقون كل مساعدة. لقد بنت فرنسا عليهم سياستها الجزائرية، فسقطت في فخ الحوار مع هؤلاء، الذين كانت تتصور أنهم يمثلون شيئا بالجزائر، وأنهم قادرون على تقديم الجزائر في الصورة التي تمنت فرنسا أن تكون عليها». ويبدو أن هذه المجلة اطلعت على كتابي المذكور وأخذت منه صفة حركي الفكر.

رابعا: إن المعركة القادمة تكمن في تطبيق قانون تعميم استعمال اللغة العربية. وأنا أطالب بأن نطبق نفس الأسلوب الذي تبناه الفرنسيون في تطبيقهم لقانون استعمال اللغة الفرنسية سنة 1794، ولقانون لزوم الفرنسية الصادر سنة 1994، ولتكن وطنيتنا في نفس مستوى وطنية الفرنسيين، لا أكثر ولا أقل.

حوادث تيزي وزو 1980 في الصحافة الأوروبية

بقلم الدكتور عثمان سعدي

رئيس الجمعية الجزائرية للدفاع عن اللغة العربية

ينبغي أن نفرّق بين الأسلوب الذي تناولت فيه أجهزة الإعلام الفرنسية وأجهزة الإعلام الأوروبية لحوادث 1980 في تيزي وزو. فالصحافة الفرنسية تناولت الموضوع على أنه مطالبة أقلية بربرية بحقوقها الثقافية أمام هيمنة ثقافية عربية. علما بأن المهيمن في الجزائر المستقلة هي اللغة الفرنسية. وأن الصراع الحقيقي بين العربية والفرنسية، وليس بين العربية والبربرية، وهذا ما أبرزه رجال الثقافة الإنجليز مثلا.

صحف فرنسا:

نشرت جريدة (ليبيراسيون Liberation) في يومين على التوالي (8 و9 أفريل - نيسان 1980) مقالات تحت عناوين: (البربر في العاصمة. مظاهرات للبربر تهتف من أجل الحرية). صحيفة (لاكروا La Croix) تنشر في أعدادها 8، 9 و10 أفريل مقالات بالعناوين التالية (الثقافة البربرية المقهورة. مظاهرات جديدة للطلبة البربر). صحيفة (لورور L'Aurore) تختار يوم 10 أفريل عنوانا (التحرك البربري الذي لا يمكن إخماده). وكررت مجلة (ليكسبريس L'Express) نفس العنوان بتاريخ 26 أفريل و5 مايو 1980. كما كتبت (لوكوتيديان دو باري Le quotidien de Paris) ثلاث مقالات متتالية أيام 17، 18 و19 أفريل تحت عنوان (ثورة البربر). أما مجلة (نوفيل أبسيرفاتور Nouvel Observateur) فقد كتبت يومي 21 و28 أفريل تحت عنواني (مظالم البربر. ومظاهرات البربر). واحتلت الحوادث صدر الصفحة الأولى لصحيفة (لوموند Le Monde) يوم 22 أفريل تحت عنوان (الجزائر ومشكلة البربر).

رأي الإنجليز:

لعل أعمق تحليل في بريطانيا لحوادث 1980 في تيزي وزو، وأكثرها موضوعية، ما كتبه (روبيرتز هو Hugh Roberts)، الأستاذ في جامعة إيست إنجيليا البريطانية، حيث قال:

«1 - إن جوهر السخط في بلاد القبائل هو مصالح اقتصادية. فالتعريب الذي أخذت به الحكومة الجزائرية، منذ الاستقلال، كالتزام إيديولوجي وضرورة قومية، يهدد مصالح قطاعات كبيرة من بربر القبائل، الذين تخلوا عن العربية كلغة ثانية، وأحلوا الفرنسية محلها، وتمكنوا بسبب ذلك من احتلال العديد من المواقع في كل أجهزة الدولة والاقتصاد. ومعنى هذا باختصار أن يفقد بربر القبائل هذه الميزة النسبية. لقد ثار بربر منطقة الريف المغربية (التي كان يسيطر عليها الإسبان ثم انضمت إلى الوطن الأم عام 1956) ضد محاولة فرض اللغة الفرنسية كلغة ثانية وهي لغة لم يكونوا يجيدونها، وأصروا على العربية والتعريب.

2 - إن معارضة بربر القبائل للتعريب هو أقوى من إصرارهم على المحافظة على لغتهم الأمازيغية، وتنميتها واعتمادها كلغة وطنية رسمية، فهي لا تعتبر المطلب الرئيسي الحقيقي للنخبة البربرية القبائلية، ولكنهم لا يستطيعون أن يجهروا بذلك، خشية أن يفقدوا تأييد الكثيرين من البربر الآخرين، وتعاطف بعض العرب الليبراليين. إنهم، أي عناصر النخبة البربرية القبائلية، يتشبثون بكل ما من شأنه تعطيل مسيرة التعريب، على أمل وقفها تماما.

3 - إن كل قطاعات الطبقة الوسطى لبربر القبائل، سواء من العاملين في الحكومة، أو القطاع العام، أو في التجارة والصناعة والمهن الحرة، يشاركون النخبة السياسية المحلية دوافعها ورغباتها في تعطيل التعريب وإبقاء الفرنسية

كلغة مهيمنة. أما طبقة الفلاحين الدنيا في بلاد القبائل فالمشكل اللغوي الثقافي لا يهمها كثيرا، ومع ذلك فهي مهيأة للاستجابة والاستثارة بسبب مشكلاتها الاقتصادية المحلية». (انتهى نص الكاتب البريطاني).

الخلاصة:

أولا: نلاحظ أن ما كتبه الأستاذ الجامعي البريطاني كان سنة 1980، أي قبل ست عشرة سنة، وقد صار الكثير مما كان يراه خافيا يمارس الآن على المكشوف من طرف البربريست، المتجمعين في بلاد القبائل، كمحاربة التعريب والعمل على استمرار هيمنة اللغة الفرنسية، الذي ظهر بوضوح في الحملة التي تشنها صحافتهم على رفع تجميد قانون تعميم استعمال اللغة العربية، الذي يناقش في المجلس الانتقالي في نهاية 1996، والتي تتزعمها عناصر الحركة الثقافية البربرية (MCB). والأمر الذي نختلف فيه مع هذا الكاتب، هو أن إخواننا ببلاد القبائل مغرر بهم من طرف أقلية ضالة، وبدأت الآن تكشف ارتباطاتهم بالخارج. والبوادر كلها تشير إلى أن أبناء جرجرة الأشم، سليلي المقراني، ولالة فاطمة نسومر، والشيخ الحداد، والشيخ الفضيل الورتلاني، ومولود قاسم نايت بلقاسم، سيزيحون الستار عن تآمر هذه الأقلية ويتخلون عنها.

ثانيا: يتضح مما سبق أن النزعة البربرية الهدامة من خلق الاستعمار الفرنسي القديم والجديد، وأن بقية الأوروبيين غير منساقين مع التآمر الفرنسي على الوحدة الوطنية الجزائرية.

فهرس الأعلام

مراجع الكتاب

المراجع العربية:

- الإبراهيمي، محمد البشير: عيون البصائر.
- ابن الأثير، علي بن أحمد، الكامل في التاريخ (القاهرة 1357 هـ).
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر... (بيروت 1968).
- ابن عبد الحكم، عبد الرحمن: فتح مصر والمغرب (القاهرة 1961).
- ابن عذارى، أبو العباس أحمد: البيان المغرب في أخبار المغرب (بيروت 1950).
- ابن منظور، جمال الدين: لسان العرب (القاهرة 1891).
- بن يوسف بن خدة: مصادر أول نوفمبر 1954 (الجزائر 1989) بالفرنسية.
- أحمد بن نعمان: فرنسا والأطروحة البربرية في الجزائر (الجزائر 1991).
- باغي، عبد الرحمن: حياة القيروان (بيروت 1961).
- البكري، أبو عبد الله: المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والغرب (الجزائر 1911).
- تاغامونت، عز الدين: معجم الأمازيغية (الجزائر 1995).
- خشيم، علي: آلهة مصر العربية (ليبيا 1990).
- دبوز، محمد علي: تاريخ المغرب الكبير (القاهرة 1963).
- سالم، السيد عبد العزيز: المغرب الكبير، ج2، (القاهرة 1966).
- سعدي عثمان: التعريب في الجزائر: كفاح شعب ضد الهيمنة الفرنكفونية (الجزائر 1993).
- السلاوي، أحمد الناصري: الاستفضاء لأخبار دول المغرب الأقصى (القاهرة 1894).
- سوسة، أحمد: حضارة العرب ومراحل تطورها عبر العصور (بغداد 1979).
- الطبري، محمد بن جرير: تاريخ الأمم والملوك (القاهرة 1939).
- العرباوي، محمد مختار: البربر عرب قدامى (الرباط 1993).
- علي، جواد: تاريخ العرب قبل الإسلام (بغداد 1956).
- فهمي، أبو العينين: أفغانستان بين الأمس واليوم (القاهرة 1969).

- الكعاك، عثمان: مراكز الثقافة في المغرب (القاهرة 1958).
- مادون، محمد علي: عروبة البربر (دمشق 1992).
- المالكي، أبو عبد الله: رياض النفوس (القاهرة 1955).
- المراكشي، محيي الدين: المعجب في تلخيص أخبار المغرب (القاهرة 1949).
- مرقص، إلياس: الماركسية السوفياتية والقضايا العربية (بيروت 1973).
- مؤنس، حسين: فتح المغرب العربي (القاهرة 1947).
- معجم ألفاظ القرآن الكريم (القاهرة 1970).
- الميثاق الوطني الجزائري.
- الناضوري، رشيد: المغرب الكبير، ج1، (القاهرة 1966).
- مجلة المقتطف (المصرية) عدد مايو 1934.
- مجلة المجمع العلمي (السوري) عدد أفريل (نيسان) 1986.

المراجع الأجنبية:

- AGERON (C.R.): Politique coloniale au Maghreb (Paris 1972).
-Andre (P.J.) (C.R.): Membre de l'academie de sciences coloniales: Contribution a l'etude des confreries religieuses musulmanes (Alger 1956).
- BASSET - Andre: La langue berbere (Paris 1929).
- BASSET - René: Les influences puniques chez les berberes (revue africaine) v.72 (1921).
- BATES - Oric: the eastern lybyens, (London, 1970) (first editions 1914).
- BEHIR -Edward: Une amerique qui fait peur (Paris 1995).
- BERNAL - Martin: Black Athena, the afroasiatic roots of classic civilisation (London 1991).
- BEN KHEDDA- Ben Youcef: Les origines du 1er Nouvembre 1954 (Alger 1989).
- CINTAS - P.: Ceramiques puniques, (Paris 1950).
- COLONNA - Fanny: Les instituteurs Algériens (1883 - 1893).

- DALLET - Jean - Marie: Dictionnaire de la langue Kabyle (Paris 1982).
- DATUS. C. Smith: Indonesia: Land and people. (New York 1961).
- Dictionnaire Encyclopedique (Quillet) A. Bota.
- ديورانت: قصة الحضارة. الترجمة العربية (القاهرة 1956 - 1976).
- DOUEL - Marial: l'Algérie Romaine (Paris 1930).
- Encyclopedia Universalis (Paris 1968).
- دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية (القاهرة 1933).
- GAUTIER - Emile - Felix: Considerations sur l'histoire du Maghreb (Revue Africaine, Vol. 68 (1927).
- GAUTIER - Emile - Felix: Le passe de l'Afrique du Nord (Paris 1964).
- Grand Larousse Encyclopedique.
- GREENBERG (J.H.): Languages of Africa (USA 1966).
- KATI - Mohamed: TAREK Alfattach (Paris 1913).
- لانغر، ويليام: موسوعة العالم (الترجمة العربية، القاهرة 1962).
- لوبون، غوستاف: حضارة العرب. ترجمة عادل زعيتر. ط2.
- LUTSKY - V.: Modern History of the Arab countries (Moscow 1969).
- MARCAIS - William. (Revue Africaine, T.94 1950).
- MEDDAD - Messaoud: Guerre d'Algérie (Alger 1992).
- RENAN- Ernest: Histoire Generale des langues semitique. (Paris 7ème édition).
- ROSLER - O.: Orientalia, V.20 - 17.
- ROSSI - Pierre: La cite d'ISIS: Histoire vraie des Arabes (Paris 1976).
- ستالين: الماركسية وقضايا اللغة العربية (بالعربية، موسكو 1950).
- STORA - Benjamin: Ils venaient d'Algérie (Alger 1992).
- مجلة (الشرق) بالألمانية.
- Le Vietnamien et l'enseignement superieur au Vietnam (Hanoi 1968).
- Warmington - B.H.: CARTHAGE, London 1960.

الصحف:

- جريدة الأهرام المصرية، عدد 1995/06/18.
- جريدة المساء (الجزائرية)، عدد 1994/10/30.
- جريدة الشرق الأوسط اللندنية (أعداد 1995/11/23 - 1995/11/27 - 1995/12/13).
- المجاهد الأسبوعي الجزائرية، عدد 1996/9/1.
- أسبوعية الشروق العربي (الجزائرية) (أعداد: 1995/12/12 و238، 239، 240 - 1996/3/26 - 1996/5/21 - 1996/6/18 - 1996/8/6 و 1996/9/24).

الجرائد الجزائرية بالفرنسية:

- المجاهد اليومية (بالفرنسية) عدد 1970/5/7.
- جريدة (EL-WATAN) أعداد 10، 11، 12، 13، 14، 1996/8/15.
- جريدة (LIBERTE) أعداد 1996/4/15 - 1996/4/16 - 1996/8/3.
- جريدة (AUTHENTIQUE) عدد 1996/8/4.
- جريدة (LE MATIN) عدد 1996/10/3.

الفهـــرس

إنجاز

